الرواية الحائزة على جائزة مايكل إل برينتز لعام ٢٠١٨

WE ARE OKAY

سأكون بخير





نينا لاكور

ترجمة: محمد عبدالعزيز



سأكون بخير

تمضي بحياتك معتقدًا أن هناك الكثيرَ الذي تحتاج إليه، كتبك المفضلة، والموسيقى التي تحبها، وملابسك المفضلة، وأصدقاؤك، حتى تجد نفسك ذات يوم تغادرها بغير رجعة، لا تحمل غير هاتفك ومحفظتك وصورة والدتك. لم تتحدث "مارين" إلى أي شخص من حياتها القديمة منذ اليوم الذي تركَت فيه كل شيء وراءها. لا أحد يعرف حقيقة تلك الأسابيع الأخيرة. ولا حتى صديقتها المفضلة -سابقًا- المدعوة "مابيل".. ولكن بالرغم من وجودها على بُعد آلاف الأميال من ساحل كاليفورنيا، في الكلية في نيويورك، ما زالت "مارين" تشعر بحياتها القديمة ومأساتها -اللذين بذلت قصارى جهدها لتجاوزهما ونسيانهما- يجذبانها.



الآن، بعد أشهر، تنتظر "مارين" وحدها في مهجع خالٍ لقضاء عطلة الشتاء. تنتظر قدوم "مابيل" للزيارة، وستضطر "مارين" وقتها إلى مواجهة كل ما لم يتم قوله، ومواجهة الوحدة التي جعلت قلبها موطنًا لها لمرة أخيرة.

مكتبة ياسمين

تصميم الغلاف: محمود هشام





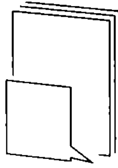


www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb



منحة الترجمة
Translation Grant
صندوق منحة الشارقة للترجمة
Sharjah Translation Grant Fund

سأكون بخير



منحة الترجمة
Translation Grant





لتجارة الكتب

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي: We Are Ok
- العنوان العربي: سأكون بخير
- طُبِع بواسطة: Dutton books for young readers
- طُبِع بواسطة: دار كتب داتون للقراء الصغار

- ترجمة: محمد عبد العزيز
- تدقيق لغوي: سلسبيل بهاء الدين
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: مايو/ 2022م
- رقم الإيداع: 2021/25344م
- الترقيم الدولي: 978-977-6902-79-4

الفصل الأول

سألتني «هانا» قبل الرحيل عما إذا كنت متأكدة من أنني سأكون بخير.

كانت قد انتظرت بالفعل مرور ساعة بعد إغلاق الأبواب لعطلة الشتاء، حتى رحل الجميع، ما عدا الحراس.

قامت بطيٍّ كومة من الغسيل، وكتبت رسالة إلكترونية، وبحثت في كتاب علم النفس الضخم الخاص بها عن إجابات أسئلة الامتحان النهائي؛ لمعرفة ما إذا كانت إجاباتها صحيحة.

نفدت طرقها لملء الوقت، لذلك عندما أخبرتها أنني سأكون بخير، لم يعد لديها ما تفعله سوى محاولة تصديقي.

ساعدتها في حمل الحقيبة للطابق السفلي.

منحتني عناقًا قويًا رسميًا قائلة:

- سنعود من عند عمتي في الثامن والعشرين من الشهر. سنستقل المترو ونذهب إلى السينما.

أجبتها بأنني سعيدة من أجلها، غير عارفة ما إذا كنت أعني ذلك حقًا.

عندما عدت إلى غرفتنا، وجدت أنها وضعت مظروفًا مغلقًا خفية على وسادتي.

والآن أنا وحدي في المبنى، أحدق إلى اسمي المكتوب بخط «هانا» المنمق على المظروف، محاولة ألا أترك منظر هذا المظروف يضايقني. لديَّ عقدة معينة من الخطابات على ما أعتقد.

لا أريد فتحه.. لا أريد أن أمسه حتى، لكني أواصل القول لنفسي بأنه سيكون شيئًا لطيفًا فقط.. بطاقة عيد الميلاد. ربما مكتوب رسالة خاصة عليها، أو ربما ليس مكتوبًا عليها أي شيء غير التوقيع. مهما يكن، سيكون شيئًا غير ضار.

تم إغلاق مسكن الطالبات في عطلة الفصل الدراسي التي تستمر لمدة شهر، لكن معلمتي ساعدتني في الترتيب للبقاء هنا.. لم تكن المشرفة سعيدة بذلك.

«أليس لديكِ عائلة؟»، ظلوا يسألون. «ماذا عن الأصدقاء الذين يمكنك البقاء معهم؟»

- هذا هو المكان الذي أعيش فيه الآن!

هكذا أجبتهم.

- هذا هو المكان الذي سأعيش فيه حتى أتخرج.

استسلموا في النهاية. ظهرت رسالة من مديرة الخدمات السكنية تحت بابي منذ يومين، تقول إن الحارس سيكون هنا خلال العطلة، وكتبت لي معلومات الاتصال الخاصة به. كتبت لي أن أتصل به إذا احتجت إلى أي شيء على الإطلاق.

الأشياء التي أحتاجها فعلًا هي: أشعة شمس كاليفورنيا، وأن تصبح ابتسامتي أكثر إقناعًا.

دون أصوات الجميع، وأصوات أجهزة التلفزيون في غرفهم، وصوت حنفيات المياه وهي تدور، ومرحاض دورات المياه وهو يصرف المياه، وأصوات أجراس أفران الميكروويف، وخطوات الأقدام والأبواب تنغلق -دون كل أصوات الحياة هذه- صار هذا المبنى مكانًا جديدًا وغريبًا.

أنا هنا منذ ثلاثة أشهر، لكني لم ألحظ صوت المدفأة حتى الآن. ارتفع صوتها وهي تعمل؛ بعثت نفحة من الدفء.

أنا بمفردي الليلة. ستصل «مابيل» غدًا وتبقى لثلاثة أيام، وبعد ذلك سأعود وحدي مرة أخرى حتى منتصف يناير. قالت «هانا» بالأمس:

- لو كنت سأقضي شهرًا بمفردي مثلك، كنت سأبدأ ممارسة التأمل. فهو نشاط ثبت فعليًا أنه يخفض ضغط الدم ويعزز نشاط المخ، كما أنه يقوي جهاز المناعة لدى الشخص.

أخرجَت بعد بضع دقائق كتابًا من حقيبة ظهرها.

- رأيت هذا الكتاب بالمكتبة ذلك اليوم. يمكنك قراءته أولًا إذا أردتِ.

ثم رمته على سريري. «مجموعة مقالات عن العزلة».. أعرف لماذا تخاف عليّ. ظهرتُ لأول مرة عند مدخل الغرفة بعد أسبوعين من وفاة «جرامبس»! دخلتُ كفتاة غريبة مصدومة، والآن صرت شخصًا تعرفه، وأنا بحاجة للبقاء على هذا النحو. من أجلها ومن أجلي.

بعد ساعة فقط على وجودي في المكان، كان أول إغراء لي: دفء شراشفي وسريري، والوسائد والدثار المصنوع من الفرو الصناعي الذي تركته هنا والدة «هانا» بعد زيارة نهاية الأسبوع. كلهم كانوا يدعونني للقفز عن الفراش. لن يعرف أحد ما إذا كنتِ ستبقين في السرير طيلة اليوم. لن يعرف أحد ما إذا ظللتِ ترتدين نفس البنطال الرياضي لشهر كامل، وإذا ظللتِ تأكلين كل وجبة أمام البرامج التلفزيونية وتستخدمين القمصان كمناديل للتنظيف. استمعي إلى نفس الأغنية وكرريها حتى تعتادها أُذنَاكِ فتكفّان عن سماعها حقًا، بينما أنتِ تخلدين للنوم حتى ينقضي الشتاء.

ليس لدي ما يساعدني على قضاء الوقت غير زيارة «مابيل»، ثم سيصير كل هذا لي.

يمكنني تمضية الوقت على منصة «تويتر» حتى تتشوش رؤيتي، ثم أنهار على سريري كشخصية من شخصيات روايات «أوسكار وايلد». يمكنني أن أسكب لنفسي زجاجة ويسكي (على الرغم من أنني وعدت «جرامبس» بأني لن أفعل ذلك) وأدعها تجعلني أشعر بالنشاط، وتجعل كل حواف الغرفة ناعمة من حولي، ولتتحرر الذكريات من أقفاصها. ربما أسمعه يغني مرة أخرى، إذا سكت كل شيء آخر.

لكن هذا ما تحاول «هانا» إنقاذي منه. كان غلاف كتاب مجموعة المقالات لبنيًّا ورفيعًا. فتحت الكتاب على الاقتباس، بقلم «ويندل بيري»:

«في دائرة البشر سئمنا الكفاح، ولا نجد راحة..

دائرتي الخاصة من البشر هربت من البرد القارس بمنازل آبائهم، ليظفروا بمواقد تُدفئهم أو وجهة استوائية، حيث سيلتقطون لأنفسهم صورًا وهم يرتدون ملابس السباحة أو قبعات بابا نويل، متمنيين لأصدقائهم عيد ميلاد سعيدًا».

سأبذل قصارى جهدي لأثق بالسيد «بيري» وأرى غيابهم كفرصة يجب استغلالها.

كان المقال الأول عن الطبيعة، بقلم كاتب لم أسمع عنه من قبل، يقضي الصفحات في وصف بحيرة!

لأول مرة منذ وقت طويل استرخيت في وصف المكان؛ وصف هدير الماء وتموجاته، وبريق الضوء منعكسًا على سطح مياه البحيرة، والحصى الصغير على الشاطئ.

بعد هذا انتقل إلى الطفو والشعور بانعدام الوزن؛ هذه أشياء أفهمها. أنا مستعدة لأواجه البرد بالخارج لو أن معي مفتاحًا للمسبح الداخلي. إذا كان بإمكاني بدء وإنهاء كل يوم من هذا الشهر الانفرادي بالقيام ببعض السباحة، كنت لأشعر بأنني أفضل بكثير. لكني لا أستطيع، لذلك واصلتُ القراءة.

اِقترَح أن نفكر في الطبيعة كطريقة لنكون وحدنا. قال إن البحيرات والغابات موجودة في أذهاننا.

أغمض عينيك -هكذا كتب- واذهب إلى هناك.

أغمضت عينيَّ. سمعت صوت المدفأة تنطفئ. انتظرت لأرى ماذا سوف يملؤني. شعرت به يأتي ببطء: الرمل.. عشب الشاطئ، وزجاج البحر.. النوارس والطيور البحرية الأخرى.. الصوت.. ثم -بشكل أسرع- مشهد الأمواج وهي تهاجم، ثم تتراجع، وتختفي وسط المحيط والسماء.

فتحت عينيَّ.

كان هذا كثيرًا بالنسبة إليَّ.

بدا القمر شظية لامعة معلقة بالسماء خارج نافذتي.

كان مصباح مكتبي، الذي سطع على قطعة من الورق المستعمل، هو الضوء الوحيد المشتعل في المائة غرفة الموجودة بهذا المبنى. كنت أصنع قائمة؛ من أجل ما بعد رحيل «مابيل»:

قراءة صحيفة نيويورك تايمز على الإنترنت كل صباح.

شراء البقالة.

صنع بعض الحساء.

استقلال الحافلة إلى منطقة التسوق/ المكتبة/ المقهى..

القراءة عن العزلة.

التأمل.

مشاهدة بعض الأفلام الوثائقية.

الاستماع إلى المدونات الصوتية.

البحث عن موسيقى جديدة...

قمت بملء الغلاية الكهربائية في حوض الحمام، وبعد ذلك صنعت لنفسي طبقًا من النودلز. أثناء تناول الطعام قمت بتحميل كتاب مسموع عن التأمل للمبتدئين. ضغطت ليبدأ تشغيل الكتاب. شرد عقلي قليلًا..

حاولت النوم لاحقًا، لكن الأفكار استمرت في الظهور. اختلط كل شيء معًا: أخذت «هانا» تتحدث عن التأمل وعروض برودواي، والحارس ظهر ليسألني عما إذا كنت سأحتاج إلى شيء منه. وأما «مابيل»، فقد وصلت بطريقة ما إلى هنا، حيث أعيش الآن، وتمكنت بطريقة ما من جعل نفسها جزءًا من حياتي ثانية. لا أعرف حتى كيف سأتمكن من نطق كلمة مرحبًا عندما أراها.

لا أعرف ماذا سأفعل بوجهي، هل سأكون قادرة على الابتسام، هل يتوجب عليَّ أن أفعل من الأصل؟

وأثناء كل هذا أخذتِ المدفأةُ تعمل ثم تتوقف مرارًا، وشعرت بصوتها يعلو ويعلو متسببًا في زيادة شعوري بالتعب. أشعلت المصباح المجاور للسرير والتقطت كتاب المقالات.

يمكنني تجربة التمرين مرة أخرى بينما أنا على أرض صلبة هذه المرة. أتذكر أشجار الخشب الأحمر الضخمة، التي تطَلَّبَ الأمر لنطوق واحدة منها فقط لأن يمدَّ خمسة أشخاص بالغين أذرعهم حولها. تحت الأشجار كانت السراخس والزهور والتراب الأسود الرطب. لكنني لا أثق في أن يتمكن ذهني من البقاء في تلك الغابة من الشجر الأحمر، بينما بالخارج هناك أشجارٌ لم أقم بلف ذراعي حولها من قبل، مغطاة بطبقات كثيفة من الثلج.

لم أبق في مكان كهذا إلا لثلاثة أشهر فقط.

سأبدأ هنا.

خرجت من السرير وارتديت سروالًا رياضيًا، ووضعت سترة ضخمة فوق القميص الثقيل الذي أرتديه.

سحبت كرسي مكتبي إلى باب غرفتي ثم إلى أسفل الردهة نحو المصعد، حيث ضغطت على زر استدعائه للطابق العلوي. بمجرد أن انفتحت أبواب المصعد، حملت الكرسي إلى النافذة الضخمة المقوسة بالبرج، حيث يكون المكان هادئًا دائمًا، حتى عندما يكون المسكن ممتلئًا. هناك أجلس وقد وضعت راحتيّ على ركبتيّ، وفردت قدميّ على البساط.

بالخارج كان القمر، ومعالم الأشجار، ومباني الحرم الجامعي، والأضواء التي تحفُّ الممرات. كل هذا صار منزلي الآن، وسيظل منزلي بعد مغادرة «مابيل». أحاول أن أستوعب تلك الحقيقة القاسية.

شعرت بعينيَّ تحرقانني، وحلقي يضيق. تمنيت لو كان لدي شيء يساعدني على التخلص من ذلك الشعور الممض بالوحدة. هل كلمة «وحدة» هي أكثر الكلمات دقة لوصف حالي من الأصل؟ لو أنها كذلك فالمفترض أن يكون وقعها أقل جمالًا بكثير.

على الرغم من ذلك، أُفَضِّل مواجهة هذا الأمر الآن، حتى لا يفاجئني لاحقًا، فأجد نفسي مشلولة وغير قادرة على شق طريقي عائدة لطبيعتي.

أخذت نفسًا عميقًا، ثم أخرجته..

أبقيت عينيَّ مفتوحتين على تلك الأشجار الجديدة. أعرف مكاني، وأعرف ماذا يعني أن أكون هنا. أعرف أن «مابيل» قادمة غدًا، سواء أردت ذلك أم لا.

أعلم أنني دائمًا وحيدة، حتى عندما يحيطني الناس، لذلك تركت الفراغ يقتحمني ويملؤني.

كانت السماء ذات لون أزرق داكن، وكل نجم صافٍ ولامع. شعرت براحتيّ دافئتين على ساقي.

هناك العديد من الطرق لتكون وحيدًا. هذا شيء أنا متأكدة من أنه حقيقي.

أخذت نفسًا عميقًا (أفكر بنجوم وسماء) ثم أخرجته (أفكر بثلج وأشجار).

هناك العديد من الطرق لتكون وحيدًا، وآخر مرة لم يكن الأمر هكذا.

العالم يبدو مختلفًا في الصباح.

نمت حتى العاشرة تقريبًا، عندما سمعت صوت شاحنة الحارس أسفل غرفتي، يقوم بإزالة الثلج.

أما الآن فقد تحمَّمتُ وارتديت ملابسي، بينما نافذتي تسمح بدخول ضوء النهار.

اخترت قائمة الأغاني، وقمت بتوصيل مكبرات صوت «هانا» بجهاز الكمبيوتر الخاص بي، وسرعان ما ملأت أنغام الجيتار الغرفة من حولي، يتبعها صوت امرأة. أمسكت الغلاية الكهربائية في يد، وفتحت باب غرفتي بالأخرى، متجهة إلى حوض الحمام، بينما تبعني صوت الأغنية في أركان المكان.. تركت باب الحمام مفتوحًا. ما دمتُ ساكنتهم الوحيدة؛ فالأفضل أن أجعل هذه المساحات خاصة بي.

امتلأت الغلاية بالمياه. ألقيت نظرة على انعكاسي أثناء انتظاري. حاولت أن أبتسم بالطريقة التي يجب أن أبتسم بها عندما تصل «مابيل». ابتسامة

تكشف عن نفس القدر من الترحيب والندم. ابتسامة ذات معنى مستتر، ابتسامة تقول كل ما أريد أن أقوله لها فلا أضطر إلى الحديث.

أغلقت الصنبور، ثم عدت إلى غرفتي، وقمت بتوصيل الغلاية والتقطت السلطانية الصفراء من حيث تستقر، مقلوبة لتجف، من ليلة الأمس. سكبت بعض الجرانولا وبقية الحليب الذي كان في الثلاجة الصغيرة الكائنة بين مكتب «هانا» ومكتبي. سأتناول شاي الإفطار ثقيلًا هذا الصباح.

بعد سبع ساعات ونصف ستصل «مابيل».

سرتُ إلى المدخل لرؤية الغرفة كما ستراها عندما تصل. لحسن الحظ كانت «هانا» قد أدخلت بعض الألوان للمكان، لكن الأمر لا يستغرق أكثر من لحظة لملاحظة التباين بين الجزء الخاص بها من الغرفة، والجزء الخاص بي.

باستثناء نباتي والأطباق، كان مكتبي عاريًا بالكامل؛ كنت قد بِعت جميع الكتب المدرسية للفصل الدراسي الماضي منذ يومين، ولا أريدها حقًا أن تأتي لترى عندي كتابًا عن العزلة، لهذا حشرته في خزانة ملابسي -هناك متسع كبير- وعندما استدرت مرة أخرى، واجهني أسوأ جزء على الإطلاق: اللوحة الخشبية الخاصة بي –والتي من المفترض أن أعلق عليها الواجبات المتأخرة، الصور المميزة، أو المهمات المنتظرة لتذكرني بها- دون أي شيء عليها. قد لا أكون قادرة على فعل الكثير بخصوص ابتسامتي، لكن يمكنني فعل شيء حيال اللوحة. لقد مررت بغرف نوم كثيرة بمهاجع كافية لأعرف ماذا عليّ أن أفعل. كنت قد قضيت الكثير من الوقت في النظر إلى حائط «هانا». أحتاج إلى اقتباسات من أغانٍ وكتب. أحتاج إلى صور فوتوغرافية، وهدايا تذكارية، وكعوب تذاكر حفلات موسيقية، ومعظم هذه الأشياء ليست لديّ، لكن يمكنني أن أبذل قصارى جهدي باستخدام الأقلام والورق والطابعة التي نتشاركها أنا و«هانا». هناك أغنية كنت أسمعها مع «هانا» كل صباح. كتبت كلمات الأغنية من الذاكرة بقلم أرجواني، ثم قمت بقص الورقة في شكل مربع حول الكلمات. قضيت وقتًا طويلًا على الإنترنت لأختار صورة للقمر.

كانت «كيتون»، التي تعيش أسفلنا بدورين، تعلمنا كل شيء عن الكريستال. لديها مجموعة على عتبة نافذتها، تتلألأ دائمًا بالضوء. وجدت مدونة امرأة اسمها «جوزفين»، تشرح الخصائص العلاجية للأحجار الكريمة وكيفية استخدامها. وجدت صورًا لحجر البيريت (للحماية)، والهيماتيت (للمعرفة)، واليشم (للصفاء والهدوء).

زأرت الطابعة الخاصة بنا وبدأت تصدر أصواتًا وهي تدور. ندمت على بيع كتبي الدراسية بتلك السرعة.

كان عندي الكثير من أوراق الملاحظات وخربشات باهتة بقلم رصاص على العديد من الصفحات. في مادة التاريخ كنا ندرس حركة الفنون والحرف اليدوية، وكانت هناك الكثير من الأفكار التي أحببتها. بحثت على الإنترنت عن «ويليام موريس»، قرأت مقالًا بعد الآخر، في محاولة للعثور على اقتباساته المفضلة لديّ. قمت بنسخ القليل منها، مستخدمة لونًا مختلفًا لكل واحدة منها. قمت بطبعها أيضًا بخطوط مختلفة، لمعرفة ما إذا كانت ستبدو مكتوبة بشكل أفضل بأحد تلك الخطوط. بحثت عن شجرة الخشب الأحمر التي تشبه ذكرياتي وانتهى بي الأمر وأنا أشاهد فيلمًا وثائقيًا قصيرًا عن غابات كاليفورنيا، عرفت منه أن غابات كاليفورنيا الحمراء تجمع معظم مياهها خلال فصل الصيف من الضباب، وأن تلك الغابات تأوي فصيلة معينة من حيوان السمندل، ليس لديها رئتان وتتنفس من خلال بشرتها. قمت بطباعة صورة لهذا السمندل وهو يقف على طحلب أخضر فاتح، وبمجرد أن توقفت الطابعة، حتى فكرت أن لديّ ما يكفي.

اقترضت حفنة من دبابيس «هانا»، وقمت بترتيب كل ما قمت بطباعته وكتابته، ثم تراجعت للخلف وألقيت نظرة عليه. كل شيء هش جدًا، وجديد جدًا. كل الأوراق بنفس درجة البياض. لا يهم أن تكون الاقتباسات مثيرة للاهتمام، ولا أن تكون الصور جميلة. المنظر يبدو بائسًا مثيرًا للشفقة.

والآن ها قد صارت الساعة الثالثة بالفعل وقد أهدرت كل تلك الساعات، وأصبح من الصعب التنفس لأن الساعة السادسة والنصف لم تعد بعيدة للغاية!

«مابيل» تعرفني أكثر من أي شخص آخر في العالم، على الرغم من أننا لم نتحدث على الإطلاق خلال الأشهر الأربعة الأخيرة. معظم رسائلها لي لم تقابل أي رد حتى توقفت في النهاية عن إرسالها. لا أعرف كيف هي حياتها في لوس أنجلوس، وهي لا تعرف الكثير عني بالمقابل؛ فهي لا تعلم ما هي الصفوف التي حضرتها أنا، أو ما إذا كنت أنام بما فيه الكفاية حتى، لكن بمجرد أن تلقي نظرة واحدة على وجهي ستعرف كيف حالي. أزلت كل شيء من فوق لوحتي الخشبية، وحملت الأوراق أسفل القاعة إلى الحمام في الجناح الآخر، حيث قمت بإلقائها في القمامة.

لن أتمكن من خداعها، ولست متأكدة مما إذا كان الموضوع يستحق المحاولة حتى.

انفتحت أبواب المصعد، لكنني لا أخطو إلى الداخل. لا أعرف لماذا لم أقلق أبدًا بشأن المصاعد من قبل. لكن الآن، في وضح النهار، وقد اقترب موعد وصول «مابيل» بشدة، أدركت أنه إذا ما تعطل المصعد، أو إذا علقت بالداخل وحدي، وإذا لم يتمكن هاتفي من التقاط شبكة، فإنني سأظل محبوسة داخله لفترة طويلة قبل أن يفكر الحارس في الاطمئنان عليّ.. لأيام على الأقل.

ستصل «مابيل» ولن تجد مَن يفتح لها الباب. ستقرع الباب بكل قوتها ولن أسمعها حتى.

في النهاية، ستعود في سيارة الأجرة التي أتت بها وتنتظر في المطار حتى تجد طائرة تأخذها للمنزل. ستفكر أن هذا التصرف متوقعٌ مني، أنني سأخيب ظنها، أنني سأرفض أن أرى أحدًا، أنني أخذت أراقب أبواب المصعد وهي تنغلق مرة أخرى ثم اتجهت نحو درجات السلم. كان التاكسي الذي طلبته ينتظر بالخارج، ومحركه دائرٌ، صنعت ممرًا من الجليد المجروش من ردهة السكن، والفضل يرجع إلى حذاء «هانا» طويل العنق، الزائد على حاجتها، والذي كان أصغر من مقاسي بدرجة بسيطة، والذي أجبرتني على انتعاله بمجرد أن بدأت الثلوج تتساقط.

(«ليس لديكِ فكرة عن مدى حاجتك له!» قالت لي وقتها.)

خرج سائق التاكسي ليفتح لي الباب. أومأت برأسي شاكرة.

- إلى أين؟

سألني بمجرد أن صرنا داخل السيارة، واستشعرت دفء الهواء بالداخل.. استنشقت هواءها المعبأ برائحة الكولونيا والقهوة وأنا أرد:

- متجر «ستوب آند شوب»..

أولى الكلمات التي أنطقها منذ أربع وعشرين ساعة من الصمت. رأيت مصابيح البقالة المضيئة، والمتسوقين وعربات تسوقهم، والرضع الباكين، وموسيقى عيد الميلاد..

سيكون كثيرًا جدًا إذا لم أكن أعرف بالضبط ماذا أنوي أن أشتري. لكن جزء التسوق هو الجزء السهل؛ «فيشار» من الذي يتم إعداده داخل الميكروويف بنكهة الزبدة، وبعض الكعك المملح، وبعض حلوى الترافيل بطعم الشوكولاتة بالحليب، ومشروب الشوكولاتة الساخن الفوري، ومياه فوارة بنكهة الجريب فروت.

عندما عدت للتاكسي مرة أخرى، كنت أحمل ثلاث حقائب ثقيلة ملآنة بالطعام الكافي لمدة أسبوع، على الرغم من أنها ستبقى هنا لثلاثة أيام فقط.

كان المطبخ المشترك في الطابق الثاني، بينما غرفتي في الثالث، ولم أستخدمه من قبل. اعتدت أن أفكر فيه كمكان تقوم فيه الفتيات بخبز بعض الكعك من أجل ليالي مشاهدة الأفلام، أو مكان تجمع لمجموعات من الصديقات اللاتي يرغبن في طهي العشاء من حين لآخر للاستراحة من طعام المهجع. فتحت الثلاجة لأجدها فارغة. لا بد وأنها قد تم تنظيفها من أجل العطلة. تخبرنا الإرشادات أن نضع علامة على جميع أغراضنا بوضع الأحرف الأولى من اسمنا ورقم الغرفة والتاريخ. على الرغم من أنني الوحيدة الموجودة بالمكان، التقطت قلمًا والشريط اللاصق. وسرعان ما ملأ الطعام المصنف على أنه خاص بي اثنين من الأرفف الثلاثة.

عندما عدت لغرفتي في الطابق العلوي، قمت بترتيب الوجبات الخفيفة على مكتب «هانا». بدت كمية ضخمة، تمامًا كما كنت أتمنى. ثم رن هاتفي كاشفًا عن وصول رسالة.

«أنا هنا!»

سحقًا، لم تحل الساعة السادسة بعد!

المفترض أنه كان لا يزال أمامي نصف ساعة أخرى على الأقل!

لم يسعني إلا أن أعذب نفسي بقراءة كل الرسائل التي أرسلتها «مابيل» من قبل. تسأل عما إذا كنت بخير، وعما إذا كنت غاضبة، أو تتساءل أين أنا بحق الجحيم، وعما إذا كان بوسعنا التحدث، وهل بإمكانها أن تأتي لزيارتي؟

«أتتذكرين نبراسكا؟» كان هذا السؤال بإحدى الرسائل، في إشارة إلى خطة لم نعتزم تنفيذها مطلقًا. كانت سلسلة طويلة من الرسائل التي لم يتم الرد عليها، والتي ملأتني بالشعور بالذنب، حتى أخرجني منه رنين الهاتف في يدي!

كنت لا أزال مأخوذة، أجبت.. سمعت صوتها:

- مرحبًا..

كانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها صوتها منذ أن افترقنا.

- أنا في الطابق السفلي والجو بارد للغاية، أكاد أتجمد! هل ستدخلينني أم ماذا؟

وهنا كنت قد وصلت عند باب الردهة. لم يعد يفصلنا غير لوح من الزجاج.. مددت يدًا مرتعشة نحو القفل. لمست القفل المعدني ثم توقفت لألقي نظرة عليها. كانت تنفخ في يديها لتدفئهما، ووجهها ملتفت للاتجاه الآخر.. ثم استدارت وتلاقت أعيننا، ولم أعرف كيف اعتقدت يومًا أنني سأكون قادرة على الابتسام. بالكاد أستطيع أن أجد بداخلي القوة لإدارة المزلاج.

- لا أعرف كيف يمكن لأي شخص أن يعيش في مكان بارد لتلك الدرجة!

هكذا هتفَت هي وأنا أسحب الباب لتدلف إلى الداخل. الجو بارد داخلي أيضًا. قلت:

- غرفتي أكثر دفئًا..

مددت يدي لألتقط إحدى حقائبها، ثم استقللنا المصعد معًا.. سرنا في صمت عبر الممر حتى وصلنا إلى باب غرفتي، وبمجرد دخولها وضعت حقيبتها، وخلعت معطفها..

ها هي «مابيل»، في غرفتي، على بعد ثلاثة آلاف ميل مما كان في السابق ديارنا. رأت الوجبات الخفيفة التي اشتريتها. كانت كلُّ واحدة منها شيئًا تحبه. قالت:

- أعتقد أنه من الجيد أنني أتيت.

****

الفصل الثاني

شعرت «مابيل» بالدفء أخيرًا.

رمت قبعتها على سرير «هانا»، وفكت وشاحها ذا اللونين الأحمر والأصفر. أجفلتُ عندما أدركت أنه مألوف لي ورأيتها ترتديه كثيرًا، ثم تضايقت عندما تذكرت أنني على الصعيد الآخر عكسها، وكل ملابسي جديدة. لا تحمل أي ذكريات من الماضي.

- كنت سأجعلك تصطحبينني في جولة، لكن محال أن أخرج في هذا الطقس البارد.

- معك حق، آسفة لذلك.

هكذا أجبتها، وعيناي لا تزالان مثبتتين على وشاحها وقبعتها. هل ما زالا ناعمين كما كانا من قبل؟

- هل تعتذرين عن الطقس حقًا؟

سألتني وقد رفعت حاجبيها، وظهرت نبرة السخرية بصوتها، ولكن عندما لم أستطع التفكير في أي رد ذكي لقوله، ظل سؤالها يحوم في الغرفة دون إجابة، تذكيرًا بالاعتذار الذي أتت من أجله حقًا. ثلاثة آلاف ميل طريق طويل للسفر للاستماع لإحداهن وهي تقول إنها آسفة.

- حسنًا.. كيف حال أساتذتك؟

لحسن الحظ، تمكنت من إخبارها عن أستاذ التاريخ الذي ينطق بالسباب أثناء الدروس، ويركب دراجة نارية، ويبدو أقرب لشخص تقابله في الحانة،

أكثر مما يليق بقاعة المحاضرات. هذا الموضوع لا يجعلني موهوبة في موضوع المحادثات، لكنه على الأقل يجعلني مقبولة، غالبًا.

قلت:

- في البداية ظللت أفكر في أن جميع أساتذتي عازبون.

ضحكت.

- ولكني بعد ذلك قابلت ذلك الرجل وحطم ذلك الوهم.

- في أي مبنى يوجد فصله؟ يمكننا القيام بجولة عبر نافذة غرفتك..

أعطت ظهرها لي وهي تتطلع إلى خارج النافذة نحو مبنى الكلية. أخذت لحظة طويلة جدًا قبل الانضمام إليها.

لا أكاد أصدق.. «مابيل».. في نيويورك.. في غرفتي!

في الخارج، غطت الثلوج الأرض والمقاعد، وغطاء محرك شاحنة الحارس والأشجار. توهجت الأضواء في الممرات بالرغم من عدم وجود أحد هنا، وهو ما جعل المكان يبدو أكثر فراغًا. الكثير من الضوء ولا يوجد معه غير السكون والصمت.

- هناك.

أشرت عبر ظلام الليل إلى أبعد مبنى.. بالكاد مضاء.

- وأين الفصل الذي تدرسين فيه الأدب؟

- هنا.

أشرت إلى المبنى المجاور لنا.

- أي مواد تأخذين أيضًا؟

أريتها الصالة الرياضية حيث أسبح لبعض الوقت كل صباح، محاولة -دون جدوى- احتراف سباحة الفراشة. أسبح في وقت متأخر من الليل أيضًا، لكني لم أخبرها بذلك. درجة حرارة حمام السباحة دائمًا ثمانون درجة. أشعر بالغطس فيه وكأنه غطس وسط مساحة من الفراغ، وهو ما يمثل شيئًا مختلفًا عن المياه الباردة الجليدية التي اعتدتها. لا موجات باردة بما فيه

الكفاية لتخديري أو قوية بما يكفي لجذبي للأسفل. في الليل يكون حمام السباحة هادئًا، فأسبح لبضع لفات ثم أترك جسدي يطفو، أنظر نحو السقف أو أغمض عيني، كل الأصوات ضبابية وبعيدة، بينما المنقذ يراقب بصمت. ساعدني هذا على الهدوء عندما بدأت نوبات الهلع تراودني.

ولكن عندما يكون الوقت متأخرًا جدًا في الليل، ويكون المسبح مغلقًا، ولا أستطيع إيقاف أفكاري، تكون «هانا» هي من تستطيع تهدئتي.

- لقد قرأت للتو شيئًا مثيرًا للاهتمام للغاية..

تقول هذا من موقعها على سريرها، وكتابها المدرسي يستريح في حضنها. ثم تقرأ لي عن نحل العسل، وعن الأشجار المتساقطة، وعن التطور.

عادة ما يستغرق مني الأمر بعض الوقت لأتمكن من الاستماع لها فعليًا. لكن عندما أفعل ذلك، أكتشف أسرار التلقيح، وأن أجنحة نحل العسل تخفق مائتي مرة في الثانية، وأن الأشجار تُسقِط أوراقها ليس حسب الموسم، ولكن وفقًا لهطول الأمطار. وأنه كان هناك شيء آخر قبلنا جميعًا. وبالنهاية، شيء آخر سيحل محلنا.

اكتشفت أنني قطعة صغيرة من عالم خارق. أساعد نفسي على أن أفهم -من جديد- أنني في غرفة سكن في الكلية.. أن ما حدث قد حدث وانتهى.. يهاجمني شعور الهلع، لكني أستخدم أسِرَّتنا المزدوجة، ومكاتبنا، والخزائن، والجدران الأربعة من حولنا، والفتيات الصغيرات اللاتي يجاورننا على كلا الجانبين، والفتيات الأخريات اللاتي يجاورنهن، والمبنى بأكمله، والحرم الجامعي، وولاية نيويورك نفسها، لدرء شعور الهلع ذاك.. كل تلك الأشياء تمثل غطاء يحميني. المفترض.

نحن حقيقيون بقدر ما نسمح لأنفسنا أن يظهر منا، أقول لنفسي بينما أنا أخلد للنوم.

ثم في السادسة صباحًا، عندما يُفتح المسبح، أذهب للسباحة. شعرت بحركة تسحبني من أفكاري.. كانت «مابيل»، تدس شعرها خلف أذنها. سألتني:

- أين قاعة الطعام؟

- لا يمكنك رؤيتها من هذه النافذة، لكنها تقع في الجهة الأخرى عبر الفناء، في الخلف.

- كيف تبدو؟

- مقبولة..

- أعني الناس أنفسهم.. الإطلالة.. تلك الأشياء.. كيف تبدو؟

- لطيفة جدًا. عادة ما أجلس مع «هانا» وصديقاتها.

- «هانا»؟

- زميلتي في السكن. هل ترين المبنى ذا السقف المدبب؟ خلف تلك الأشجار؟

أومأت برأسها.

- هذا هو المكان الذي يوجد فيه صف الأنثروبولوجيا الخاص بي. ربما يكون هو المفضل لديّ.

- حقًا؟ ليس صف الأدب هو صفك المفضل؟

أومأت برأسي إيجابًا..

- بسبب الأساتذة؟

- لا، كلهم جيدون.. لكنني أشعر أن كل شيء بصف الأدب... غامض للغاية، على ما أعتقد.

- ولكن هذا ما كان يعجبك. كل الاختلافات في تفسير نفس العمل الأدبي.

هل هذا صحيح؟ لا أستطيع التذكر. هززت كتفي. سألتني:

- لكنك لا تزالين تدرسين اللغة الإنجليزية؟

أجبتها:

- لا، لم يعلنوا الأسماء حتى الآن، لكنني متأكدة من أنني سوف أحوَّل إلى العلوم الطبيعية.

أعتقد أنني لمحت ومضة من الانزعاج تعبر وجهها، لكني وجدتها بعد ذلك تبتسم لي. سألتني:

- أين الحمام؟

- اتبعيني.

قدتها حول الزاوية، ثم عدت إلى غرفتي.

شعرت بأن فترة ثلاثة أيام تبدو فجأة طويلة جدًا. كل الدقائق التي سأحتاج أنا و«مابيل» إلى ملئها بدت مبهمة غامضة. لكن بعد ذلك رأيت وشاحها على السرير، وقبعتها بجانبه. التقطتهما. كانا أكثر نعومة مما أتذكره عنهما، وبدت رائحتهما مثل ماء الورد الذي ترشه «مابيل» ووالدتها في كل مكان، على نفسيهما، وفي سيارتهما.

ظللت ممسكة بهما، حتى عندما سمعت صوت خطوات «مابيل» يقترب. استنشقت رائحة الورد، ولسبب ما تذكرت كل الساعات التي أمضيناها معًا بالديار. مغامرات ومقالب ونزهات وساعات بائسة بالفصل و...

قاطعت «مابيل» أفكاري وهي تقول من مكانها عند الباب:

- يجب أن أتصل بوالديَّ.

وضعت أغراضها جانبًا.

- لقد قمت بإرسال رسالة نصية إليهما من المطار، لكنهما قلقان جدًا بشأن الأمر. استمرا بإعطائي نصائح حول القيادة في الثلج. ظللت أقول، «لن أكون أنا من تقود!»

وضعت هاتفها على أذنها، ولكن حتى من مكاني بالجانب الآخر بالغرفة أمكنني سماعهما عندما ردا عليها، بدا صوتا «آنا» و«خافيير» مسرورين ومرتاحين. قالت:

- نعم، كانت الطائرة على ما يرام... لا أعلم، كانت كبيرة جدًا... لا، لم يقدموا أي طعام..

نظرت إليّ. استطردت:

- نعم.. «مارين» هنا..

هل سيطلبان التحدث معي؟ قلت لها:

- يجب أن أتحقق من شيء ما. أرسلي لهما تحياتي..

خرجت من الباب ونزلت السلم إلى المطبخ.

فتحت الثلاجة.

كل شيء كما تركته بالضبط، مصنف ومرتب. يمكننا صنع الرافيولي وخبز الثوم، أو طبق كساديا مع الفاصوليا والأرز بجانبها، أو حساء الخضار، أو سلطة السبانخ مع التوت البري المجفف والجبن الأزرق، أو صلصة الفلفل الحار مع خبز الذرة.

قضيت وقتًا طويلًا أفكر في كل هذا، لدرجة أنه بحلول الوقت الذي عدت فيه للغرفة كانت «مابيل» قد أنهت المكالمة.

****

الفصل الثالث

مايو

نمت بالرغم من صوت المنبه، استيقظت على صوت غناء «جرامبس» لي من غرفة المعيشة. أغنية عن بحّار يحلم، وعن «مارين»، فتاة البحار.

ألهذا قاموا بتسميتي «مارين» من الأصل؟ فكلمة «مارين» تعني «بحري»..

كانت لديه لكنة خفيفة -كان يعيش في سان فرانسيسكو منذ أن كان في التاسعة من عمره- ولكن عندما يغني، فإنه يصبح أيرلنديًا بشكل لا لبس فيه.

نقر على بابي، وغنى بصوت عالٍ في الخارج.

كانت غرفتي هي غرفة النوم الأمامية المطلة على الشارع، بينما احتل «جرامبس» غرفتين في الجزء الخلفي من المنزل. بيننا كانت غرفة المعيشة وغرفة الطعام والمطبخ، فكان بوسع كل منا القيام بكل ما يريد دون خوف من أن يسمع -أو يُزعج- الآخر.

لم يدخل غرفتي قط؛ ولا أنا ذهبت إلى غرفته. قد يبدو ذلك غير وديّ، لكنه ليس كذلك. قضينا الكثير من الوقت معًا في الغرف الفاصلة بين غرفتينا؛ نقرأ على الأريكة والكرسي الوثير، أو نلعب الكوتشينة في غرفة الطعام، أو نطهو معًا، أو نتناول الطعام على مائدة المطبخ المستديرة، الصغيرة جدًا لدرجة أن أحدنا لم يحتج قط إلى أن يطلب من الآخر أن يناوله وعاء الملح، وكانت

ركبتانا تصطدمان في الكثير من الأحيان لدرجة أننا لم نعد نكلف أنفسنا عناء الاعتذار.

كنا نترك سلال ملابسنا في حجرة الجلوس بجوار الحمام، واعتدنا أن نتناوب غسل الملابس، ثم نترك أكوامًا مطوية بدقة على طاولة غرفة الطعام ليأخذها الآخر عندما يكون الوقت مناسبًا له. ربما يقوم الآباء أو الأزواج بأخذ الملابس وفتح أدراج الشخص الآخر، لكننا لم نكن أبًا وابنة، ولم نكن زوجين. وفي مأوانا هذا، كنا نستمتع بصحبة بعضنا بعضًا، ولكننا نستمتع أيضًا بوحدتنا.

تراجع صوت أغنيته بينما أنا أفتح بابي على مصراعيه ليده العجوز المليئة بالتجاعيد، التي أمسكت بكوب القهوة الأصفر.

- ستحتاجين إلى توصيلة اليوم. ومن مظهرك، يبدو أنكِ ستحتاجين هذه القهوة.

كان ضوء النهار الأصفر يتسلل من خلال الستائر. غطى شعري الأشقر عينيّ حتى أزحته جانبًا. بعد بضع دقائق كنا في السيارة. كانت كل الأخبار عن أسير حرب تمت إعادته، وظل «جرامبس» يقول:

- يا له من عار. يا له من فتى صغير.

وكنت سعيدة لأن لديه شيئًا يشغل تفكيره، بينما أخذت أنا أتذكر الليلة الماضية. أنا و«مابيل» وجميع أصدقائنا الآخرين، جالسين القرفصاء على الرمال، جزء في الظل، وجزء في لهيب شعلة النار الصغيرة الموقدة.. كان شهر مايو قد حل بالفعل.

سوف نتفرق جميعًا، وكل واحد منا ذاهب إلى مكان مختلف في الخريف، والآن مع تغير الفصول، تقدم الوقت، مقتربًا من التخرج من المدرسة، بدا كل شيء فعلناه كأنه وداعٌ طويل، أو لم شمل سابق لأوانه.

كنا نشعر بالحنين لفترة لم تكن قد انتهت بعد.

كان «جرامبس» يقول:

- صغير جدًّا لتحمل شيء مثل هذا. ويمكن أن يكون الناس بلا قلب على الإطلاق!

أشعل كشافات سيارته عندما اقتربنا من مكان الإنزال في الدير. أخرجت فنجان قهوتي من الشباك حتى لا ينسكب بينما هو يستدير بالسيارة.. أشار إلى ساعة لوحة العدادات قائلًا:

- انظري إلى ذلك.. ما زال أمامكِ دقيقتان.

قلت له:

- أنت بطلي.

- خذي حذرك.. لا تدعي الأخوات يعرفن أننا وثنيّان.

ثم ابتسم ابتسامة عريضة. أخذت رشفاتي الأخيرة. أجبته ضاحكة:

- لن أفعل.

- اطلبي عونًا إضافيًا من المسيح من أجلي، ممكن؟

قلبت عينيّ، ووضعت الكوب الفارغ على المقعد. أغلقت الباب وانحنيت لألوح له، كان لا يزال يضحك على مزحته، من خلال النافذة المرفوعة.

ثم رسم على وجهه تعبيرًا كئيبًا قبل أن يرسم الصليب على صدره ويضحك مرة أخرى وهو ينطلق بسيارته مبتعدًا.

في حصة اللغة الإنجليزية، أخذنا نتحدث عن الأشباح. عما إذا كانوا حقيقيين من الأصل، وإذا كانوا كذلك، هل هم أشرار كما كانت شخصية المربية تعتقد في رواية «دورة البرغي» للكاتب الإنجليزي «هنري جيمس»؟

قالت الأخت «جوزفين»:

- هناك رأيان. الأول: المربية تهلوس.. والثاني: الأشباح حقيقية.

استدارت وكتبت كليهما على السبورة.

- استخرجوا دليلًا في الرواية لكليهما، وسنتناقش في حصتنا القادمة.

رفعت يدي قائلة:

- لدي فكرة ثالثة.

- أوه، وما هي؟

- أن بقية العاملين كانوا يتآمرون عليها. خدعة متقنة.

ابتسمت الأخت «جوزفين» معلقة:

- نظرية مثيرة للاهتمام!

قالت «مابيل»:

- الأمر معقد بما فيه الكفاية بفكرتين!

واتفق معها قلة من الطلبة.. قلت:

- من الأفضل أن يكون الأمر معقدًا.

استدارت «مابيل» في مكتبها لتواجهني.. قالت مستغربة:

- معذرة، ماذا؟ من الأفضل أن يكون الأمر معقدًا؟

- بالطبع هو كذلك! هذا هو الهدف من الرواية. يمكننا البحث من أجل الوصول إلى الحقيقة، يمكننا أن نقنع أنفسنا بما نريد أن نصدقه، لكننا لن نعرف أبدًا. أنا متأكدة أننا يمكننا العثور على دليل بالرواية على أن بقية العاملين كانوا يقومون بخدعة على المربية.

قالت الأخت «جوزفين»:

- سأضيف هذه الفكرة إلى القائمة.

بعد المدرسة، قسمت أنا و«مابيل» واجب مادة العلوم علينا، بحيث تقوم كل واحدة منا بحل جزء، ونتقاسمه مع بعضنا، ثم اتجهنا نحو الناصية لنظفر بكوبي قهوة من متجر «قهوة المشاكل»، ودخلنا للاحتفال بإدارة وقتنا الممتازة مع اثنين من الكابتشينو.

قلت بينما كنا نسير بجانب منازل فاتحة اللون ذات واجهات مسطحة وشبابيك مربعة:

- ما زلت أفكر في الأشباح.. إنها تظهر في جميع كتبي المفضلة.

- هل ستكون موضوع المقال النهائي؟

أومأت برأسي إيجابًا مكملة:

- لكن لا بد لي من التوصل لفرضية مناسبة.

- الشيء الوحيد الذي أحبه في رواية «دورة البرغي» هو الجملة الأولى للمربية...

توقفت «مابيل» لتعيد ربط شريط الصندل الذي تنتعله. أغمضت عيني وشعرت بالشمس على وجهي. قلت:

- أتذكر البداية كلها على أنها سلسلة من الهروب والسقوط، تتأرجح المربية بين أسرار وخضات وأشباح.

- أكيد، لا بد أن تعرفيها عن ظهر قلب ما دمتِ تحبينها لتلك الدرجة.

- حسنًا، إنها مدهشة.

- اعتقدت أن الأمر برمته سيكون بهذه الطريقة، لكن الأمور بدت محيرة وليس لها مبرر. الأشباح -إذا كان هناك أشباح حقًا- لا تفعل أي شيء. هم فقط يظهرون ويقفون هنا وهناك.

فتحت بوابتنا الحديدية وصعدنا الدرج إلى عتبتنا الأمامية. كان «جرامبس» يهتف مُرحِّبًا بنا، من قبل أن نغلق الباب خلفنا حتى. وضعنا قهوتنا جانبًا، وأنزلنا حقائب الظهر عن كتفينا، وذهبنا مباشرة إلى المطبخ. كانت يداه مغطاتين بالدقيق؛ الأربعاء هو يومه المفضل بالأسبوع، لأنه يكون لديه اثنتان -أنا و«مابيل»- ليخبز لهما.

قالت «مابيل»:

- رائحتها لذيذة.

قال «جرامبس»:

- قوليها بالإسبانية.

فلبَّت «مابيل» طلبه بقولها:

- **Huele delicioso.**

ثم سألته بالإنجليزية:

- ما الذي تخبزه؟

- كعكة الشوكولاتة.. والآن قولي الكعكة لذيذة.

قلت:

- «جرامبس»، أنت تضايقها مرة أخرى.

رفع يديه مدافعًا عن نفسه كأنه طفلٌ شقي تم إمساكه وهو يختلس من عبوة الكعك، وقال:

- لا يمكنني منع نفسي من الرغبة في سماع بعض الكلمات بلغة جميلة.

ضحكت «مابيل» وقالت الجملة، والعديد من الجمل الأخرى، التي لم أفهم منها إلا بضع كلمات فقط، وهنا مسح «جرامبس» يديه في مئزره ثم وضعهما فوق قلبه.. قال:

- جميلة!

فكررت «مابيل» وراءه بالإسبانية ضاحكة، من قبل أن يطلب منها:

- Hermosa !

وبعد ذلك خرج من المطبخ ورأى شيئًا جعله يتوقف.

- اجلسا يا فتاتان..

عبرنا إلى الكرسي الوثير الأحمر الباهت وجلسنا معًا، في انتظار اكتشاف موضوع محاضرة ذلك المساء. قال:

- علينا أن نتحدث عن هذا يا فتاتان.

قالها وهو يلتقط أحد أكواب القهوة الجاهزة التي كنا قد وضعناها على طاولة القهوة، وأمسكه بازدراء. أكمل:

- عندما كنت بمثل عمركما، لم يكن أيٌّ من هذه الأشياء موجودًا. «قهوة المشاكل»! من يُسمي مؤسسته «مشاكل»؟ ربما يفعلها بار، لكن مقهى؟ لا.. لقد أنفقت أنا ووالدَا «مابيل» أموالًا كثيرة لإرسالكما لمدرسة جيدة. الآن تريدان الوقوف في طوابير لشراء الغداء وتنفقان الكثير على فنجان قهوة. كم كلفتكما؟

قلت:

- أربعة دولارات.

- أربعة؟ كل واحد منهما؟

هز رأسه.

- اسمحا لي أن أقدم لكما نصيحة مفيدة. هذا المبلغ يزيد على سعر كوب من القهوة بثلاثة دولارات على الأقل.

- إنه كابتشينو وليس قهوة.

تشمم الكوب.

- يمكنهم أن يطلقوا عليه ما يريدون. لدي قِدر جيد في المطبخ وبعض حبوب القهوة الطازجة بما يكفي لأي عدد من الأشخاص.

أدرت عينيّ بملل، لكن «مابيل» كانت متحمسة في احترامها لكبار السن. قالت:

- لقد كان مجرد تباهٍ فارغ.. لكنك على حق.

- أربعة دولارات لكوب قهوة!

- «جرامبس»، أشم رائحة الكعكة. ألا ينبغي أن تلقي نظرة عليها؟

قال لي:

- أنتِ فتاة ماكرة.

- لا.. لست كذلك.. أنا فقط جائعة.

وقد كنت كذلك بالفعل. كان من العذاب الانتظار حتى تبرد الكعكة، لكن عندما حدث ذلك، بدأنا نلتهمها.

- وفر قطعة لأصدقائك!

ناشدنا «جرامبس»، لكن بالنسبة لأربعة رجال من كبار السن، كان أصدقاؤه أصعب مَن رأيتُ مِن الناس إرضاءً في تناول الطعام. مثل الفتيات في المدرسة، يتبعون نظامًا غذائيًا خاليًا من الجلوتين لأسبوع، ثم يبدؤون بتناوله فجأة مرة أخرى إذا كانت الوجبة مغرية بما يكفي. كانوا يتجنبون السكر أو الكربوهيدرات أو الكافيين أو اللحوم أو منتجات الألبان، ولكن ربما

يتناولون القليل من الزبدة من وقت لآخر. عندما ينتهكون قواعدهم الخاصة، كانوا يشتكون من هذا. يأخذون بضع قضمات من حلويات «جرامبس»، ثم يعلنون أنها سكرية للغاية. قلت بين القضمات:

- إنهم لا يستحقون هذه الكعكة.. لن يقدروها كما نفعل نحن. ربما يجب عليك إرسال قطعة لـ «بيردي» بالبريد.

- هل هي على علم بأنك تقوم بصنع المخبوزات؟

سألته «مابيل»، فرد عليها بقوله:

- ربما أكون قد أشرت للموضوع أمامها مرة أو مرتين.

- قضمة واحدة من هذا وستصبح لك إلى الأبد.

هكذا علقت «مابيل»، فهز «جرامبس» رأسه وضحك، وسرعان ما كنت أنا و«مابيل» ممتلئتين سعيدتين، وكنا في سبيل الخروج من المنزل عندما وصل «جونز»، أول رفاق «جرامبس»، حاملًا مجموعة البطاقات التي يتفاءل بها في يد، وعكازه في اليد الأخرى.

أخذت دقيقة للتحدث معه. قال لي:

- «أجنيس» ستخضع لعملية جراحية في يدها مرة أخرى يوم الثلاثاء.

- هل تحتاجون إلى أي مساعدة في أي شيء؟

- «سامانثا» ستأخذ إجازة لبضعة أيام من الصالون.

- ربما آتي وألقي التحية.

كانت «سامانثا» هي ابنة «جونز» و«أجنيس»، وكانت لطيفة جدًا معي في الأشهر التي عشت فيها معهم عندما كنت في الثامنة من عمري، وكان على «جرامبس» أن يقضي بعض الوقت بالمستشفى.. كانت تقودني إلى المدرسة وتعيدني كل يوم، وحتى بعد أن عاد «جرامبس» إلى المنزل، ساعدتنا في الحصول على وصفاته الطبية الجديدة، والتأكد من وجود طعام في المنزل.

- ستحب أن تراكِ.

قلت:

- حسنًا.. أنا و«مابيل» ذاهبتان إلى الشاطئ. حاول ألا تخسر الكثير من أموالك بلعبة الليلة.

مشيت أنا و«مابيل» مسافة أربع بنايات إلى الشاطئ. خلعنا صنادلنا حيث التقى الطريق بالرمال وحملناها ونحن نصعد الكثبان، وحين مرورنا ببقع من عشب الشاطئ الأخضر الداكن.

جلسنا على مسافة آمنة من الماء، بينما حلقت قطعان من طيور البحر الرمادية على الشاطئ.

في البداية بدا الأمر كما لو لم يكن هناك أحد، لكني كنت أعلم أن عليّ أن أشاهد وأنتظر، وسرعان ما رأيتهما: زوج من متزلجي الأمواج على مبعدة، الآن يصعدان بلوحيهما لركوب موجة. شاهدناهما مقابل خط الأفق، يصعدان ويهبطان. مرت ساعة، وفقدنا رؤيتهما مرارًا وتكرارًا، وفي كل مرة نجدهما مرة أخرى. قالت «مابيل» عندما بدأ الضباب بالظهور:

- أنا أشعر بالبرد.

أرادت العودة إلى المنزل، لكن راكبي الأمواج كانا لا يزالان في الماء. بقينا حتى وصلا إلى الرمال، ودسا لوحَيهما التركوازية تحت أذرعهما المبتلة. انتظرت لأرى ما إذا كان أحدهما سيعرفني. اقتربا.. كانا رجلًا وامرأة، وكلاهما يحدق نحوي لمعرفة ما إذا كنت من يظنانها. قال الرجل:

- مرحبًا يا «مارين».

رفعت يدي على سبيل التحية.

- لديّ شيء لكِ يا «مارين».

فتحت المرأة حقيبتها وأخرجت صدفة. قالت وهي تضغطها في كفي:

- النوع المفضل لـ «كلير».

ثم مرا بنا، واستمرا في طريقهما إلى المرأب.

- لم تسأليني ما الذي سأكتب عنه.

قالت «مابيل».. كانت الصدفة ضخمة وردية اللون ومغطاة بالتعرجات.. العشرات منها.. كان لدي في المنزل مجموعة ضخمة مشابهة لها، ملأت ثلاث أوانٍ كبيرة في غرفة نومي، كلهم كانوا هدايا مثل هذه.

مدت يدها نحوي فناولتها الصدفة.. قالت:

- سأكتب عن «جين آير».. «فلورا» و«مايلز» من رواية «دورة البرغي».. باختصار سأكتب عن كل شخص تحت سيطرة أحدهم.

مرت بإبهامها على حواف القشرة ثم أعادتها. نظرت إليّ.

- ما يجمعهم معًا في الفئة نفسها هو أنهم جميعًا أيتام كذلك.

أنا يتيمة منذ أدركت الدنيا تقريبًا.. هل يضعني هذا معهم في تلك الفئة؟

قالت «مابيل» إن «جرامبس» لم يتحدث عن والدتي قط، لكنه لم يكن بحاجة لأن يفعل.. كل ما كان عليّ فعله هو التوقف عند متجر ألواح ركوب الأمواج أو الظهور عند الشاطئ عند الفجر، لأتلقى قمصانًا مجانية من صاحب متجر ملابس الشاطئ، أو ترمسًا مليئًا بالشاي. عندما كنت طفلة، كان أصدقاء أمي القدامى يحبون أن يلفوا أذرعهم حولي، وأن يداعبوا شعري. كانوا يحدقون اتجاهي بينما أنا أقترب، ويشيرون لي لآتي نحوهم. لم أكن أعرف أسماءهم كلهم، لكن كلهم كانوا يعرفون اسمي.

أعتقد أنك عندما تقضين حياتك في ركوب الأمواج -مع العلم أن المحيط بلا قلب وأقوى بملايين المرات مما أنتِ عليه، ولكنكِ لا تزالين واثقة من أنك ماهرة، أو شجاعة، أو ساحرة بما يكفي للنجاة- فأنتِ تصبحين مدينةً بشيء ما لمن لا يتمكنون من فعلها.

شخصٌ ما دائمًا يموت. المسألة فقط هي: مَن ومتى؟!

أصدقاؤها يتذكرونها بسماع الأغاني التي كانت تحبها، بجمع الصدف والزهور وزجاج الشاطئ، بوضع أذرعهم حول ابنتها، وبعد ذلك، ربما تسمي بناتك على اسمها، لإبقاء ذكراها حية بشكل ما.

لم تمُت في الواقع في المحيط. ماتت في مستشفى «لاجونا هوندا»، بجرح في رأسها، ورئتاها ممتلئتان بالماء. كنت في الثالثة من عمري تقريبًا. أحيانًا

أعتقد أنني أستطيع تذكر الدفء، التقارب، ربما شعوري بكوني بين ذراعين، وشعوري بشعر ناعم على وجنتي. لا يوجد شيء لأتذكره بخصوص والدي.. كان يسافر طيلة الوقت، في مكان ما في أستراليا قبل اختبار الحمل.

- لو عرف بشأنك فقط...

هكذا قال «جرامبس» عندما كنت صغيرة وأسأل عنه.

- كنتِ لتصبحي كنزه.

اعتقدت أن الحزن شيء بسيط.. هادئ...

عُلِقَت صورة واحدة لـ «كلير» في الردهة. أحيانًا كنت أجد «جرامبس» واقفًا ينظر إليها. أحيانًا كنت أقف أمامها أنا الأخرى لعدة دقائق في كل مرة، أدرس ملامح وجهها وجسدها. كنت أحيانًا أجد لمحات من نفسي فيها. أتخيل أنني لا بد من أنني كنت في مكان قريب، ألعب في الرمال أو مستلقية على بطانية.

أتساءل في داخلي، عما لو كانت ابتسامتي ستصبح بذلك الجمال عندما أبلغ الثانية والعشرين من عمري.

ذات مرة، سألت المستشارة الثقافية في الدير أثناء اجتماع مع «جرامبس» عما لو كان يتحدث معي عن والدتي. قالت له:

- تذكر الراحلين هو السبيل الوحيد للشفاء.

فقدت عينا «جرامبس» بريقهما، أصبح فمه خطًّا ضيقًا.

- مجرد تذكير.

قالتها المستشارة بلهجة أكثر هدوءًا، ثم تحولت إلى شاشة الكمبيوتر للعودة إلى مسألة غيابي غير المبرر. قال «جرامبس» بصوت منخفض يقطر سمًّا:

- أيتها الأخت.. لقد فقدتُ زوجتي عندما كانت في السادسة والأربعين من عمرها، وفقدت ابنتي عندما كانت بالرابعة والعشرين. وأنتِ تُذكِّرينني أن أتذكرهما؟

- سيد «ديلاني». أنا آسفة حقًا لخسارتك. خسارة كليكما. سأصلي وأدعو من أجل تعافيك. لكن اهتمامي الآن منصب على «مارين».. وكل ما أطلبه منك هو أن تشارك بعض ذكرياتك معها.

شعرت بجسدي يتصلب. لقد تم استدعاؤنا لأنهم كانوا قلقين بشأن «تقدمي الأكاديمي»، لكني كنت أحصل على أعلى الدرجات في جميع فصولي الدراسية، وكانت كل مآخذهم عليّ هو غيابي لبضعة أيام.

الآن أدركت أن هذا الاجتماع كان في الواقع بخصوص قصة قصيرة كتبتها، قصة بحصة اللغة الإنجليزية حول فتاة ربتها مجموعة من عرائس البحر. كانت عرائس البحر يشعرن بالذنب لتسببهن بمقتل والدة الفتاة، لذلك أخبرن الفتاة قصصًا عنها، وجعلنها تبدو حقيقية قدر الإمكان، ولكن كان هناك فراغ بقلب الفتاة، لم تتمكن عرائس البحر من ملئه.

كانت تتساءل دائمًا.

كانت مجرد قصة، ولكني وأنا جالسة الآن بمكتب المستشارة أدركت أنني كان يجب أن أعرف أفضل. كان الأفضل أن أكتب عن أمير ربته مجموعة من الذئاب بعد أن فقد والده في الغابة، أو أي شيء، شيء أقل شفافية، لأن المعلمات يعتقدن دائمًا أن كل شيء كأنه صرخة طلبًا للمساعدة. والمعلمات الشابات اللطيفات مثل الأخت «جوزفين» هن الأسوأ!

كنت أعرف أنني يجب أن أغير الموضوع وإلا ستبدأ المستشارة في الحديث عن قصتي. قلت:

- أنا آسفة حقًا بخصوص الحصص التي فاتتني.. كان الأمر سوء تقدير مني. لقد انشغلت كثيرًا في حياتي الاجتماعية.

هزت رأسها وسألتني:

- هل يمكنني الاعتماد عليكِ في ألا تفعلي ذلك مرة أخرى؟ لديكِ وقت فارغ قبل اليوم الدراسي، وبعد اليوم الدراسي.. لديكِ فترة الغداء، وفترة المساء، وعطلة نهاية الأسبوع. معظم يومك بمعنى أصح، وبوسعك أن تقضيه كيفما تشائين.. ولكن خلال فترات الحصص، نتوقع...

- أيتها الأخت...

هدر صوت «جرامبس» مرة أخرى، كما لو لم يسمع أي شيء كنا نقوله:

- أنا متأكد من أن هناك أمورًا مؤلمة قد حدثت لكِ. حتى وهْبُ نفسك ليسوع لا يمكن أن يحميكِ بالكامل من حقائق الحياة وتقلباتها. أطلب منكِ الآن أن تأخذي لحظة لتتذكري تلك الأشياء الرهيبة. أذكرك الآن بتذكرها. هاك، هل تشعرين بالتعافي؟ ربما يجب أن تخبرينا عنها. هل تشعرين أنكِ... أفضل بكثير؟ هل يملؤك تذكرهم بالسعادة؟ هل تجدين نفسك مبتهجة؟

- سيد «ديلاني»، من فضلك!

- هل تحبين إبهارنا بإخبارنا قصة الخلاص التي تعرضتِ لها ودفعتك للدير؟

- حسنا، أستطيع أن أرى...

- هل ترغبين في غناء أغنية سعيدة لنا الآن؟

- أعتذر عن إزعاجك، لكن هذا...

وقف «جرامبس»، وقد نفخ صدره. قال:

- نعم.. كان هذا تصرفًا غير مناسب على الإطلاق مني. غير مناسب بالضبط كتصرف راهبة تجاه موت زوجة وابنة. «مارين» تحصل على درجات ممتازة. «مارين» طالبة ممتازة!

تراجعت المستشارة في كرسي مكتبها بصبر.. قال «جرامبس» منتصرًا:

- و«مارين» قادمة معي!

التفت وفتح الباب بحدة. قلت:

- وداعًا..

قلتها بأكثر لهجةٍ معتذرةٍ وسِعتني.. خرج عاصفًا، فتبعته.

ظل طيلة رحلة عودتنا بالسيارة يحكي النكات التي استطاع أن يتذكرها عن الراهبات. ضحكت على بضعة نكات بالبداية، حتى لم يعد بحاجة إلى

ضحكاتي ليستمر. كان كمونولوج يلقيه. عندما انتهى سألته عما إذا كان قد تلقى أي أنباء عن «بيردي» اليوم، فابتسم قائلًا:

- كتبت لها خطابًا، وتلقيت خطابًا بالمقابل.

ثم فكرت في الدموع التي ظهرت في عينَي الأخت «جوزفين» عندما كنت أقرأ قصتي في الفصل. كيف شكرتني لكوني بتلك الشجاعة. حسنًا، ربما لم يكن الأمر خياليًّا تمامًا. ربما كان للموضوع جذور واقعية من حياتي.

ربما جاءت القصة من جزء مني يرغب في معرفة المزيد، أو على الأقل أن يصبح لديه ذكريات فعلية بدلًا من بعض المشاعر التي قد تكون مختلقة فقط.

****

الفصل الرابع

عرفت «مابيل» عن «هانا» بمقدار ما أفصحت غرفتنا. كومة من الأوراق على مكتبها، والملصقات الموقعة من عروض برودواي، وبعض الصور لها، وبعض القصاصات التي تتحدث عن التطور والغابات.

- من أين هي؟

- «مانهاتن».

- هذه أجمل درجة من درجات اللون الأزرق.

هكذا هتفت «مابيل» بإعجاب، وهي ترمق البساط الفارسي الممدد بين أسرَّتنا، والذي بدا مهترئًا كفاية لإظهار كم هو عتيق، ولكن لا يزال ملمسه ناعمًا أسفل القدم. وقفت «مابيل» أمام اللوحة الخشبية، وسألتني عن الأشخاص الموجودين في الصور. كانوا «ميجان»، من الغرفة الموجودة في أسفل الردهة، و«ديفيس»، عشيقها السابق، لكنه لا يزال صديقها، وبعض الفتيات، أيضًا من المهجع، لكني لا أتمكن من تذكر أسمائهن. علقت «مابيل»:

- إنها تحب الاقتباسات.

أومأت برأسي مجيبة:

- إنها تقرأ كثيرًا.

- هناك اقتباس للكاتب «إيمرسون» موجود في كل مكان. رأيته على مغناطيس.

- أي واحد؟

- «أنهِ كل يوم وتخلص من عبئه.. لقد فعلت ما بوسعك. بعض الأخطاء والسخافات تتسلل بلا شك؛ فلتنسهم في أقرب وقت ممكن».

- أستطيع أن أرى لماذا احتفظت به. مَن لا يحتاج إلى تذكير بذلك؟

- نعم، أعتقد ذلك.

هكذا ردت «مابيل». قلت:

- شخصية «هانا» هكذا حقًا. لا يبدو أن الأمور تؤثر فيها بقوة. إنها... صريحة ومباشرة نوعًا ما، أعتقد. ولكن بطريقة جيدة؛ بطريقة ذكية حقًا ولطيفة.

- هذا جميل، دعينا ننتقل للحديث عنكِ. أي نوع من النباتات هذا؟

- اسمه «شبيه الفلفل». جلبته من معرض مخفض لبيع النباتات في الحرم الجامعي، وتمكنت من الحفاظ عليه حيًا لمدة ثلاثة أشهر. جميل، أليس كذلك؟

- بذلتِ مجهودًا جيدًا في الحفاظ عليه.

- نعم.

ابتسمنا لبعضنا بعضًا. كدت أن أشعر أننا على ما يرام كالماضي...

- هذه أطباق لطيفة.

قالتها وهي تلتقط واحدًا من عند نافذتي.

بجانب صورة والدتي التي أحتفظ بها في مجلد في خزانتي، فإن تلك الأطباق -السلطانيات، كما أحب أن أدعوها- هي أفضل شيء أملكه. كان لونها أصفر رائعًا، ليس لامعًا للغاية، وأنا أعلم من أين جاءت ومن صنعها.

إحدى المحاضرات الأولى لأستاذ التاريخ كانت حول ذلك الرجل المدعو «وليام موريس». قال: «إن كل ما تملكه يجب أن يكون إما مفيدًا أو جميلًا. صحيح أن هناك الكثير لتطمح إليه، لكن لم لا تحاول؟» رأيت هذه الأطباق في متجر لبيع الفخار بعد يومين واشتريتها.

- إنها جميلة للغاية.

- تجعل أصناف الطعام الموضوعة فيها تبدو خاصة للغاية. حتى الكورن فليكس والنودلز، اللذان يعتبران من المكونات الرئيسية لنظامي الغذائي.

- أركان أعمدة التغذية للشباب الأمريكي.

هكذا علقت ضاحكة، فسألتها:

- ماذا تأكلين في المدرسة؟

- المهجع الذي أقيم فيه مختلف. أشبه بشقق مصغرة. لدينا ثلاث غرف، ثم مساحة مشتركة من غرفة معيشة ومطبخ. ستة منا نتشاركهما، فنقوم بطهو دفعات كبيرة من الأشياء. زميلتي في الغرفة تصنع أفضل لازانيا. ليس لدي أي فكرة عن سبب كونها جيدة لتلك الدرجة، فهي تستخدم الجبن المبشور الجاهز والصلصة المعبأة.

- على الأقل تمكنت من جعلك تغييرين رأيك بصددها.

- ماذا تقصدين؟

سألتني. قبل أن تتخلى «مابيل» عني، أرسلت لي دزينة من الأسباب التي تجعلها تكره زميلتها في الغرفة. «ذوقها الرهيب في الموسيقى، والشخير بصوت عال، وحبها الصاخب للحياة والفوضى والديكورات القبيحة». هكذا كتبت لي. وأيضًا: «من فضلك! تعالي واجعلي هذه الفتاة تختفي من أمامي!»، تقول الآن، وقد تذكرت:

- أوه، حسنًا، لقد مر بعض الوقت. لقد اعتدت عليها.

ثم ألقت نظرة على ما حولها لمعرفة ما الذي يمكنها التعليق عليه، لكن النبات والأطباق كانوا يمثلون كل المقتنيات الخاصة بي. قلت:

- أخطط لجلب المزيد من الأشياء قريبًا. أنا فقط بحاجة للعثور على وظيفة أولًا.

ظهرت لمحة من القلق عبر وجهها.

- هل لديكِ...؟ لا أستطيع أن أصدق أنني لم أفكر في هذا. هل لديكِ أي أموال؟

- نعم.. لا تقلقي. لقد ترك لي بعض المال، لكن ليس مقدارًا كبيرًا، أقصد سيظل معي لفترة، ولكن يجب أن أكون حذرة.

- ماذا عن الرسوم الدراسية؟

- لقد دفع بالفعل لهذا العام.

- لكن ماذا عن السنوات الثلاثة المقبلة؟

لا ينبغي أن يكون من الصعب جدًا التحدث عن هذا الموضوع. هذا الجزء يجب أن يكون سهلًا.

- تقول المديرة هنا إننا يفترض أن نكون قادرين على اجتياز الموضوع. بخصوص القروض والمساعدات المالية والمنحة الدراسية. تقول إنه ما دمت أبلي جيدًا بالدراسة، فسوف نكون قادرين على اجتياز هذا.

- حسنًا.. هذا يبدو جيدًا، أعتقد.

لكنها كانت لا تزال تبدو شاعرة بالقلق. قلت:

- حسنًا. أنتِ هنا لمدة ثلاث ليال، أليس كذلك؟

أومأت برأسها.

- فكرت أنه ربما يمكننا غدًا أن نستقل الحافلة إلى منطقة التسوق. ليس هناك الكثير لرؤيته، ولكن هناك المتجر الذي اشتريت منه تلك الأطباق ومطعمًا وعددًا قليلًا من المتاجر الأخرى.

- نعم، يبدو الأمر ممتعًا.

كانت تحدق إلى البساط الآن، ولا تزال تبدو شاردة. قالت:

- «مارين»، يجب أن أخبرك الآن أنني أتيت هنا بدافع ما وليس لقضاء عطلة فقط.

شعرت بقلبي يغرق، لكني حاولت ألا أُظهِر هذا. نظرت إليها صامتة في انتظار ما ستقوله.. قالت:

- تعالي للمنزل معي. والداي يريدانك أن تأتي.

- أذهب من أجل ماذا؟ عيد الميلاد؟

- نعم، عيد الميلاد. ولكنهما يريدانك بعد ذلك أن تبقي معنا. أعني، ستأتين مرة أخرى هنا، بالطبع، ولكن يمكنك العودة إلى منزلي بالإجازات. يمكن أن يكون منزلك أيضًا.

- أوه.. عندما قلتِ دافع، فكرت في شيء آخر.

- مثل ماذا؟

- لا أعرف.

لم أكن أعرف فعلًا.. لم أستطع إخراج ما يدور داخل عقلي في شكل كلمات.. جزء بداخلي كان يشك أنها كانت ترغب في قول إنها لا تريد رؤيتي مرة أخرى، بينما الواقع هو العكس!

- حسنًا.. هل توافقين؟

- لا أعتقد أنني أستطيع.

ارتفع حاجباها في مفاجأة. لا بد لي من النظر بعيدًا.

- أعتقد أن هذا كثير لأطلبه منك مرة واحدة. ربما يجب أن نبدأ فقط بدعوة عيد الميلاد. تعودين بالطائرة معي، وتقضين يومين، وتنظرين كيف تشعرين. سيدفع والداي ثمن تذكرة الطيران.

هززت رأسي نفيًا مجيبة:

- أنا آسفة.

بدا عليها الضيق والمفاجأة. كان من المفترض أن تسير الأمور بشكل مختلف.

- لدي ثلاثة أيام لإقناعك، فكري في الأمر فقط. فلنتظاهر أنكِ لم تقولي لا. فلنتظاهر أنكِ لم تجيبي حتى الآن.

أومأت برأسي موافقة، لكني عرفت أنه -بغض النظر عن مقدار ما أريد أن أوافقها- سيكون من المستحيل بالنسبة لي أن أعود.

عبرت الحجرة إلى جانب سرير «هانا»، ونظرت إلى كل شيء مرة أخرى. فتحت «مابيل» حقيبتها القماشية، وتفقدت ما جلبته معها من أغراض. ثم عادت إلى النافذة. قلت لها:

- هناك زاوية أخرى أفضل لتنظري منها.. الطابق العلوي. إنها حقًا جميلة.

ركبنا المصعد حتى البرج. عندما خرجت مع «مابيل»، أدركت أنه نوع المكان الذي يمكن أن تجده شخصية المربية في رواية «دورة البرغي» ممتلئًا بالإمكانات الشبحية. أحاول ألا أفكر كثيرًا في القصص بعد الآن، لا سيما قصص الأشباح. من نوافذ البرج أمكننا أن نرى بقية الحرم الجامعي من منظور بانورامي واسع. فكرت أن الحديث قد يكون أسهل بالنسبة لنا هنا، حيث يوجد المزيد لرؤيته، لكنني ما زلت معقودة اللسان، و«مابيل» لا تزال صامتة، غاضبة على الأرجح.

استطعت أن أرى غضبها من طريقة ارتجاف كتفيها، ومن الطريقة التي لا تنظر بها إليّ.

- مَن هذا؟

سألت. تتبعت يدها التي تشير إلى شخص بعيد، بدا كبقعة ضوء. قلت:

- الحارس.

استمررنا في مشاهدته وهو يقترب، ويتوقف كل بضع خطوات وينحني. قالت «مابيل»:

- إنه يفعل شيئًا على طول الطريق.

- نعم. ترى ما هو؟

عندما وصل إلى مدخل بنايتنا، خطا للخلف ونظر لأعلى.. لوح لنا، فلوحنا له. سألتني «مابيل»:

- هل تعرفان بعضكما بعضًا؟

- لا، لكنه يعلم أنني هنا. أعتقد أنه مسؤول عن متابعتي. أو على الأقل عن التأكد من أنني لن أتسبب في حرق المكان أو أقيم حفلة صاخبة أو شيئًا ما.

- كلاهما محتمل للغاية.

لم أستطع غصب نفسي على الابتسام بالرغم من إدراكي أنها مزحة.

حتى مع معرفة أن الدنيا مظلمة بالخارج ومضيئة بالأعلى هنا، كان من الصعب تصديق أنه يمكنه رؤيتنا. لا بد أننا غير مرئيتين. نحن وحدنا جدًا.

وقفنا أنا و«مابيل» جنبًا إلى جنب، لكننا لم نعد نستطيع رؤية بعضنا حتى. على مبعدة كانت أضواء المدينة. لا بد أن الناس ينهون أيام عملهم، ويحضرون أطفالهم، ويخططون لما سيتناولونه في وجبة العشاء. يتحدثون مع بعضهم بعضًا عن الأشياء ذات الأهمية الكبيرة والأشياء التي ليست كذلك. بدت المسافة بيننا وبين كل تلك الكائنات ضخمة، كأنهم بعالم آخر. صعد الحارس إلى شاحنته. قلت:

- كنت أخشى ركوب المصعد.

- ماذا تقصدين؟

- كان ذلك قبل أن تصلي أنتِ إلى هنا. وأنا في طريقي إلى المتجر. كنت على وشك ركوب المصعد للأسفل ولكن بعد ذلك خفت أن أُحبس فيه دون أن يعرف أحد. كنتِ ستصلين إلى هنا ولن أتمكن من استقبالك.

- هل تتعطل المصاعد هنا في العادة؟

- لا أعرف.

- هل سمعتِ أن أحدهم علق فيها من قبل؟

- لا. لكنها قديمة للغاية.

ابتعدت عني باتجاه المصعد.. تبعتها. قالت:

- يبدو فاخرًا للغاية.

كان مليئًا بالزخارف مثل معظم هذا المبنى. نحاس محفور بزخارف، أوراق شجر، ودوامات من الجص فوق سطح الباب. الأماكن ليست قديمة لتلك الدرجة في كاليفورنيا. كنت معتادة هناك البساطة في التصميمات، وأن أكون أقرب إلى الأرض بحيث لم أحتج إلى مصعد من الأصل.

ضغطت «مابيل» الزر وانفتحت الأبواب كما لو كانت بانتظارنا. سحبت البابين المعدنيين عن بعضهما وخطونا إلى الداخل حيث اكتست الجدران

بألواح خشبية، وتدلت من الأعلى ثريا معلقة. انغلقت الأبواب، فمدت «مابيل» يدها نحو لوحة التحكم وضغطت الزر الذي جعل المصعد يتوقف بنا فجأة. سألتها:

- ماذا تفعلين؟

- دعينا نرَ فقط كيف سنشعر.

هززت رأسي. هذا ليس مضحكًا. كان الحارس قد رأى أننا بخير، وانطلق مبتعدًا. لو حدثَ للمصعد أي شيء ورفض العمل مرة أخرى يمكن أن نعلق هنا لعدة أيام قبل أن يبدأ في القلق. بحثت في لوحة التحكم عن الزر الذي يجعلنا نتحرك مرة أخرى، لكن «مابيل» قالت:

- إنه هنا. يمكننا أن نضغطه متى أردنا ذلك.

- أريد أن أضغطه الآن.

- هل تريدين حقًا؟

لم تكن تسخر مني. كان سؤالًا حقيقيًا. هل أنا أريد حقًا أن نتحرك مرة أخرى بتلك السرعة؟ هل أريد حقًا العودة للطابق الثالث معها، دون مكان نذهب إليه سوى العودة إلى غرفتي، لا يوجد شيء ينتظرنا لم يكن هناك من قبل؟ فهمت وجهة نظرها.. قلت:

- حسنًا. ربما لا.

****

قالت «مابيل»:

- كنت أفكر في جدك كثيرًا.

كنا نجلس على أرضية المصعد، وقد مالت كل منا على جدار منفصل، لبضع دقائق الآن.

تناقشنا في تفاصيل الأزرار، والضوء المنكسر من بلورات الثريا. بحثنا في المفردات التي نعرفها عن اسم الخشب واستقررنا على اسم الماهوجني.

والآن، أعتقد أن «مابيل» تعتقد أن الوقت قد حان للانتقال إلى موضوعات أكثر أهمية.

- يا للهول، كان جدك وسيمًا.

- وسيمًا؟ لا.

- حسنًا.. آسفة. يبدو قولي مبالغًا نوعًا ما... أقصد.. تلك النظارة التي ارتداها! وتلك السترة ذات الرقع الصفراء عند الأكمام! تلك الرقع هو من قام بخياطتها بنفسه لأن الأكمام تمزقت. لقد كان جذابًا للغاية.

قلت لها:

- أنا أعرف كل ما تقولينه.. وأنا أقول لكِ إن هذا ليس صحيحًا.

من المستحيل أن تفوت لهجة الضيق الواضحة في صوتي، لكني لست آسفة. في كل مرة أفكر فيه، يؤلمني بطني ويصبح التنفس عسيرًا.

- حسنًا.

أصبح صوتها أهدأ وهي تكمل:

- أنا أقوم بالتصرف بشكل خاطئ. هذا ليس ما قصدت قوله أصلًا. كنت أحاول أن أقول إنني أحببته. أفتقده. أعلم أن مشاعري ليست سوى جزء صغير مما لا بد وأنكِ تشعرين به نحوه، لكني أفتقده وظننت أنكِ قد تريدين معرفة أن شخصًا آخر يفكر فيه.

أومأت برأسي موافقة.. لم أعرف ماذا أفعل غير هذا. أردت أن أخرجه من تفكيري. قالت:

- تمنيت لو كان هناك نصب تذكاري.. ظللت أنا ووالداي نتوقع أن نسمع عن شيء كهذا. كنت أنتظر فقط الإجازة لحجز تذكرتي والمجيء هنا لرؤيتك.

والآن انتقلت لهجتي لصوتها، لأنني لم أستجب بالطريقة التي كان يجب أن أتجاوب بها معها، أعتقد، بالرغم من أننا كنا العائلة الوحيدة لبعضنا بعضًا. عرض والدا «مابيل» مساعدتي في الإعداد للجنازة، لكني لم أعاود

الاتصال بهما. اتصلت الأخت «جوزفين» أيضًا، لكني تجاهلتها كذلك. ترك لي «جونز» رسائل بريدية صوتية لم أفتحها مطلقًا. لأنه بدلًا من الحزن كشخص عادي، هربت إلى نيويورك، على الرغم من أن مساكن الطلبة لن تُفتح قبل أسبوعين آخرين.

مكثت في فندق متواضع وتركت التلفزيون مفتوحًا طوال اليوم. لم أكن آكل غير وجبة واحدة بالمساء، ولم أكن أهتم أو أبالي بكيفية قضاء يومي.

كل مرة أسمع فيها رنين هاتفي كان الصوت يهز عظامي. لكن عندما أغلقته صرت وحدي تمامًا، وظللت أنتظر اتصاله، ليخبرني أن كل شيء سيكون على ما يرام.

وكنت خائفة من شبحه.

وكنت قد ضقت ذرعًا من نفسي.

كنت أنام ورأسي تحت البطانيات، وفي كل مرة أخرج فيها في وضح النهار كنت أظن أنني سأصاب بالعمى. قالت «مابيل»:

- «مارين»، لقد جئت كل تلك المسافة حتى تتحدثي معي، حتى تضطري إلى الرد عندما أحدثك.

كان التلفزيون يعرض مسلسلات خفيفة، وإعلانات تجارية لوكلاء السيارات، وللمناشف الورقية، ولصابون الأطباق. مسلسل «القاضية جودي» مثلًا كان يعرض كثيرًا. بالإضافة إلى إعلانات نسائية، ومنتجات «دوف» التجميلية.

- كنت قد بدأت أعتقد أنكِ لا بد وقد فقدتِ هاتفك. أو لم تأخذيه معك. شعرت وكأنني مترصدة مختلة. كل تلك المكالمات ورسائل البريد الإلكتروني والرسائل النصية. هل تملكين أي فكرة عن كم مرة حاولت الوصول إليكِ؟

ظهرت الدموع في عينيها. ضحكت ضحكة مريرة. قالت:

- يا له من سؤال غبي.. بالطبع تعرفين. لأنها وصلت إليكِ جميعًا وقررتِ عدم الرد.

- لم أعرف ماذا أقول.

همست. يبدو هذا وصفًا غير دقيق، حتى بالنسبة لي.

- ربما يمكنك أن تخبريني كيف توصلتِ إلى هذا القرار. كنت أتساءل ما الذي فعلته بالضبط لأجعلك تتصرفين معي بتلك الاستراتيجية.

- لم تكن استراتيجية.

- إذن ماذا كانت؟ لقد قضيت كل هذا الوقت في إخبار نفسي أن ما تمرين به أكبر بكثير من عدم الرغبة في الحديث معي. في بعض الأحيان كان هذا التفكير يعمل. ولكن أحيانًا لا.

قلت:

- ما حدث معه... ما حدث في نهاية الصيف... لقد كان أكثر مما تعرفين.

كم هو مذهل، مدى صعوبة نطق هذه الكلمات. بالرغم من أنها بالكاد ذات أهمية، وأنا أعلم ذلك. لكنها تتعبني. لأنه بالرغم من كل التعافي الذي قمت به، وكل الطرق المختلفة التي قمت بها بجمع شتاتي معًا، لم أقل أيًّا من هذا بصوت عالٍ من قبل.. قالت:

- حسنًا. أنا أستمع.

- كان عليَّ المغادرة.

- لقد اختفيتِ ببساطة!

- لا. لم أفعل. جئت إلى هنا.

بدت الكلمات منطقية، لكن في مكانٍ ما أعمق من الكلمات، كانت تكمن الحقيقة. هي محقة. إذا كانت «مابيل» تتحدث عن الفتاة التي عانقتها مودعة قبل أن تغادر إلى لوس أنجلوس، والتي جلست بجوارها أمام شعلة النيران الصغيرة على الشاطئ بذلك الاجتماع الأخير في الصيف، الفتاة التي كانت تأخذ الصدف من غرباء عنها لإبقاء ذكرى والدتها حية، الفتاة التي تقوم بتحليل الروايات من أجل التسلية، وعاشت مع جدها بمنزل مؤجر وردي

اللون، غالبًا ما تكون رائحته مثل الكعك، وغالبًا ما يكون مملوءًا برجال مسنين منخرطين بالمقامرة -إذا كانت تتحدث عن تلك الفتاة- إذن نعم، لقد اختفيت!

لكن من الأسهل بكثير عدم النظر إلى الأمر بهذه الطريقة، لذلك أضفت:

- لقد كنت هنا طوال الوقت.

- كان عليّ أن أطير ثلاثة آلاف ميل لأجدكِ.

- أنا سعيدة بأنكِ فعلتِ.

- متأكدة؟

- نعم.

نظرت إليّ، تحاول معرفة ما إذا كنت أعني ذلك.

- نعم.

قلتها مرة أخرى. رفعت شعرها خلف أذنها.

- حسنًا.

ثم إنها ضغطت زرًّا، لنبدأ الحركة بعد عدة دقائق من التحليق.

لأسفل، لأسفل.

لست متأكدة من أنني جاهزة. لكننا الآن بالطابق الثالث، ومددنا أيدينا بنفس اللحظة إلى البوابة.. ولسبب ما تذكرت محادثتنا الأولى، كنا خارجتين من مصعد كذلك يومها.. أمسكت «مابيل» وقتها بيدي تتفحص أظفاري المطلية حديثًا بلون ذهبي تتخلله بعض الأقمار الفضية. كانت ابنة «جونز» المدعوة «سامانثا» تدير صالونًا للتجميل، وجعلت موظفة تم تعيينها حديثًا تجرب معي. أخبرت «مابيل» يومها أنني ربما أتمكن من الحصول لها على خصم على المانيكير هناك. ردت عليّ:

- ربما يمكنك فعل ذلك لي بنفسك، لا يمكن أن يكون الموضوع صعبًا لتلك الدرجة أعتقد.

لذلك ذهبنا بعد المدرسة لشراء بعض طلاء الأظفار من صيدلية «وول جرينز»، وجلسنا في حديقة «لافاييت» بينما كنت أفسد أظفارها، وضحكنا لساعات على النتيجة.

كانت «مابيل» أمامي، على وشك الدخول عبر باب غرفتي. سألتها:

- هل تتذكرين أول يوم خرجنا فيه معًا؟

توقفت عن المشي، والتفتت لي.

- في الحديقة؟

- نعم.. وحاولت أن أطلي أظفارك لأنك أحببتِ طلاء أظفاري، لكني أفسدت الأمر تمامًا وبدت رهيبة.

هزت كتفيها ببساطة.

- لا أتذكر أن الأمر كان بهذا السوء.

- لا. لم يكن سيئًا. فقط مهاراتي في طلاء الأظفار هي السيئة.

- اعتقدت أننا استمتعنا.

- بالطبع استمتعنا. هذا ما جعلنا نصبح صديقتين.. كنتِ تعتقدين أنني سأكون قادرة على طلاء أظفارك بشكل جيد، ولكني فشلت فشلًا ذريعًا، لكننا ضحكنا كثيرًا يومها، وهكذا بدأ كل شيء.

اتكأت «مابيل» على المدخل، ثم أخذت تحدق أسفل الردهة.

- بدأ كل شيء في اليوم الأول لحصة اللغة الإنجليزية، عندما جعلنا الأخ «جون» نحلل قصيدة غبية، وقمت أنتِ برفع يدك وقلتِ شيئًا ذكيًا جدًا لدرجة أن القصيدة لم تعد تبدو غبية فجأة. وهنا عرفت أنكِ فتاة من النوع الذي أود أن أعرفه. لكن لم أعرف كيف.. ثم جاء اصطدامنا ببعضنا بعضًا أثناء الخروج من المصعد وحل تلك المشكلة.

لم تخبرني بهذا من قبل. أكملت:

- لم يكن الأمر متعلقًا بطلاء الأظفار.

ثم هزت رأسها كما لو كانت الفكرة سخيفة، على الرغم من أنها النسخة الوحيدة التي عرفتها أنا من القصة حتى الآن. ثم استدارت ودخلت إلى غرفتي.

- ماذا تتناولين على العشاء؟

سألتني، فأشرت إلى المكتب، حيث توجد غلاية كهربائية بجانب عبوات النودلز.

- حسنًا، فلنقم بإعداد طبقين إذن.

- لقد اشتريت بعض الطعام.. هناك مطبخ يمكننا استخدامه.

هزت رأسها مجيبة:

- لقد كان يومًا طويلًا. طبق من النودلز سيكون كافيًا.

بدت متعبة جدًا. تعبت مني ومن عدم حديثي معها على الأرجح..

قمت برحلتي المعتادة إلى حوض الحمام للحصول على الماء، ثم قمت بتوصيل الغلاية الكهربائية على مكتبي ووضعت الطبقين -السلطانيتين- الأصفرين بجانبه. ها قد أتت فرصة أخرى. أحاول التفكير في شيء لقوله. لكن «مابيل» هرعت للداخل أمامي.

- هناك شيء أريد أن أخبرك به!

- حسنًا.

- التقيت بشخص ما في المدرسة. اسمه «جاكوب».

لم أستطع إخفاء تعبير الذهول عن وجهي.

- متى؟

- منذ شهر. تتذكرين وقت التسعمائة رسالة ومكالمة هاتفية اللاتي قررتِ تجاهلها؟

التفت للجهة الأخرى، متظاهرة بفحص شيء ما بالغلاية.

- إنه في صف الأدب معي. أنا أحبه حقًا.

كانت تتحدث بصوت ألطف الآن. راقبت الغلاية حتى بدأت تنفث أول دفقات من البخار، همست:

- هذا خبر جميل.

ثم سكبت المياه في الطبقين، فوق النودلز. فتحت أكياس النكهة، ونثرتها على السطح قبل أن أقوم بالتقليب.. وبعد ذلك لا يوجد شيء لفعله غير الانتظار، لذلك وجدت نفسي مضطرة للعودة.

- حكيت له عنكِ.. أخبرته أن أفضل صديقاتي اسمها «مارين»، وأخبرته عن نشأتك على يد جدك الذي أحببته كأنه جدي أنا. أخبرته أنني بعدما رحلت للالتحاق بالكلية ببضعة أيام غرق «جرامبس»، وأنكِ منذ تلك الليلة لم تتحدثي إلى أي شخص في الديار. ولا حتى أنا.

مسحت الدموع عن وجهي بظهر يدي، شاعرة بنفسي أبدو مثيرة للشفقة للغاية.. استطردت:

- وهو يعتقد أنكِ شجاعة للغاية لتمكنك من تخطي كل تلك الصدمات، ويتحرق شوقًا لمقابلتك.

تخطيت؟ وددت لو أستطيع أن أضحك.

هل تعتبرني تخطيت ما حدث حقًا؟ تخطيت وفاة «جرامبس»؟ أم خسارة أمي من قبل إدراك وجودها بجواري أصلًا؟ أم تخطيت كوني وحيدة كئيبة وصامتة؟ تخطيت أي شيء بالضبط؟

حاولت منع نفسي من الاسترسال في هذه الأفكار، وحاولت شغل نفسي بالبحث في ذاكرتي عن الطريقة التي اعتدنا الحديث بها عن الصبيان بالماضي. ما الذي كنت لأقوله في ذلك الوقت؟ غالبًا كنت سأطلب رؤية صورته. أنا متأكدة من وجود العشرات من صوره على هاتفها. لكنني لا أريد أن أرى صورته.. لست مهتمة.. لكنني يجب أن أقول شيئًا.

- يبدو لطيفًا.

هكذا قلت بهدوء، ثم أدركت أنها بالكاد أخبرتني بأي شيء عنه. كيف عرفت أنه لطيف إذن بحق السماء؟

- أعني، أنا متأكدة من أنك ستختارين شخصًا لطيفًا.

شعرت بها تحدق إليَّ، لكن هذا كل ما لديّ لقوله. تناولنا طعامنا في صمت. عندما انتهينا قلت:

- هناك غرفة استجمام في الطابق الرابع، يمكننا مشاهدة فيلم إذا أردتِ.

- أنا في الواقع متعبة جدًا.. أعتقد أن الأفضل أن أخلد للنوم.

- أوه، حسنًا..

ألقيت نظرة على الساعة. لم تتعد التاسعة إلا بمجرد دقائق قليلة، وفي كاليفورنيا سيكون الوقت أبكر بثلاث ساعات.

- هل ستمانع زميلتك في السكن لو نمت بسريرها؟

سألتني مشيرة إلى سرير «هانا».

- لا، لا بأس.

بالكاد استطعت إخراج الكلمات. قالت:

- حسنًا.. عظيم.. سأبدل ملابسي إذن.

أخرجت حقيبة أدوات التجميل الخاصة بها وبيجامتها، والتقطت هاتفها سريعًا، كأنني قد لا ألاحظ هذا، وانسلت خارج الغرفة.

ظلت بعيدة لفترة طويلة. مرت عشر دقائق، ثم عشر أخرى، ثم أخرى. أتمنى أن أفعل شيئًا غير الجلوس وانتظارها. سمعت صوت ضحكتها، ثم سمعتها تقول بجدية:

- ليس لديك ما يدعو للقلق.

سمعتها تقول:

- أعدك.

ثم سمعتها تقول:

- أنا أيضًا أحبك.

****

الفصل الخامس

مايو

قمت بنسخ جميع المقاطع التي تمكنت من العثور عليها عن الأشباح ووضعتها على طاولة القهوة، وفرزتها، وقرأت كل واحدة منها عشرات المرات.

بدأت التفكير في أنه لم تكن الأشباح نفسها هي المهمة قط.

فكما قالت «مابيل»، كل ما فعلوه هو الوقوف هنا وهناك. لم تكن الأشباح، وإنما كانت المطاردة هي التي تهم. أخبرت الأشباح المربية أنها لن تعرف الحب أبدًا، أخبر الشبح «جين آير» أنها وحيدة، أخبر الشبح عائلة «بويندیا» أن أسوأ مخاوفهم كانت صحيحة: محكوم عليهم بتكرار نفس الأخطاء. كتبت بعض الملاحظات ثم أخذت رواية «جين آير» وتمددت على الأريكة جنبًا إلى جنب مع روايتي المفضلة الأخرى، «مائة عام من العزلة»، قرأتها مرات أكثر مما يمكنني العد. بينما كانت رواية «مائة عام من العزلة» تجتاحني بسحرها وصورها وتعقيداتها وتفاصيلها، كانت رواية «جين آير» تأسر قلبي بالكامل.

كانت «جين» وحيدة للغاية. كانت قوية ومخلصة وصادقة. أحببت كلتيهما، لكن كل واحدة منهما كانت تُرضي احتياجات مختلفة داخلي.

عندما كان «روتشستر» على وشك القيام بعرض الزواج خلال أحداث رواية «جين آير»، سمعت «جرامبس» في الطابق السفلي يعبث بمفاتيحه، وبعد لحظة دخل وهو يصفر. سألته:

- هل تلقيت خطابًا جيدًا بالبريد؟

- عندما تكتب رسالة، تحصل على رسالة.

- أنتما الاثنان جميلان للغاية.

ركضت للطابق السفلي لمساعدته في حمل أكياس البقالة، ورصَصْتُ الطعام في مكانه، ثم عدت لرواية «جين آير»، واختفى هو في مكتبه. أحببت أن أتخيله يقرأ الرسائل بالمكتب، وقد ارتدى نظارته، واسترخى على كرسيه، وأخذ يدخن السجائر، بينما منفضة السجائر الكريستال بجواره.

تُفتح النافذة ليتسلل منها الهواء المالح، بينما شفتاه تتلفظان بالكلمات. كنت أتساءل ما هي نوعية الرسائل التي يكتبها. لمحت بعض كتب الشعر القديمة مكدسة على مكتبه. تساءلت بداخلي عما إذا كان قد اقتبس منها. أو إذا كتب بعض الأبيات بنفسه، أو انتحل بعض الأبيات ونسبها لنفسه. ومن كانت «بيردي» هذه؟ لا بد من أنها سيدة فاتنة للغاية. تنتظر رسائل «جرامبس»، ثم تكتب ردًا له.. تخيلتها على كرسي في شرفة، تحتسي الشاي المثلج وتكتب بخط يد أنيق ورقيق. عندما لا تكون تكتب لجدي، فإنها على الأرجح تقوم بزراعة نباتات الظل أو رسم لوحات لمناظر طبيعية بألوان الأكواريل. أو ربما كانت أكثر انطلاقًا من ذلك؛ ربما كانت من نوعية الجدات اللاتي يخرجن للرقص، ولديها لمعة شقية في عينيها من شأنها أن تنافس شقاوة «جرامبس». ربما ستغلبه في لعبة البوكر وتدخن السجائر معه حتى وقت متأخر من الليل، بمجرد أن يجدا طريقة ليكونا معًا بدلًا من وجود عدة ولايات بينهما، بمجرد ألا يكون مضطرًا لحمل همي وأتسبب في تعطيله عن الانتباه لحياته. في بعض الأحيان كان التفكير في ذلك يبقيني مستيقظة أثناء الليل، وقد انتابني ألم في بطني. لو لم أكن موجودة، فربما كان سيغادر سان فرانسيسكو متّجهًا إلى جبال روكي. فباستثنائي، كل ما لديه هنا هو

«جونز» و«فريمان» و«بو»، وحتى هؤلاء لم يعد يبدو عليه أنه لا يزال يحبهم كثيرًا. ما زالوا يلعبون الورق كما كانوا يفعلون دائمًا، ولكن ضحكاتهم قلت عن الماضي.. لم تعد ضحكات رنانة، وإنما صارت ضحكات خافتة لا تكاد تُسمع.

- هل يمكنني مقاطعة قراءتك؟ لديّ شيء خاص جدًا اليوم.

قالها «جرامبس»، وقد عاد إلى غرفة المعيشة، وهو يبتسم لي. قلت:

- أرني.

- حسنًا.. لكني أخشى أنك لن تكوني قادرة على لمسه. إنه هش للغاية.

- سأكون حذرة.

- فقط اجلسي هنا، وسأرفعه وأريه لكِ.

قلبت عينيّ.

قال:

- لا تفعلي ذلك. لا تكوني هكذا. هذا شيء مميز.

بدا متألمًا، وشعرت بالأسف لطريقة تصرفي. قلت:

- آسفة.. سوف أنظر فقط.. لا تقلق.

أومأ برأسه. قلت:

- أنا متحمسة.

- سأحضره. انتظري هنا.

خرج حاملًا قطعة قماش مطوية في يديه، لونها أخضر داكن، وتركها تنفتح ورأيت أنها فستان. ملت برأسي. قال:

- إنه لـ «بيردي».

- أرسلت لك فستانها؟

- كنت أرغب في الحصول على شيء منها. أخبرتها أن تفاجئني. هل تعتبر هدية إذا كنت أنا من طلبها؟

هززت كتفي.

- بالتأكيد.

شيء ما أذهلني بخصوص ذلك الفستان. كانت الأشرطة ذات لون بيج، وقد زينت الخصر تطريزات باللونين الأبيض والوردي.

- يبدو وكأنه فستان امرأة شابة.

ابتسم «جرامبس». قال باستحسان:

- يا لكِ من فتاة لماحة. هذا الفستان منذ أن كانت شابة. قالت إنها لا تمانع في إرساله لأنها لم تعد رشيقة لترتديه كما كانت في السابق. لم يعد يناسب جسدها ولا يناسب سيدة في عمرها.

ألقى نظرة طويلة أخرى على الفستان، ثم قام بطيه واحتضنه بقوة. قلت:

- إنه جميل للغاية.

لاحقًا، بينما كان يغسل أطباق العشاء وأنا أجففها بجواره، سألته:

- «جرامبس»، لماذا لا تتحدث عن «بيردي» أبدًا مع أصدقائك؟

ابتسم لي.. قال:

- لا أريد أن أثير غيرتهم.. لا يملك الجميع علاقة مميزة مثل التي تجمعني أنا و«بيردي».

بعد أيام قليلة، كنت جالسة على الأرض في غرفة جلوس «مابيل»، أتفقد ألبومات الصور. قالت «مابيل»:

- لم أكن جميلة الشكل عند ولادتي.

- عم تتحدثين؟ كان شكلك جميلًا للغاية. ماذا بشأن هذه الصورة!

أشارت «آنا» إلى صورة «مابيل» وهي ملفوفة في بطانية بيضاء، وتتثاءب.

- أريد صورة أكون فيها أكثر... انتباهًا.

تم تكليف جميع طلاب السنة الأخيرة –ومنهم نحن، بلا فخر- بتقديم صورة لهم وهم رُضع للكتاب السنوي، وكان الموعد النهائي قريبًا. كانت

«إليانور» -محررة الكتاب ذلك العام- على شفا الإصابة بانهيار عصبي مع كل يوم يمر. صوتها يدوي عبر جهاز الاتصال الداخلي أثناء الإعلانات اليومية صاخبًا متوسلًا:

- من فضلكم.. أرسلوا لي الصور بأقرب وقت بالبريد الإلكتروني.

- هل اخترتِ صورتك بعد؟

سألتني «آنا»، وهي تعود إلى الأريكة لتستكمل الرسم الذي كانت تقوم به. أجبت:

- ليس لدينا أي صور.

قلبت صفحة جديدة في كراسة الرسم الخاصة بها وهي تسألني:

- ولا واحدة؟

- لا أعتقد ذلك. لم يرِني أي شيء قط.

- هل يمكنني رسمك؟

- حقًا؟

- مجرد سكتش سريع بعشر دقائق.

ثم ربتت على وسادة الأريكة بجانبها وجلست. تفرست في وجهي قبل أن تلمس الورق بقلم الفحم. نظرت إلى عينيّ، وأذنيّ، وانحناء أنفي، وعظام وجنتيّ، ورقبتي، والنمش الصغير على خديّ، والذي لا يلاحظه أحد. مدت يدها وفكت شعري من خلف أذنيّ ليسقط إلى الأمام. بدأت الرسم، ونظرت إليها كما لو كنت أرسمها أنا الأخرى. تفرست في عينيها وأذنيها وانحدار أنفها. الاحمرار في وجنتيها وخطوط ضحكتها، وبقع اللون البني الأخف درجة وسط البني الغامق بحدقة عينيها. كانت تلتفت إلى ورقتها فترسم قليلًا، ثم تنظر لأعلى تتأمل جزءًا جديدًا مني.. قالت «مابيل»:

- حسنًا، لقد وجدت صورتين. كنت أبلغ من العمر في هذه عشرة شهور، وأبدو أخيرًا كبشرية. أما الأخرى فلم أعد رضيعة فيها وإنما صرت طفلة، لكنها صورة جميلة للغاية، لو أن لي أن أقول ذلك.

ثم علقت الصورتين أمامنا.

- الاثنتان رائعتان.

هكذا ردت عليها «آنا» وهي تتفرس في كلتيهما. قلت:

- أنا أصوت لصورة الرضيعة ذات الفخذين السمينتين! شكلها رائع.

وهنا ذهبت لمسحها ضوئيًا وإرسالها، وبقيت أنا و«آنا» وحدنا في غرفة المعيشة. قالت لي:

- فقط بضع دقائق أخرى وسأنتهي.

- حسنًا.

- أتريدين إلقاء نظرة؟

سألتني عندما انتهت. أومأت برأسي إيجابًا، ووضعت دفتر الرسم على حجري. كانت الفتاة المرسومة على الصفحة أنا ولم تكن أنا بنفس الوقت. لم أر قط رسمًا لنفسي من قبل.

- انظري.

أرتني «آنا» يديها وهما ملطختان بالفحم.

- أنا بحاجة للاغتسال، لكني أفكر في شيء ما. هلّا تتبعينني؟

تبعتها عبر الغرفة إلى المطبخ حيث أدارت مقبض الصنبور النحاسي بمعصمها وتركت الماء يجري فوق يديها.

- أعتقد أنه يجب أن يكون لديه صورة ليشاركها معكِ. حتى لو لم يكن لديه الكثير من الصور، فيجب أن يكون لديه واحدة أو اثنتان على الأقل.

- ماذا لو لم ينتهِ به الأمر مع أغراض أمي؟

- أنتِ حفيدته. كنتِ تقريبًا في الثالثة عندما ماتت، صحيح؟ إذن فقد كان بوسعه التقاط صور لكِ بنفسه وقتها.

ثم جففت يديها في منشفة أطباق خضراء زاهية.

- اسأليه. أعتقد أنكِ إذا سألتِه سيجد شيئًا.

عندما وصلت إلى المنزل، كان «جرامبس» يحتسي الشاي في المطبخ. عرفت أنني يجب أن أفعلها لحظتها وإلا فلن أفعلها أبدًا.. ستتبخر شجاعتي إذا انتظرت حتى الصباح.

- حسنًا.. من المفترض أن نُسلم صورًا لنا ونحن رضع من أجل الكتاب السنوي. لصفحات طلاب السنة النهائية.. وكنت أتساءل، هل تعتقد أن لديك واحدة في مكان ما؟

نقلت وزني من قدم إلى الأخرى. سمعت صوتي وهو يعلو ويرتعش:

- أو، مثلًا، ليس من الضروري أن تكون لي وأنا رضيعة.. يمكن أن أكون قد بلغت عامين أو ثلاثة فيها.. أعتقد أنه ليس لدينا أي شيء، ولا بأس بهذا، لكن كان مطلوبًا مني أن أبحث عن واحدة ولهذا أسألك.

كان «جرامبس» ساكنًا. أخذ يحدق إلى فنجانه.

- سأبحث في القبو. سأحاول البحث لمعرفة إذا كان بإمكاني أن أجد شيئًا ما.

- سيكون هذا رائعًا.

فتح فمه ليقول شيئًا ما، لكن لا بد من أنه غير رأيه. في اليوم التالي بعدما عدت من المدرسة، بمجرد أن دخلت، وجدته ينتظرني في غرفة المعيشة. لم ينظر إلي. قال:

- عزيزتي.. حاولت لكن.

- لا بأس.

- ضاعت الكثير من الأغراض.

- أعرف.

كنت آسفة لأنني أجعله يقول هذا، وآسفة لاستعادة ذكريات ما فُقِد. فكرت في الطريقة التي صرخ بها في مستشارة الدير، «أنتِ تذكّرينني أن أتذكرهما، حقًا؟».

ما زال لا يستطيع النظر إليّ. همست:

- «جرامبس»، لا بأس حقًا.

المفترض أنني أذكى من هذا وأتوقع مثل هذه النتيجة، لكني طلبت ذلك على أي حال!

كنت متضايقة من الطريقة التي أزعجته بها، ومتضايقة أيضًا من الطريقة التي سمحت لنفسي بها بالأمل بشيء لم يكن موجودًا.

مشيت على طول شاطئ المحيط لفترة طويلة، حتى وصلت إلى الصخور أسفل مطعم «كليف هاوس»، ثم استدرت. عندما عدت إلى النقطة التي بدأت منها، وجدت نفسي لا أزال غير مستعدة للعودة إلى المنزل، لذلك جلست على كثيب رملي قريب وأخذت أراقب الأمواج في شمس الظهيرة. كانت هناك امرأة ذات شعر بني طويل وسترة سباحة مبللة بالقرب مني، وبعد فترة جاءت لتجلس بجواري. قالت:

- مرحبًا.. أنا «إيميلي». كنت إحدى صديقات «كلير».

- نعم، أنا أعرفك.

- لقد صار يأتي إلى هنا كثيرًا، أليس كذلك؟

أشارت إلى حافة الماء، وكان «جرامبس» هناك، على مبعدة، يمشي وحيدًا.

- لم أره منذ فترة طويلة. الآن صرت أراه كل أسبوع تقريبًا.

لم أستطع الإجابة عليها. باستثناء رحلاته إلى متجر البقالة وألعاب البوكر على مدار الساعة، لم أكن أعرف أين يذهب «جرامبس» على الإطلاق!

كنت أصادفه على الشاطئ عدة مرات، لكني لم أكن آتي هنا عادة في هذا الوقت من فترة بعد الظهر. قالت:

- لقد كان راكب أمواج جيد. أفضل من الكثيرين منا، على الرغم من أنه كان أكبرنا سنًا.

لم يتحدث «جرامبس» معي قط عن ركوب الأمواج، لكنه أحيانًا كان يدلي بتعليقات حول الأمواج، وتلك التعليقات أظهرت أنه يعرف الكثير عن الماء. كنت أشك في أنه كان يمارس ركوب الأمواج في مرحلة ما من حياته، لكني لم أسأله قط. قالت «إيميلي»:

- ذات يوم.. بعد موت «كلير» بشهرين. هل تعرفين هذه القصة؟

- لا أعرف.. ربما.

هكذا رددت عليها، رغم أنني لم أكن أعرف أي قصص.

- أخبريني على أي حال.

- لم يره أحدنا هناك منذ أن فقدناها. كان يوم سبت، وكان الكثيرون منا بالخارج. ظهر مع لوحه على الرمال. البعض منا رآه وعلمنا أنه يتعين علينا القيام بشيء ما، لإظهار احترامنا، وندعه يرى مقدار حزننا. لذلك خرجنا من الماء. اتصلنا بالآخرين الذين لم يروه منذ فترة. لم يمض وقت طويل حتى لم يكن هناك سواه في الماء، وقد وقفنا جميعًا في صف على الرمال في سترات السباحة، نشاهده. بقينا هكذا لوقت طويل. لا أتذكر كم من الوقت مر بالضبط، لكننا بقينا هكذا حتى انتهى هو، وأخذ يجدف عائدًا، دس لوحه تحت ذراعه، ومشى بجوارنا مباشرة، كما لو كنا غير مرئيين. لا أعرف ما إذا كان قد لاحظنا هناك حتى.

صار أقرب إلينا الآن، لكنني علمت أنه لن ينظر حوله ويراني، وقررت عدم مناداته. هاجمت موجة، فاجأته، لكنه بالكاد حاول مراوغتها. أغرقت ساقَيْ سرواله حتى الركبتين، لكنه ظل يسير وكأن شيئًا لم يحدث. قطبت «إيميلي».. قالت:

- أعلم أنني لست بحاجة إلى إخبارك بهذا. لكن يمكن أن تكون الأمور خطيرة هنا. حتى مجرد المشي.

- نعم.

وشعرت بالخوف يتدفق داخلي، مما ضاعف من شعوري بالذنب. هل استخرجت الذكريات التي عمل بجد لنسيانها؟ هل دفعته للخروج والمجيء إلى هنا بسبب طلبي؟

- يجب أن أقول له شيئًا حيال ذلك.

ظلت تراقبه.

- أظنه يعرفه بالفعل.

****

الفصل السادس

وقفنا ننتظر عند موقف الحافلات وسط الثلج.

كانت «مابيل» قد اغتسلت بالفعل وارتدت ملابسها بحلول الوقت الذي استيقظت فيه. بمجرد أن فتحت عينيّ قالت هي:

- لنذهب لمكان ما لتناول الإفطار. أريد رؤية المزيد من هذه المدينة.

لكني عرفت أن ما تريده حقًا هو أن تكون في مكان آخر، حيث لا نكون نحن الاثنتان محبوستين في غرفة تطفح بكل الأشياء التي لم نكن نقولها.

ها نحن الآن على جانب شارع مغطى بالثلج الأبيض، الأشجار والجبال في كل اتجاه. من حين لآخر كانت تمر بنا سيارة ويبرز لونها وسط الثلج.

سيارة زرقاء.

سيارة حمراء.

قالت «مابيل»:

- أشعر بأصابع قدمي مخدرة.

- وأنا أيضًا.

مرت بنا سيارة سوداء، ثم واحدة خضراء.

- لم أعد أستطيع الشعور بوجهي.

- وأنا كذلك.

صعدنا أنا و«مابيل» إلى حافلات معًا لآلاف المرات، ولكن عندما ظهرت الحافلة على مبعدة، بدا الموقف غير مألوف على الإطلاق. بدا المنظر غريبًا، لون الثلج الذي يسيطر على كل شيء غريب، اسم ورقم الحافلة غريبان، وحتى لهجة السائق بدت غريبة وهو يقول لنا:

- سمعتما عن العاصفة، أليس كذلك؟

أخذنا بضع خطوات بطيئة متقطعة، دون أن نعرف إلى أي مدى ينبغي أن نعود للخلف.. خطت «مابيل» للجانب لتجعلني أنا في المقدمة، كما لو أنني لمجرد أنني أعيش هنا، فأنا أعرف المقعد المناسب لكل منا.

استمررت بالسير حتى وصلنا إلى نهاية الحافلة. جلسنا بوسط الأريكة الخلفية. لا أعرف كيف تبدو العاصفة هنا. الثلج يكون لينًا جدًا عندما يسقط، لا يشبه البَرَد الذي أعرفه.

لم يكن يسقط بزخات ثقيلة كالمطر فيوقظك، أو من نوعية الرياح التي تقذف فروع الشجرة في الشوارع. تقدمت الحافلة ببطء عبر الشارع على الرغم من عدم وجود حركة مرور.

قالت «مابيل»:

- سمعت عن «دانكن دوناتس».

- الجميع يحبون قهوتهم.

- هل هي جيدة؟

هززت كتفي مجيبة:

- ليست مثل القهوة التي اعتدنا عليها.

- لأنها مجرد قهوة عادية؟

سحبت خيطًا شاردًا برز من طرف قفازي، عند طرف إحدى الأصابع، وأنا أجيبها:

- في الواقع لم أجربها قبلًا...

- أوه.

قلت لها:

- أعتقد أنها مثل قهوة الحانة.

أبقى بعيدًا عن الحانات الآن. كلما اقترحت «هانا» أو أحد أصدقائها الخروج لتناول الطعام، أحرص على معرفة اسم المكان أولًا، وأقوم ببعض الأبحاث عنه. يضايقونني لكوني انتقائية للغاية بشأن الطعام، وهو سوء فهم بالكامل لموقفي، لأنني لست صعبة الإرضاء بشأن ما أتناوله. أنا فقط أخشى أن يفاجئني شيء ما ذات يوم. قهوة لا طعم لها.. مربعات جبن أمريكي عديمة المذاق.. طماطم صلبة، غير ناضجة لدرجة أنها بيضاء بالمنتصف.. يمكن لأكثر الأشياء براءة استدعاء أفظع الذكريات. أردت أن أكون أقرب إلى النافذة، لذلك أنزلت زجاج النافذة.. كان الزجاج شديد البرودة، لدرجة جعلت برودته تتسلل من خلال قفازي، والآن وقد اقتربنا من منطقة التسوق، ظهر صفٌ من أعمدة الإضاءة التي اصطفت على طول الشارع.

طوال حياتي كان الشتاء يعني سماء رمادية ومطرًا وبركًا ومظلات. لم يبد الشتاء مثل هذا من قبل. أكاليل الزهور على كل باب، وزينات عيد الميلاد على أُطُر النوافذ.

تلألأت أشجار عيد الميلاد من خلال الستائر المفتوحة. ضغطت بجبهتي الزجاجَ، وأخذت أتأمل انعكاسي.

أردت أن أكون جزءًا من العالم الموجود في الخارج.

وصلنا إلى محطتنا وترجلنا وسط البرد، بينما ابتعدت الحافلة لتكشف عن شجرة مضاءة بزخارف ذهبية في وسط الميدان.

شعرت بالسعادة تخترق قلبي.

بالرغم من كون «جرامبس» معاديًا للدين، فقد كان يهتم اهتمامًا شديدًا بالمظاهر الاحتفالية المرتبطة بعيد الميلاد.

كنا نشتري كل عام شجرة من شارع «ديلانسي».

يقوم الرجال ذوو وشم السجن بربط الشجرة بسقف السيارة، ونصعد بها بأنفسنا إلى أعلى الدرج. كنت قد اعتدت أن أتولى جلب الزينة من خزانة

حجرة المعيشة، والتي تكون كلها زينة قديمة.. لم أكن أعلم أيها ينتمي لأمي، وأيها كان أقدم من ذلك، لكن لا يهم، فهي أدلتي الوحيدة على انتمائنا لعائلة أكبر من مجرد اثنين، هو وأنا.

قد نكون نحن الاثنان كل ما تبقى، لكننا ما زلنا جزءًا من شيء ما أكبر.

اعتاد «جرامبس» أن يقوم بخبز الكعك وصنع شراب البيض من الصفر.

كنا نستمع إلى موسيقى عيد الميلاد على الراديو، ونعلق الزينات بكل مكان، ثم نجلس على الأريكة ونسترخي بمجلسنا وقد أمسكنا بأكوابنا وأطباق مغطاة بفتات الكعك، متأملين عملنا بإعجاب.

وكان يقول دومًا:

- يا للمسيح! هذه شجرة رائعة.

بالكاد ظهرت الذكرى على سطح ذاكرتي، لكن ها قد بدأت المشاعر المضادة لها في الظهور بالفعل، فتسلل الشك إلى داخلي. هل هكذا كان الأمر حقًا؟ شعرت بالألم ينهش معدتي. كنت أظن أنني أعرفه!

أردت شراء هدايا للناس.

شيئًا لـ «مابيل».. شيئًا لإرساله إلى «آنا» و«خافيير».. شيئًا لتركه على سرير «هانا» لتجده عندما تعود من إجازتها، أو لأخذه لها معي إلى مانهاتن إذا ذهبت حقًا لرؤيتها. كانت نافذة استوديو الخزاف مضاءة. شعرت أن الوقت مبكر للغاية ليكون مفتوح الأبواب، لكنني نظرت فرأيت أن هناك علامة معلقة على النافذة تقول «مفتوح».

****

المرة الأولى التي أتيت فيها هنا كانت بالخريف، وكنت شديدة التوتر لدرجةٍ منعتني من النظر من كثب لأي شيء. كانت المرة الأولى لي مع «هانا» وصديقاتها. ظللت أُذكِّر نفسي أن أتصرف بطريقة عادية، أن أضحك مع ضحكاتهن، وأن أقول شيئًا لطيفًا من حين لآخر. شيئًا يجعلهن لا يلاحظن مدى كآبتي!

لم يرغبن في قضاء وقت طويل في الداخل -كنا نتجول داخل المتاجر وخارجها- لكن كل شيء كان جميلًا ولم أستطع تخيل الرحيل خالية الوفاض، فاخترت السلطانيات الصفراء. كانت ثقيلة الوزن ومبهجة المنظر، الحجم المثالي لتناول الكورن فليكس أو الحساء. الآن في كل مرة تستخدم «هانا» إحداها تتنهد وتقول إنها تتمنى لو أنها اشترت بعضًا منها لنفسها. لم يكن هناك من يقف خلف النضد عندما دخلت أنا و«مابيل» للمتجر، ولكنه بدا دافئًا مشرقًا، ومليئًا بالألوان.

شع موقد الحطب بالحرارة من حوله، بينما تدلى وشاح فوق كرسي خشبي. توجهت نحو رفوف الأطباق أولًا من أجل جلب هدية «هانا». كنت قد فكرت أن أشتري لها زوجًا من السلطانيات يشبه الزوج الذي لديّ، لكني رأيت أن هناك المزيد من الألوان الآن، بما في ذلك اللون الأخضر الداكن الذي عرفت أنها ستحبه. أخذت اثنتين منها وألقيت نظرة على «مابيل». أردتها أن تحب هذا المكان. كانت قد وجدت صفًا من الأجراس الكبيرة التي تتدلى من حبل سميك. كل جرس له لون وحجم مختلف، ولكل جرس نقش منحوت عليه. رنَّت أحدهم وابتسمت عند سماع الصوت الذي أصدره. شعرت أنني أحسنت صنعًا بجلبها لهنا.

- أوه، مرحبًا!

ظهرت امرأة عند باب خلف النضد، تحمل بين يديها قطعة من الفخار. تذكرت رؤيتها أول مرة أتيت فيها هنا. لسبب ما لم يخطر ببالي أنها هي من تصنع الأوعية الفخارية بنفسها، ولكن معرفة ذلك تجعل كل شيء يبدو أفضل. قالت لي:

- لقد رأيتك من قبل، أليس كذلك؟

- جئت قبل شهرين مع رفيقتي في السكن.

قالت:

- مرحبًا بكِ مرة أخرى إذن.. من الجيد رؤيتك ثانية.

- سأضع هذين على النضد حتى نتفقد بقية المعروضات.

قلتها وأنا ألوح بالسلطانيتين الخضراوين.

- حسنًا.. فقط نادياني لو احتجتما لأي مساعدة. سأكون بالخلف أنهي بعض القطع..

وضعت السلطانيتين بجوار كومة من البطاقات التي تدعو الناس لحفل بمناسبة مرور ثلاث سنوات على افتتاح المتجر. كنت لأفكر أن هذا المتجر هنا لفترة أطول. بدا شديد الدفء والحياة. تساءلت في سري عما كانت تفعله قبل أن تأتي إلى هنا. هي على الأرجح بعُمر والدَي «مابيل»، ولها شعر أشقر فاتح عقصته للوراء بمشبك، وقد ظهرت خطوط رفيعة تحت عينيها عندما ابتسمت. لم ألحظ ما إذا كانت ترتدي خاتم زواج أم لا. لا أعرف لماذا، لكني شعرت كأن شيئًا ما حدث لها، وكأن هناك ألمًا يختبئ وراء ابتسامتها هذه. شعرت بهذا في المرة الأولى. عندما أخذت المال مني، شعرت وكأنها أرادت إبقائي هنا. أتساءل عما إذا كان هناك شيء أشبه بخيط سري يربط الأشخاص الذين فقدوا شيئًا ما. لا بالطريقة التي يخسر بها الجميع شيئًا، ولكن عندما تفقد شيئًا عزيزًا للغاية، لدرجة أن فقدانه يُفسِد حياتك، ويقضي على روحك، يجعلك تستحيل شخصًا آخر. وعندما تقوم بالنظر إلى وجهك، تشعر أنه لم يعد وجهك بعد الآن.

- لمن تشترين تلك السلطانيات؟

سألتني «مابيل».

- من أجل «هانا».

أومأت برأسها. قلت:

- أريد أن أقدم هدية لوالديكِ أيضًا.. أتعتقدين أنهما سيحبان شيئًا ما من هنا؟

قالت:

- أي شيء.. كل شيء هنا جميل للغاية.

تفقدنا بعض الأشياء معًا ثم قمت أنا بجولة أخرى وانجرفت «مابيل» مرة أخرى إلى الأجراس. رأيتها تتحقق من سعر أحدها. «آنا» و«خافيير»

يحتفظان بالزهور في كل غرف منزلهما، لذلك ألقيت نظرة متفحصة على ركن المزهريات.

- ما رأيك بهذه؟

سألتها وأنا ألوح بمزهرية مستديرة ذات لون وردي مترب، بدت رقيقة وأنيقة بدرجة كافية تجعلها تليق بأي غرفة. قالت:

- رائعة. سوف يحبانها.

اخترت هدية لنفسي أيضًا: قِدر من أجل نباتي، بنفس لون مزهرية «آنا» و«خافيير». لقد احتفظت بزرعتي الصغيرة في وعاء من البلاستيك لفترة طويلة، وهذا القِدر سيبدو أجمل بكثير.

كانت المرأة جالسة على النضد الآن، تدون الملاحظات على قطعة من الورق، وعندما أخذت المزهرية إليها سيطرت عليّ رغبة البقاء. ناولتها بطاقة الصراف الآلي الخاصة بي عندما أخبرتني بالحساب، ثم استجمعت شجاعتي وسألتها بينما هي تلف السلطانية الأولى ببعض المناديل الورقية للحفاظ عليها من الكسر:

- كنت أتساءل.. هل.. هل يصادف أنك تبحثين عن موظف للعمل بالمحل؟

- أوه. أتمنى لو كان بوسعي! لكنه مشروع صغير نوعًا ما.. أنا فقط من أعمل هنا.

- حسنًا، الأمر فقط أنني أحببت متجرك حقًا لذلك فكرت في السؤال.

هكذا رددت عليها، محاولة ألا أظهر شعوري بخيبة الأمل. توقفت عن التغليف. ابتسمت لي وهي ترد:

- شكرًا لكِ يا عزيزتي. لطيف منكِ قول هذا.

سرعان ما سلمت لي الحقيبة التي وضعت فيها المزهرية والسلطانيتين المغلفتين، وعدت أنا و«مابيل» إلى الشارع المليء بالجليد. أسرعنا في سيرنا ونحن نمر بمتجر للحيوانات الأليفة ومكتب بريد، ودلفنا إلى المقهى وكلتانا ترتجف.

كانت منضدة واحدة فقط هي المشغولة، وبدت النادلة متفاجئة لرؤيتنا. تناولت قائمتين بالأصناف المتوفرة بالمكان من كومة. قالت:

- نحن نغلق أبوابنا مبكرًا بسبب العاصفة.. ولكن يمكنني أن أقدم لكما طلبكما لو كان شيئًا بسيطًا.

قلت:

- أوه، بالتأكيد.

علقت «مابيل»:

- نعم. لا بأس.

- هل تحبان أن تبدآ ببعض القهوة أو عصير البرتقال؟

- هل هناك كابتشينو؟

سألتها.. أومأت برأسها. قالت «مابيل»:

- نفس الشيء بالنسبة لي.. وسآخذ معه بعض فطائر البان كيك.

مسحتُ القائمة بعينيّ، ثم قلت:

- وأنا سأتناول بعض العجة من فضلك، ومعها بعض البطاطس المحمرة.

قالت النادلة:

- شكرًا آنستيّ.. اسمحا لي فقط بثانية...

مالت على طاولتنا، وقلبت اللافتة الصغيرة الموجودة على النافذة، بحيث تقول بالخارج بأن المكان مغلق. لكن من جهتنا، كانت اللافتة بالمنتصف بيني أنا و«مابيل»، وتقول «مفتوح». لو أن هذه كانت قصة قصيرة، لكان لهذا دلالة ما.

غادرت النادلة والتفتنا مرة أخرى إلى النافذة. صار الثلج يتساقط بشكل مختلف؛ كان هناك المزيد منه في السماء.

- لا أستطيع أن أصدق أنكِ تعيشين في مكان بارد لتلك الدرجة.

- أعرف.

ظللنا نشاهد المنظر بالخارج في صمت. سرعان ما وصلت قهوتنا. قلت:

- تبدو جميلة للغاية، أليس كذلك؟

- نعم. إنها كذلك.

مدت يدها إلى طبق من أكياس السكر، وأخرجت واحدًا وردي اللون، وواحدًا أبيض، وثالثًا أزرق. رصت ثلاثتهم بجوار بعضهم بعضًا، ثم مدت يدها لتلتقط المزيد. لم أعرف ماذا أستنتج من حركة يديها المتوترة أو تعبير وجهها الشارد.

كان فمها عبارة عن خط رفيع.. لو أن هذا اللقاء حدث بالماضي، عندما عرفنا بعضنا بعضًا لأول مرة، كنت سأقوم بمداعبتها بتخريب هذا الصف الذي رصته.. كنت لأخرج كومة من أكياس السكر أنا الأخرى، وأبني صفًا خاصًا بي، وتظل كل واحدة منا تزيد من طول صفها حتى يتلاقى الصفان بالمنتصف، لكني لم أعد نفس الشخص.. لو فقط...

- هل يمكننا العودة إلى سبب مجيئي إلى هنا؟

قاطع سؤال «مابيل» أفكاري.

توتر جسدي. تساءلت عما إذا كانت تستطيع ملاحظة هذا.. لا أريدها أن تسرد كل الأسباب التي يجب أن أعود بسببها إلى سان فرانسيسكو، والعودة إلى منزل والديها، لأنني أعلم أنها كلها ستكون أسبابًا صحيحة، ولن أتمكن من معارضتها بأي نوع من المنطق. سأبدو فقط حمقاء أو جاحدة ناكرة للجميل. قلت لها:

- أريد أن أقول نعم.

- ويمكنك قولها. عليكِ فقط أن تسمحي لنفسك بفعلها. لقد كنتِ تعيشين حياتك هناك على أي حال.

كانت محقة.

- سنكون قادرتين على رؤية بعضنا بعضًا في جميع فترات الإجازات، وسيكون لديكِ مكان يمكنك العودة إليه دائمًا. يريد والداي مساعدتك

في الأشياء التي تحتاجينها. مثل المال، أو مجرد نصيحة حتى، أو أيًا كان. يمكننا أن نكون مثل أختين!

ثم تجمدت. شعرت بوخزة في قلبي، وطنين في رأسي. أرجعت شعري خلف أذني. نظرت إلى الثلج بالخارج.

- لا أظن أن...

مالت إلى الأمام، واحتضنت رأسها بين يديها.

أخذت أفكر في الكيفية التي يمر بها الوقت بشكل مختلف باختلاف الناس التي تصاحبك بتلك الفترة. «مابيل» و«جاكوب»، والشهور التي عرفا فيها بعضهما بعضًا في لوس أنجلوس، أشهر كاملة من الخروج والتقابل والذهاب هنا وهناك.. رحلات برية، ورؤية المحيط، والكثير من الحياة التي تكتظ بها أيامهما. ثم، في الجهة الأخرى، أنا في غرفتي.. أسقي نبتتي، وأصنع بعض النودلز البائسة، وأنظف سلطانيتي الصفراء ليلة بعد ليلة بعد ليلة.

- لا بأس.

قلتها، لكني لم أكن أقصدها.

مر وقت طويل ولم تتحرك هي. قلت:

- أنا أفهم ما تقصدينه.

ظهرت أطباق طعامنا على الطاولة، وبجوارها زجاجة من شراب القيقب المركز، وزجاجة كاتشب من أجل البطاطس المحمرة التي طلبتها. شغلنا نفسينا بالتهام الطعام، لكن دون أن تبدو أيٌّ منا جائعة حقًا..

عندما وصلت فاتورتنا، رن هاتف «مابيل». تركت بطاقتها الائتمانية على الفاتورة قائلة:

- هذه المرة عليّ، حسنًا؟ سأعود حالًا.

ثم أخذت هاتفها إلى الجزء الخلفي من المطعم واختفت داخل كشك فارغ، وظهرها إليّ. قمت عن طاولتنا. صار الثلج يتساقط بقوة أكبر الآن. كان بائع

متجر الحيوانات الأليفة يعلق لافتة «مغلق» على نافذة المحل، لكني ارتحت لكون متجر الفخار لا يزال يعمل وأنا أدفع بابه للدخول.

- مرة أخرى!

هتفت السيدة متفاجئة، فابتسمت. كنت محرجة قليلًا للعودة، لكن يمكنني القول إنها بدت مسرورة عندما وضعت الجرس على النضد. أوضحت لها سبب عودتي:

- لم أكن أريد أن تراني صديقتي وأنا أشتريه.

- يمكنني لفه في منديل ويمكنك وضعه في جيب معطفك؟

- ممتاز.

تحركت المرأة بسرعة، لعلمها أنني في عجلة من أمري، ولكنها بعد ذلك تسمرت مكانها.

- كم ساعة في الأسبوع تظنين أنك تستطيعين العمل فيها؟

سألتني، فأجبتها:

- أنا منفتحة على أي شيء تقريبًا.

- بصراحة، بعد مغادرتك، كنت أفكر... يمكنني حقًا الاستفادة من بعض المساعدة. لكن ليس بإمكاني إلا دفع الحد الأدنى للأجور، وفقط لنوبتي عمل أسبوعيًا.

- سيكون ذلك رائعًا. لديّ فصول دراسية، لذا سأحتاج إلى وقتٍ للدراسة. نوبتان ستكونان رائعتين.

- هل أنتِ مهتمة بصنع الفخار؟ ربما نستطيع عمل شيء حيث يمكنك استخدام الفرن؛ لتعويض نقطة أنني لا أستطيع دفع الكثير.

شعرت بموجة من الدفء تمر من خلالي. سألتها:

- حقًا؟

ابتسمت لي. قالت:

- نعم.. أنا أُدعى «كلوديا» بالمناسبة.. وأنتِ؟

- «مارين».

- «مارين»، هل أنتِ من كاليفورنيا؟

أومأت برأسي موافقة، فأكملت هي:

- لقد أمضيت بضعة أشهر في «فيرفاكس». مشيت بالغابات الحمراء كل يوم.

أجبرت نفسي على الابتسام. لا بد أنها تنتظر مني أن أقول المزيد، لكنني لا أعرف ماذا أقول لها.. ثم استطردت هي لتعفوني من التساؤل:

- لا بد وأنكِ في منتصف عطلة المدرسة... لكنكِ ما زلتِ هنا.

وهنا مرت لمحة من القلق في عينيها. تساءلت عما تراها لمحت في عينيّ بنفس اللحظة.

أرجوكِ لا تفسدي الأمر هذه المرة! هكذا همست لنفسي. قلت لها:

- «فيرفاكس» جميلة.. أنا في الواقع من سان فرانسيسكو، لكن عائلتي لم تعد تعيش هناك. هل أستطيع إعطاءك معلومات الاتصال الخاصة بي؟ وبعد ذلك يمكنك إعلامي إذا انتهى بكِ الأمر بالحاجة إلى المساعدة؟

- نعم.

قالتها «كلوديا» وهي تقدم لي مفكرة وقلمًا. عندما أعدتهما إليها قالت:

- ستسمعين مني ببداية شهر يناير.. بعد بدء العام الجديد مباشرة.

- متشوقة للسماع منكِ. وداعًا.

- وداعًا يا «مارين».

ثم إنها مدت يدها بالجرس، ملفوفًا في منديل، نحوي.. قبل أن تفلته، نظرت مباشرة في عينيّ قائلة:

- إجازة سعيدة.

- ولكِ أيضًا.

شعرت بلسعة في عينيّ وأنا أخطو للخارج.

عندما عدت إلى المقهى، لم تكن «مابيل» في الكشك، لكنها لم تكن على طاولتنا كذلك، لذلك أدخلت جرسها خلسة داخل الكيس مع الهدايا الأخرى وانتظرت.

تخيلت نفسي في متجر الفخار.

تخيلت منظري وأنا آخذ نقودًا من أحد العملاء وأقوم بحساب الباقي. تخيلت نفسي أقوم بتغليف سلطانيات صفراء في مناديل ورقية وأقول مبتسمة، «لدي مثلها بالضبط في المنزل». تخيلت نفسي أقول «مرحبًا»، أو «عام جديد سعيد».

تخيلت نفسي أقوم بتنظيف الأرفف ومسح الأرضية المكسوة بالبلاط.

تخيلت نفسي أتعلم كيف أقوم بإشعال النار في الموقد بمفردي.

- آسفة.

قالتها «مابيل» وهي تجلس مكانها أمامي. ظهرت النادلة بعد لحظة.

- لقد عدتما! ظننتكما غادرتما في حالة من الذعر ونسيتما بطاقتكما الائتمانية.

- أين كنتِ أنتِ؟

سألتني «مابيل» باستغراب. هززت كتفي.

- أعتقد أنني غبت لدقيقة فقط.

- حسنًا. لقد أصبحتِ تجيدين موضوع الاختفاء هذا.

****

الفصل السابع

يونيو

كانت «آنا» في الخارج عندما فتحنا بوابة حديقة منزل «مابيل» الأمامية. كانت ترتدي ثياب التلوين، وقد عقصت شعرها بشكل فوضوي بمشابك ذهبية، وتحدق إلى آخر لوحاتها، وقد أمسكت بفرشاة الرسم وقطعة من خيط من الصوف في يدها.

هتفت بمجرد رؤيتنا:

- يا فتاتان! أنا بحاجة إليكما.

كنت قد رأيت لمحات من أعمالها غير المكتملة خلال الثلاث سنوات ونصف اللاتي كنت صديقة لـ «مابيل» خلالها. كل مرة كنت أشعر بجو من الاندفاع يحيط بها.

تم عرض لوحات «آنا» في معارض فنية شهيرة في سان فرانسيسكو ونيويورك ومكسيكو سيتي لسنوات، لكنها في الأشهر القليلة الماضية قامت ببيع بعض أعمالها لمتاحف مختلفة. بدأت صورتها في الظهور في المجلات. اعتاد «خافيير» فتح المجلات على المقالات التي تتحدث عن «آنا» ثم تركها في أماكن بارزة في جميع أنحاء المنزل. أما «آنا» فكانت ترفع يديها في كل مرة ترى فيها مجلة منها، قبل أن تنتزعها وترميها بعيدًا. كانت تقول لنا:

- سأصبح مغرورة بتلك الطريقة.. أخفوا هذه بعيدًا عني.

- تبدو أبسط من أعمالك المعتادة.

قالت «مابيل» هذا وهي تتأمل آخر لوحة، وفي البداية بدا ذلك صحيحًا.

كانت اللوحة تمثل سماء ليلية، طبقات ناعمة من الأسود على الأسود، وقد لمعت كوكبة من النجوم بشدة لدرجة أنها تتألق تقريبًا. اقتربت منها.

كانت النجوم تلمع بالفعل. سألتها:

- كيف فعلتِ ذلك؟

أشارت «آنا» إلى وعاء من الصخور اللامعة وهي تقول:

- إنه «ذهب مغشوش»، طحنته فحولته إلى مسحوق.

كان هناك الكثير مما يحدث تحت الطبقة العليا من اللوحة. بدت هادئة على السطح ربما، لكنها لم تكن بسيطة.

- لا أستطيع أن أحدد ما يجدر بي إضافته. إنها تحتاج إلى شيء ما، لكني لا أعرف ما هو. لقد جربت هذا الريش.. جربت الحبل.. أعتقد أنها تحتاج إلى شيءٍ بحريٍّ فيما أظن.

فهمت كيف تشعر بأنها عالقة. لكن ما لديها الآن شديد الجمال.. كيف يمكنها أن تضيف شيئًا إليها دون أن تزيل شيئًا بالمقابل؟ سمعتها تقول وهي تضع فراشي رسمها جانبًا:

- على أي حال، كيف حال فتاتيَّ هذا المساء؟ كنتما تتسوقان حسبما أرى.

- لقد أمضينا ساعة في متجر «21 للأبد» نجرب الفساتين من أجل اختيار ما سنرتديه بحفلة «بين»، والآن لدينا فستانان متطابقان، لا يختلفان إلا في اللون.. فستان «مابيل» أحمر اللون، أما فستاني أنا فأسود.

- هل تناولتما أي طعام؟ لقد صنع «خافيير» حساء «البوزول» باللحم.

- لقد بدأت الحفلة بالفعل، لذا علينا أن نتحرك بسرعة...

قالت «مابيل»، فعلقت «آنا»:

- يمكنكما أخذ الأطباق إلى غرفتكما.

- لا أطيق الانتظار لأرى ما ستقررين القيام به بهذه اللوحة.

هكذا علقت، فعادت «آنا» إلى لوحتها القماشية وتنهدت قائلة:

- وأنا أيضًا يا «مارين». وأنا أيضًا.

بدأنا بمكياجنا، بوضع ظلال العيون بين قضمات مختلسة من الحساء وطبق التوستادا. أفرغت «مابيل» صندوق مجوهراتها على سريرها، وتفحصنا محتوياته بحثًا عما يناسب الحفل. اخترت أساور ذهبية وقرطًا أخضر لامعًا، بينما اختارت «مابيل» سوارًا جلديًا مجدولًا. فكرت باستبدال أقراطها الذهبية بزوج آخر، لكنها قررت في النهاية أن تظل بهما.

أتينا على كل التوستادا، وانتهينا من كل الحساء. خلعنا قميصينا وارتدينا الفستانين، ثم خلعنا السراويل الجينز التي كنا نرتديها، ثم نظرنا إلى بعضنا بعضًا. قلت:

- نبدو مختلفتين بما فيه الكفاية.

- كالعادة.

منذ أن التقينا، وقد لاحظنا أن هناك تماثُلًا غريبًا باسمينا..

«مارين».

«مابيل».

يبدأ الاثنان بحرف «ميم»، ثم يتبعه حرف «ألف»، ثم حرف ساكن، ثم حرف «ياء»، ثم حرف ساكن من جديد. ظننا أن لهذا مغزى ما.

لا بد وأن شعورًا متماثلًا قد مر عبر جسدَي والدتينا وهما تقومان بتسميتنا. كأن القدر كان قد بدأ في العمل بالفعل.. ربما كنا في مدن مختلفة، لكنها كانت مجرد مسألة وقت قبل أن يتصادم قدرانا ببعضهما بعضًا.

لا بد أنني كنت غبية للغاية للتفكير بتلك الطريقة!

كنا نستعد للحفل، لكن الوقت كان يجري، ولم نكن نسرع بما فيه الكفاية.. ظللنا نعدل من مكياجنا على الرغم من أننا لم نكن نضع الكثير. اصطحبنا

طبقي حسائنا الفارغين وعدنا بهما إلى المطبخ لنجلب المزيد. كنا في طريقنا للعودة إلى غرفة «مابيل» عندما سمعت «آنا» و«خافيير» يتحدثان في غرفة المعيشة.

- يا له من حساء رائع!

هتفت بـ «خافيير»، فهتفت «آنا»:

- دعونا نرَ فتاتينا الجميلتين!

كانا مرتميين على أريكة معًا، «خافيير» يقرأ في كتاب، بينما «آنا» تغربل صندوقًا من القصاصات والأشياء الصغيرة، لا يزال عقلها يفكر في لوحتها، تحاول حل لغز ماذا يجدر بها إضافته لها.

- أوه!

هتفت «آنا» عندما رأتنا، وقد ظهر الفزع على وجهها. قال «خافيير»:

- لا، لا، لا.

- ما معني هذا؟

سألت «مابيل»، فرد عليها «خافيير»:

- هذا يعني أنكِ لن تغادري المنزل بهذا الثوب.

قالت «مابيل»:

- هل أنت جاد!

قال «خافيير» شيئًا صارمًا باللغة الإسبانية، فاحتقن وجه «مابيل» من السخط. قالت:

- أماه!

نقلت «آنا» نظراتها بيني وبين «مابيل»، قبل أن تستقر نظراتها على «مابيل» وهي تقول:

- يبدو مثل الملابس الداخلية. أنا آسفة يا حبيبتي، لكن لا يمكنك الخروج بهذا الثوب.

قالت «مابيل» بسخط:

- أمي! الآن ليس لدينا أي وقت!

قال «خافيير»:

- لديكِ الكثير من الملابس.

بينما أضافت «آنا»:

- ماذا عن ذلك الفستان الأصفر؟

تنهدت «مابيل» وصعدت السلم، فوجدت نفسي ما زلت أقف أمامهما مرتديةً نفس فستان ابنتهما أنتظر منهما أن يخبراني بشيء. شعرت بحرارة تتصاعد في وجهي، لكن من الإحراج وليس الاستياء. أردت أن أعرف كيف سأشعر لو قالا لي لا. هل سأشعر بالسخط مثل «مابيل»؟

لكن «خافيير» كان قد عاد بالفعل لمطالعة كتابه، بينما أخذت «آنا» تنظر لي. بدا لي أنها كانت تقرر شيئًا ما. ما زلت لا أعرف ما كانت ستقوله لو كنت قد انتظرت قليلًا، وهل كانت ستقول أي شيء على الإطلاق أم لا. لكن احتمال أنها لم تكن لتطلب مني تغيير ملابسي كان مدمرًا بالنسبة لي. لم يعتد «جرامبس» النظر إلى ملابسي. لم أنتظر لأرى ما إذا كانت عيناها ستعودان للنظر لي، وإذا كانت الكلمات الصحيحة ستتبع نظراتها. سمعت صوت غلق باب غرفة «مابيل» وركضت وراءها. كانت تتفقد أدراجها وتقول إن كل ملابسها تبدو غبية للغاية، حتى الملابس الجيدة، لكني لم أستمع لأنني كنت أفكر فيما يجب القيام به. كان لدي بنطالي الجينز الذي كنت أرتديه، لكن قميصي كان عاديًا جدًا. لذلك خلعت الثوب والتقطت المقص الذي احتفظت به «مابيل» على مكتبها وبدأت قص الفستان أسفل الخصر مباشرة. هتفت «مابيل»:

- ماذا تفعلين؟ لستِ مضطرة لتغيير ملابسك!

- سيبدو أفضل هكذا على أي حال.

ارتديت الجينز وأدخلت الأطراف المهترئة لما كان في السابق فستانًا. نظرت في المرآة وكان كلامي صحيحًا.. بدا أفضل. وعندما عدنا إلى الطابق

السفلي أثنى «خافيير» على زي «مابيل» الجديد وقبلها على جبهتها وهي تتمتم بضيق:

- تمام.

بينما قفزت «آنا» من مكانها على الأريكة وأمسكت يدي. قالت:

- تبدين جميلة.. اختيار جيد.

كنت سعيدة عندما غادرنا المنزل. ذكرنا والدا «مابيل» بأن نعود بسيارة أجرة إلى المنزل، وألا نركب مع أصدقائنا إذا كانوا ثملين، وألا نسير بالشارع إذا تعدت الساعة الحادية عشرة. رددنا عليهما بالإيجاب.

انجرفت إلى أسفل شارع «غيريرو»، فتاة مع أعز صديقاتها، التي يمكن أن تقوم ببعض الاختيارات الجيدة من وقت لآخر بعد كل شيء.

كان الكثير من الناس في منزل «بين». ملأوا البهو والمطبخ، مما جعل من الصعب سماع أي شيء يقال لنا. أشارت «مابيل» إلى المطبخ، فأومأت برأسي. لم يكن الأمر يستحق. لمحت «بين» في غرفة المعيشة، فأمسكت بيد «مابيل».

- أين «لاني»؟

سألته عندما استقر بنا الأمر على السجادة الخضراء الناعمة، نتأمل أضواء المدينة من خلال النوافذ، وقد شعرت بموجة من الحنين لكل شيء تغمرني.

في الصف السابع، أمضينا أنا و«بين» بضعة أشهر في علاقة، قبل أن ندرك أننا نستمتع بالحديث معًا أكثر. لم أكن في تلك الغرفة معه بمفردنا منذ فترة طويلة، ولكن حتى مع وجود الجميع هناك، ومع كل تلك الأصوات العالية، والطريقة التي كان يتباهى بها الحضور أمام بعضهم بعضًا، أو يزيدون من شرب الخمر أمام بعضهم ليثبتوا قوتهم، ما زلت أستطيع تذكر فترات بعد الظهيرة الهادئة التي قضيناها معًا، فقط هو وأنا والكلبة «لاني»، بعدما اكتشفنا أنه من الأفضل أن نكون مجرد أصدقاء. قال:

- أغلقت عليها في غرفة والدي، فهي تصبح عصبية عندما يوجد الكثير من الناس حولها. يمكنك أن تذهبي إليها وتُحيِّيها لو أردتِ. هل تتذكرين أين توجد الحلوى الخاصة بها؟

قلت:

- نعم.. أتذكر.

صحيح أنه قد مرت سنوات، لكن ما زال بوسعي تخيل عبوة حلوى الكلبة على رف بجوار كومة من كتب الطهو.

شققت طريقي بين مجموعات الناس المتشابكة ودخلت إلى الردهة بجوار المطبخ، وكانت هناك العبوة المعدنية، بالضبط كما كنت أتذكرها. كانت غرفة والدَي «بين» هادئة، وتذمرت «لاني» عندما دخلت.

أغلقت الباب خلفي وجلست على السجادة وأطعمتها خمس قطع من الحلوى، واحدة تلو الأخرى، بالطريقة التي اعتدنا القيام بها عندما كنت أنا «وبين» في الثالثة عشرة من عمرنا. مكثت هناك، أداعب رأسها لفترة طويلة، لأنني شعرت أنه من المميّز أن أكون في مكان غير مسموح للناس الآخرين بدخوله. عندما عدت إلى غرفة المعيشة وجلست بين «مابيل» و«بين»، كانا في خضم محادثة مع «كورتني» وعدد قليل من الأشخاص الآخرين. قال أحد الصبية:

- نحن المراهقون الوحيدون في المدينة تقريبًا.

- كل المدارس الخاصة قلقة لأنها تخسر عددًا من الطلاب كل عام.. ربما ننتقل نحن كذلك من هنا.

هكذا ردت «كورتني»، فهز «بين» رأسه هاتفًا:

- ماذاااا؟ لقد كنتِ جارتي لفترة طويلة للغاية!

- أعرف. هذا جنون. لكني أقيم بنفس الغرفة مع أخي، ولم يعد الأمر ممتعًا.. عندما كان طفلًا صغيرًا، كان الأمر محتملًا. ولكن الآن بعد أن بلغ سن البلوغ؟ ليس كثيرًا.

- أين تنوون الذهاب؟

سألتها. لطالما شعرت بسان فرانسيسكو كجزيرة، يحيط بها الخليج الشرقي رائع المنظر، بمطاعمه والحدائق والخليج الشمالي الغزير وغابته الحمراء.

كان يتم دفن موتانا جنوب المدينة، باستثناء أمي، التي عاد رمادها إلى المحيط الذي قتلها، والذي كان نفس المحيط الذي أحبته.. جنوب ذلك كانت المدن الشاطئية الصغيرة، ثم وادي السيليكون وستانفورد. لكن الناس، كل من أعرفهم، كل من عرفتهم بحياتي، كلهم يعيشون في المدينة. قالت «كورتني»:

- «كونترا كوستا».

قال «بين»:

- يع!

- على الأرجح لم تذهب هناك من قبل حتى.

- ربما كنتِ على حق.

- أيها المتكبر!

هكذا هتفت «كورتني» وهي تلكمه في ساقه، قبل أن تكمل:

- المكان جيد هناك. الكثير من الأشجار. أتمنى أن نجد منزلًا به ثلاث غرف نوم.

- لدينا ثلاث غرف نوم. لا يمكن أن يكون من الصعب العثور على مثل هذا. ربما يجدر بكم الذهاب إلى منطقة «سان سيت». هذا هو المكان الذي تعيش فيه «مارين».

- ما هو حجم البيت الذي تقيمين فيه؟

سألتني «كورتني». قلت:

- إنه منزل كبير.. أعتقد.. به ثلاث غرف نوم.

- ماذا تقصدين بقولك، أعتقد؟

- جدي يعيش في الخلف، وأنا أعيش في مقدمة المنزل. أعتقد أن هناك غرفتين في الخلف، ربما ثلاثة.

ضاقت عينا «كورتني» وهي تسألني:

- لم تذهبي للجزء الخلفي من منزلك؟

قلت:

- ليس هذا غريبًا.. لديه مكتب وغرفة نوم، لكن غرفة النوم تفتح على شيء ما، إما خزانة كبيرة، أو غرفة صغيرة. لست متأكدة مما إذا كانت غرفة نوم من الناحية الفنية أم لا.

- يجب أن تحتوي غرف النوم على خزائن وإلا فإنها لا تُعتبر غرف نوم.

هكذا أنبأتنا «إليانور»، ابنة الوكيل العقاري. قلت:

- أوه.. إذن فهي ثلاث غرف نوم. لأنها ليست بها خزانة.

اقترحت «إليانور»:

- على الأرجح هي غرفة جلوس.. الكثير من المنازل القديمة بها واحدة ملحقة بغرف النوم الرئيسية.

أومأت برأسي، لكن الحقيقة هي أنني لم أكن متأكدة على الإطلاق. لم أحظ إلا بلمحات سريعة عبر مكتبه لبضع مرات فقط، لكن هكذا كانت طريقة سير الأمور معنا. أعطيته خصوصيته وهو كذلك أعطاني خصوصيتي. لكم كانت «مابيل» ستحب هذا النظام. كانت «آنا» تنقب دائمًا في أدراجها.

لكن مع حلول الليل، بينما الناس يظهرون ويغادرون، وانخفض صوت الموسيقى بسبب الجيران، وتدفق الكحول ثم نفد، ظلت نظرة «كورتني» لي بتلك اللحظة مرتسمة في عقلي.. عيناها الضيقتان، ونبرة صوتها وهي تقول: «لم تذهبي للجزء الخلفي من منزلك؟»

كانت محقة. لم أذهب هناك ولا مرة!

كنت أتسمر فقط عند المدخل في بعض الليالي عندما يكون في غرفة المكتب، جالسًا على مكتبه، يدخن سجائره، ينفض الرماد في المنفضة

المصنوعة من الكريستال، أو يكتب رسائله على ضوء مصباح مكتبي قديم أخضر اللون.. كان الباب مغلقًا في معظم الأحيان، ولكنه كان يتركه مفتوحًا كل فترة، على الأرجح عن طريق الخطأ.

أحيانًا كنت أحييه تحية المساء بعبارة «تصبح على خير» فيردها لي من مكانه في الخلف. لكن في معظم الأوقات كنت أمر بمكتبه بهدوء، محاولة ألا أزعجه، حتى أصل إلى المنطقة المشتركة فيما بيننا التي تقود إلى غرفتي، حيث لم يذهب أحد غيري أنا و«مابيل».

- ماذا حدث؟

سألتني «مابيل» بينما نحن نقف على الرصيف، في انتظار السيارة تحت مصباح الشارع. هززت رأسي قائلة:

- «كورتني» كانت عدوانية نوعًا ما.

هززت كتفيّ مكملة:

- لا يهم الأمر.

كنت لا أزال أفكر في «جرامبس» وهو داخل مكتبه. كنت لا أزال أتساءل لماذا كنت أحاول أن أكون هادئة عندما أمر بجانب غرفته. كنت أمنحه بعض الخصوصية فقط. كان كبير السن، وقد بدأ اللون الأصفر يغزو بياض عينيه فتزداد اصفرارًا كل أسبوع، وكان يسعل كأن شيئًا ما محبوسًا داخله على وشك الخروج. قبل أسبوع رأيت بقعة حمراء على منديله عندما أنزله من فوق فمه!

كان بحاجة إلى الراحة والهدوء، بحاجة لتوفير قوته. كنت فقط أحاول أن أكون مراعية لظروفه. هذا ما كان سيفعله أي شخص. لكن لا تزال الشكوك تراودني.. تنهشني!

توقفت السيارة بجوارنا فركبنا في الخلف. أخذ السائق يتأمل «مابيل» في مرآة الرؤية الخلفية بينما هي تمليه عنوانها. ابتسم، ثم قال لها شيئًا باللغة الإسبانية، وقد بدت لهجته غزلية لدرجة أنني لم أكن بحاجة إلى ترجمة. قلبت عينيها. سألها بالإسبانية:

- المكسيك؟

- نعم.

قال:

- أما أنا فمن كولومبيا.

وهنا تدخلت قائلة بالإنجليزية:

- رواية «مائة عام من العزلة» واحدة من كتبي المفضلة.

ثم شعرت بالحرج قبل أن أنهي عبارتي حتى. كونه فقط من كولومبيا لا يعني أنه قد يهتم بهذا. عدّل المرآة ونظر إليّ لأول مرة.

- هل تحبين «غارسيا ماركيز»؟

- أحبه كثيرًا، وأنت؟

- حب؟ لا.. مبهور؟ نعم.

ثم استدار يمينًا عند جادة «فالنسيا». تسللت إلينا موجة من الضحك من بعض السائرين على الرصيف. قال السائق:

- «سين أنوس دي سوليداد/ مائة عام من العزلة».. أهي المفضلة لديكِ؟ حقًا؟

- هل من الصعب تصديق ذلك؟

- الكثير من الناس يحبون هذا الكتاب. لكنك صغيرة السن.

قالت «مابيل» شيئًا باللغة الإسبانية، فنكزتها لتفهمني معناه.. قالت:

- قلت إنك ذكية للغاية بالنسبة لسنك.

- أوه.. شكرًا.

ابتسمت لها، بينما قال السائق:

- ذكية، حسنًا.. لكن ليس هذا هو السبب الذي جعلني أسأل.

- أتقصد بسبب كل المشاهد الجنسية بها؟

سألته. أجاب:

- حسنًا.. هذا أيضًا، لكنه ليس السبب الوحيد.

كان السائق يحاول إخباري بشيء عن الكتاب الذي قرأته مرات عديدة، والذي ظللت أكتشفه وأحاول فهمه بشكل أفضل. تمنيت لو يظل يدور بالسيارة طوال الليل.

امتلأت السيارة بالحديث حول عائلة «بويندیا» العاطفية والمعذبة، ومدينة «ماكوندو» العظيمة، وعلى طريقة «غارسيا ماركيز» في نسج السحر في جمل كثيرة.

لكن السائق وضع السيارة في موقف للسيارات، ثم استدار ليراني بشكل أفضل.

- لا أقصد الصعوبة. لا أقصد الجنس. أعني أن هناك الكثير من الإخفاقات. لا يوجد أمل كافٍ بالكتاب. كل شيء عبثي. كل شيء له علاقة بالمعاناة. ما أعنيه هو ألا تكوني شخصًا يبحث عن الحزن. هناك ما يكفي من الحزن في الحياة.

ثم انتهى الأمر -ركوب السيارة والمناقشة- وترجلنا من السيارة لنجد نفسينا في حديقتها. بدا الليل أبرد فجأة، وكان صوت «كورتني» يتردد في رأسي مرارًا وتكرارًا. أردت للصوت أن يتوقف!

صعدنا الدرج إلى غرفة «مابيل» وأغلقت الباب. سألتني:

- هل كان على حق؟ هل أنتِ من نوعية الأشخاص الذين يبحثون عن الحزن؟ أم أنكِ تحبين هذا الكتاب فقط؟

قلت لها:

- لا أعرف.. لا أعتقد أنني من هذا النوع.

قالت:

- وأنا أيضًا أظن ذلك. لكنه كان شيئًا غريبًا ليقوله.

أما أنا فظننت العكس. لا بد وأنني تمكنت من منع وحش الحزن عني، واستبدلت به الحزن الموجود في الكتب. بكيت بسبب الخيال بدلًا من الواقع.

كانت الحقيقة بلا حدود تقيدها أو زخارف تجملها. لم تكن هناك بحزن الحياة لغة شعرية، ولا فراشات صفراء، ولا فيضانات ملحمية. لا توجد بها بلدة محاصرة تحت الماء أو أجيال من الرجال الذين يحملون نفس الاسم، مقدر لهم تكرار نفس الأخطاء. كان الواقع عميقًا بما يكفي لتغرق فيه.

قالت «مابيل»:

- يبدو عليكِ التشتت.

كذبت:

- أشعر ببعض الظمأ فقط.. سأحضر بعض الماء.

مشيت حافية القدمين على الدرج إلى المطبخ وأشعلت الضوء. اتجهت إلى الخزانة من أجل كوبين، واستدرت لملئهما عندما رأيت لوحة «آنا»، وقد وضعت ورقة صغيرة أمامها مكتوب فيها:

«شكرًا لكِ يا «مارين». كان هذا بالضبط ما أحتاجه».

تأملت اللوحة.. كان الساتان الأسود المتبقي من ثوبي قد صار موجات الآن في الجزء السفلي من اللوحة. كانت ليلة سوداء، بمحيط أسود هو الآخر. لكن ضوء المطبخ عكس بعض الضوء على النجوم اللامعة، واندفعت من بين الأمواج مجموعة من الصدف المرسوم باليد، بعضه أبيض وبعضه وردي اللون، من النوع الذي أحبته أمي.

حدقت إليها لفترة. شربت كوب الماء وملأته ثانية. ظللت أنظر للوحة لفترة طويلة، لكنني لم أستطع أن أفهم أي شيء مما قد يكون مقصودًا بها.

****

الفصل الثامن

صرت أفهم ما هي عاصفة نيويورك الشتوية الآن.

كنا بأمان داخل غرفتي، لكن الثلج ينهمر في الخارج -بكثافة شديدة- من السماء. كانت الأرض في سبيلها للاختفاء تحت كل هذا الهجوم الثلجي. لم يعد الطريق ظاهرًا من الأصل. صارت أغصان الشجر ثقيلة ومغطاة باللون الأبيض، وصرنا، أنا و«مابيل»، مقيدتين بالمبنى. من حسن الحظ أننا خرجنا مبكرًا، ومن حسن الحظ أننا عدنا بالوقت المناسب.. الساعة لا تزال الواحدة، ولن نذهب إلى أي مكان لفترة طويلة من الزمن. قالت «مابيل»:

- أنا متعبة.. أو ربما يكون هذا الطقس ما يجعلني أريد النوم قليلًا.

تساءلت في سري عما إذا كانت تخشى مرور بقية الساعات في هذا اليوم بملل. ربما تتمنى لو لم تأتِ مطلقًا.

أعتقد أنني سأغمض عيني أيضًا، وأحاول أن أتخلص من الشعور المؤلم الناتج عن ذلك الصوت الهامس بداخلي بأنني مضيعة لوقتها، ومالها، وجهدها.

لكن صوت الهمس يرتفع.

أنفاس «مابيل» تصبح منتظمة بينما هي تغرق في النوم، وأنا لا أزال مستيقظة، وعقلي متكدس بالكثير من الأفكار المسمومة.

أنا لم أجب على رسائلها.. لم أرد على مكالماتها، ولا حتى استمعت إلى رسائلها الصوتية.

جاءت طول الطريق إلى نيويورك لتدعوني لأقيم في المنزل معها، ولا يمكنني حتى أن أقول لها نعم.

مضيعة للوقت، لكم أنا مضيعة للوقت ولا أستحق أي نوع من الاهتمام. رقدت هكذا لمدة ساعة، حتى لم أعد أستطيع فعل ذلك أكثر من هذا.

يمكنني جعل موقفي أفضل.. نوعًا ما.. غالبًا.. يمكنني أن أحاول على الأقل.

لا يزال هناك متسع من الوقت.

عندما عدت إلى غرفتي بعد عشرين دقيقة، كنت أحمل طبقين من فطائر الكويساديلا، محمرتين تمامًا من كلا الجانبين، مغطاتين بالقشدة الحامضة والصلصة. حملت زجاجتي مياه الجريب فروت الفوارة بين مرفقي وأضلاعي. دفعت باب غرفتي لفتحه، وشعرت بالامتنان لرؤية «مابيل» مستيقظة.

كانت تجلس على سرير «هانا» وتحدق خارج النافذة. اكتسى العالم بالخارج كله بلون أبيض. لا بد وأن الجو بالخارج شديد البرودة. بمجرد أن رأتني، قفزت للمساعدة في حمل الطبقين والزجاجتين. قالت:

- لقد استيقظت وأنا أتضور جوعًا.

- المتاجر هنا لا تبيع الكريما. أتمنى أن يعجبك طعم القشدة الحامضة.

أخذت قضمة من طبقها وأومأت بإعجابها بالناتج. فتحنا زجاجتينا، ليرتفع صوت هسهسة مع تسرب الصودا منهما. حاولت تحديد الموقف بيننا في الوقت الحالي، آملة بأن تكون الأمور قد تغيرت قليلًا، ليصير موقفي أفضل. انشغلنا في التهام الطعام في صمت، لا يتخلله سوى عدة تعليقات حول الثلج بالخارج. أتساءل عما إذا كنا سنعود صديقتين كالماضي مرة أخرى. أتمنى ذلك.

عبرت «مابيل» إلى النافذة المظلمة لتنظر إلى نبتتي. قالت:

- هناك لون وردي ظهر على حواف هذه الأوراق، لم ألاحظه من قبل. دعينا نرَ كيف سيبدو في وعائك الجديد.

واتجهت «مابيل» نحو حقيبة الفخار. هتفت:

- لا تفتحيها! هناك شيء ما لكِ هناك.

- ماذا تقصدين؟ لقد رأيت كل ما اشتريتِه!

سألتني مستغربة، فابتسمت مجيبة:

- ليس كل شيء.

بدت عليها السعادة، وشعرت أنها تنظر لي كالماضي، لم يعد بنظراتها شيء من الألم، أو الإحباط، أو خيبة الأمل.. لثوانٍ شعرت بها تنظر بالطريقة التي اعتادتها. قالت:

- لدي شيء لكِ أيضًا. لكنه في المنزل، لذلك سيتعين عليكِ العودة معي للحصول عليه.

نظرت بعيدًا بتوتر. سمعتها تقول:

- «مارين»، هل هناك شيء لا أعرفه؟ هل اكتشفتِ وجود بعض أفراد الأسرة مؤخرًا؟ هل انضممتِ لمجموعة ما أو جماعة دينية أو شيء من هذا القبيل؟ لأنه على حد علمي، لم يكن لديكِ أي من هذا، وليس لديكِ أحد. وأنا أقدم لكِ شيئًا ضخمًا حقًا وجيدًا حقًا.

- أعرف. أنا آسفة.

- اعتقدت أنك تحبين والدَيّ.

- بالطبع أحبهما.

قالت وهي تلتقط هاتفها:

- انظري إلى هذا.. أمي أرسلتها لي. المفترض أن تكون مفاجأة.

أدارت الشاشة نحوي. كان اسمي مرسومًا بأحرف «آنا» الغريبة المبهجة على باب غرفة.

- غرفتي الخاصة؟

- لقد قاما بكل هذا من أجلك.

الآن فهمت لماذا هي غاضبة. المفترض أنه من السهل جدًا أن أجيب بـ «نعم».

وأنا أريد أن أفعل.

صارت جدران غرفة الضيوف الخاصة بهم مكسوة باللون الأزرق النابض بالحياة، وأما خشب الأرضية فكان باليًا تمامًا. لا داعي للقلق بشأن خدشه. أستطيع أن أتخيل نفسي هناك بشكل دائم في تلك الغرفة، أسير حافية القدمين في المطبخ لأسكب لنفسي كوبًا من القهوة أو الماء. ربما أساعدهم في صنع ولائمهم اللذيذة، وأجمع حفنات من نباتَي المريمية والزعتر من حديقة الأعشاب في الشرفة الأمامية.

استطعت أن أتخيل كيف سيبدو العيش هناك، وأعرف الأشياء التي سأفعلها، لكن لا يمكنني الشعور بها.

لا أستطيع أن أقول نعم!

لقد تمكنت من التأقلم مع الحياة هنا بالمهجع للتو. لكم هي الحياة متقلبة وهشة. أي تغيير مفاجئ يمكنه أن يمزقها فاتحًا إياها على مصراعيها.

اعتدت حمامَ السباحة، وبعض المحلات التجارية التي أذهب إليها، وهذا السكن، والمباني التي تضم فصولي الدراسية، كل هذه الأشياء آمنة -نوعًا ما- واعتدتها.. عند مغادرتي للحرم الجامعي، لا أستدير يمينًا أبدًا لأن ذلك سيقودني لطريق يجعلني أمر قريبًا جدًا من الفندق المتواضع الذي قضيت فيه بضعة أيام، وهو شيء لا أريد رؤيته مرة أخرى حتى أموت! لا أستطيع أن أتحمل ركوب طائرة إلى سان فرانسيسكو. سيكون الأمر كالذهاب إلى كومة من الأنقاض. لكن كيف يمكنني أن أبدأ في شرح ذلك لها؟ حتى الأماكن التي كنت أحبها هناك صارت مسكونة بالأفكار السوداء. فكرة صعود سلم بيتها للوصول لبابها الأمامي، أو لأستقل الحافلة 31، هذا يتركني بشعور ثقيل يرزح تحته قلبي. لا أستطيع حتى التفكير في بيتي القديم أو شاطئ المحيط دون أن أشعر بالذعر ينهشني!

قالت بصوت خافت:

- مرحبًا.. هل أنتِ بخير؟

أومأت برأسي لكنني لا أعرف ما إذا كان هذا صحيحًا.

فكرت في الصمت المخيم على بيتي القديم.. الطعام المتروك دون أن يُمس على المنضدة. الذعر الحاد من معرفة أنني وحدي. سمعتها تقول:

- أنتِ ترتجفين!

أنا بحاجة إلى السباحة. أن أغمر جسدي كله في الماء. أحتاج إلى هذا الهدوء. أغمضت عينيّ وحاولت أن أشعر بها. أن أشعر بقطرات المياه وهي تلامس جلدي بخفة.

- «مارين»؟ ماذا يحدث لكِ؟

قلت:

- أنا فقط أحاول أن...

- تحاولين ماذا؟

- هل يمكنك إخباري بشيء؟ لتشتتي انتباهي قليلًا؟ أرجوكِ؟

لا بد من أنني بدوت مثيرة للشفقة بشكل لا حد له.. هل ندمَت على مجيئها؟ هل بدأت تحسب الساعات والدقائق والثواني التي تفصلها عن موعد الرحيل؟ ربما كانت تفضل لو لم تأتِ على الإطلاق.. ربما ندمت على كل السنين التي قضتها وهي صديقتي وتمنت لو لم يتقاطع طريقانا على الإطلاق.. ربما كان من الأفضل لها لو عرفت من هي أفضل.. أكثر ذكاءً، وأسرع بديهة، وربما أخف دمًا وروحًا! لم تكن مطالبة لتحمل صديقة مخبولة مثلي.. صديقة مليئة بكل تلك التصرفات العصبية والندوب الروحية!

لكني وجدتها تبتسم، ودون أن تطلب تفسيرًا قالت:

- بالتأكيد.

- حسنًا.. احكي لي أي شيء. أخبريني عن أحد فصولك مثلًا.

- تمام. أنا أدرس تاريخ الفن.. أعتقد أنني قد أتفوق فيه. أتمنى هذا.. أحببت الفن المكسيكي حقًا، مما يجعل أمي سعيدة. مثل الفنانة «فريدا كاهلو». لوحاتها... قوية للغاية.. لوحاتها كلها تمثلها هي، لقطات مقرّبة لوجهها وكتفيها مع بعض التغييرات. في بعض الأحيان لديها حيوانات

معها، قرود، أو كلب غريب أصلع، هذا النوع من الأشياء. وبعضها لوحات أكثر بساطة. هل أنا أتصرف بشكل صحيح؟ هل أساعدك بكل هذه الثرثرة؟ أم أنني أثرت مللك؟

أومئ برأسي أن نعم.. استمري...

- لوحتي المفضلة الآن هي لوحة «اثنتين من فريدا». كما هو واضح من اسمها، هناك نسختان منها باللوحة، تجلسان بجانب بعضهما بعضًا على مقعد خشبي. واحدة منهما ترتدي فستانًا أبيض طويلًا بياقة من الدانتيل الرقيق، وترتدي الأخرى... لا أتذكر بالضبط. ملابس أقل رسمية. لكن الشيء الذي أحبه حقًا هو أنكِ تستطيعين رؤية قلبيهما. يمكنك أن تري ما بداخل صدريهما. أو ربما يكون قلباهما خارج صدريهما. إنها مروعة نوعًا ما، مثل معظم لوحاتها، لكنها أيضًا... لا أعرف كيف أصفها.. مليئة بالحكايات، وجميلة للغاية.

- أود أن أراها.

- يمكنني أن أريها لكِ إذا كنتِ تريدين ذلك. انتظري ثانية واحدة.

فتحت عينيّ. كنا في غرفتي. توقفت يداي عن الارتجاف. التقطت جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص بي من فوق مكتبي وبدأت البحث عبر الإنترنت. جلست بجانبي ووضعت الشاشة بيننا.

كانت اللوحة كما وصفتها هي، ولكن هناك المزيد من التفاصيل أيضًا. خلف نسختي «فريدا» كانت هناك غيوم عاصفة، رمادية وزرقاء وبيضاء. قلت:

- لا أستطيع أن أحدد إذا كانت العاصفة قادمة أو ما إذا كانت قد مرت وتركتهما بالفعل.

قالت:

- أو ربما يكونان في منتصفها.. أي أن العاصفة كانت تهب عليهما لحظة رسم اللوحة.. لاحظي شكلَ قلبيهما.

كان القلبان متصلين بخط أحمر رفيع، الوريد. كان يضخ الدم نحو «فريدا» ذات الثوب الأبيض، والتي كانت تحمل مقصًا.. أشرت إلى قلبها قائلة:

- نحن ننظر داخل صدرها لنراه.. وتبدو متألمة.. لكن الأخرى...

أشرت للأخرى.

- أظن قلبها خارج جسدها. لا يزال كاملًا.

قالت «مابيل»:

- أنتِ على حق.

بينما النسخة التي ترتدي الفستان الأبيض تمسك مقصًا، فإن النسخة الأخرى كانت تمسك شيئًا آخر.

- ماذا تحمل؟

- إنها صورة صغيرة لزوجها السابق المدعو «دييجو ريفيرا».. لقد رسمت هذه اللوحة أثناء طلاقهما.

قلت لها:

- إذن فإن اللوحة تحكي عن فقدانه.

ردت «مابيل»:

- نعم، أعتقد.. هذا ما يقوله مدرسي على الأقل. لكن ألا يجعل ذلك الأمر بسيطًا للغاية وشديد المباشرة؟

أدرت رأسي لأنظر إلى «مابيل». قلت:

- هل من الأفضل أن يكون الأمر معقدًا؟

ضحكت.

- يبدو هذا.. كل شيء بهذه الحياة معقد فيما يبدو.

ألقيت نظرة أخرى على الشاشة.

- ربما يكون الأمر حقًا بسيطًا كما يبدو. كانت شخصًا واحدًا من قبل.. كان لها قلب كامل، ومعها الرجل الذي أحبته. كانت سعيدة. ثم حدث شيء غيّرها. والآن هي مجروحة. أظن أنني أعرف كيف تشعر هي.

قالت «مابيل» بعد لحظة من الصمت:

- أكثر ما أحبه في هذا الموضوع هو كيف تمسكان بأيديهما في وسط اللوحة بالضبط. هذا مهم جدًا. هذا هو ما يدور حوله الأمر برمته، على ما أعتقد.

- يمكن أن يعني الكثير من الأشياء المختلفة.

- مثل ماذا؟ أعتقد فقط أن اللوحة تعني أن نسختي «فريدا» المختلفتين لا تزالان متصلتين. على الرغم من أنها تغيرت، فإنها لا تزال نفس الشخص.

قلت:

- نعم، قد يعني ذلك.. ولكن يمكن أن يكون كذلك شيئًا آخر. مثل أن النسخة الكاملة تحاول سحب النسخة المجروحة نحوها، كما لو أنها تستطيع إلغاء مفعول ما حدث. أو أن النسخة المجروحة تقود نفسها القديمة إلى حياة جديدة. أو يمكن أن يكون المعنى هو أن الاثنتين قد انفصلتا بالكامل تقريبًا عن بعضهما بعضًا، وتمسكان بأيديهما كلحظة اتصال أخيرة قبل أن تنفصلا تمامًا.

أخذت «مابيل» تحدق إلى اللوحة.

- ولماذا غيرتِ تخصصك إذن ما دمتِ ناقدة فنية بتلك الخبرة؟

سألتني ضاحكة، فقلت:

- تقصدين لأنه سيكون من الأفضل إذا كان إمساك الأيدي يعني أنهما متصلتان فقط، ولم يكن علينا التفكير في كل تلك الاحتمالات الأخرى؟

قالت:

- نوعًا ما.. جعلتِني أدرك أن هناك العديد من الطرق لترى شيئًا واحدًا. لقد صرت أحب هذه اللوحة أكثر الآن.

****

الفصل التاسع

انقطع التيار الكهربائي. قررنا أنه لا يجب أن نقلق لأنه، على الرغم من أن الجو بارد ويزداد برودة بالداخل، فإن لدينا سترات وبطانيات. إذا احتاج الأمر، فيمكننا استخدام الأقفال والبحث عن الشموع. أما في الوقت الحالي، فلدينا القليل من الشموع الصغيرة من درج «هانا».

لا يزال هناك بعض الشحن المتبقي في هاتفينا المحمولين، لكننا نستخدمهما عمومًا بشكل مقتصد، ولا توجد شبكة واي فاي على أي حال.

- أتذكرين عندما انقطع التيار الكهربائي في السنة الثانية؟

سألتني «مابيل».

- جعلتك تسمعينني أقرأ طوال الليل.

- «سيلفيا بلاث» و«آن سيكستون».

- فعلًا.. كانت تلك قصائد كئيبة للغاية.

- نعم، لكنها كانت ممتعة أيضًا.

قلت:

- لقد كانت جريئة ومليئة بالتحدي. أتذكر كيف جعلتني الكلمات أشعر بأنني خطيرة وقوية.. «سيدة لعازر» و«بابا» وكل حكايات «آن سيكستون» المعاد تصورها.

- في حصة الأدب الخاصة بي، استمعنا إلى تسجيل لـ «سيلفيا بلاث».. لم يكن صوتها كما تصورت أنه سيبدو.

أعرف تلك التسجيلات. اعتدت أن أستمع إليها عبر الإنترنت في بعض الأحيان في وقت متأخر من الليل. كل كلمة قالتها كانت كخنجر يُغمد داخل روحي. سألتها:

- لماذا؟ كيف تصورتِ أن صوتها سيبدو؟

هزت كتفيها.

- مثل صوتك، على ما أعتقد.

خيم علينا الصمت. كلما زادت برودة الجو من حولنا، زادت صعوبة التغلب على الشعور بالقلق. ماذا لو لم نتمكن من غلق الأقفال؟ ماذا لو لم تعد الكهرباء لأيام؟ ماذا لو تجمدنا من البرد أثناء النوم ولم نستيقظ في الوقت المناسب لإنقاذ نفسينا؟ هل سيسود اللون الأسود ليغمر كل شيء ثم نستيقظ لنجد أنفسنا في الجهة الأخرى من الحياة؟ هل سأرى ماما مرة أخرى؟ أم أنها ستفضل لو لم ترنِي ثانية؟ هل كرهتني بسبب كيف تصرفت بعد وفاة «جرامبس»؟ هل كرهتني بسبب الحطام الذي صرت عليه؟ ربما كانت لتفضل لو أنها أسقطت حملي وأراحت العالم مني من الأساس.

قلت:

- ربما ينبغي أن نغلق هاتفينا. في حالة احتجناهما لاحقًا.

أومأت «مابيل» برأسها إيجابًا. نظرت إلى هاتفها، وتساءلت في داخلي عما إذا كانت تفكر في الاتصال بـ «جاكوب» قبل أن تغلقه. ألقى ضوء الشاشة غلالة على وجهها، لكن لم يمكنني قراءة التعبير المرتسم عليه. ثم ضغطت على زر، وسرعان ما غاب وجهها وسط الظلام مرة أخرى. عبرت الغرفة للبحث عن هاتفي. لا أبقيه قريبًا مني طوال الوقت مثلها أو مثلما كنت أنا بالماضي، فأنا لم أعد أتلقى الكثير من الرسائل النصية أو المكالمات الهاتفية. وجدته بجانب حقيبة الفخار التي جلبتها من عند «كلوديا».. التقطته، لكن قبل أن أقوم بإغلاقه، وجدته يصدر صوتًا، فأجفلت.

- من هذا؟

سألت «مابيل»، فأجبت:

- لا أعرف.. رمز المنطقة يدل على أنه من هنا.

- أظن أنه ينبغي عليكِ الرد.

- آلو؟

سمعت صوت رجل:

- لا أعرف لكم من الوقت تخططين للبقاء بالمهجع. لكني أتصور أن الجو سيصير شديد البرودة بدرجة غير محتملة خلال ساعات.. ويبدو الظلام شديدًا.

اتجهت إلى النافذة. كان الحارس يقف وسط الثلج بالخارج. بالكاد استطعت رؤيته، لكن لحسن الحظ أنه أضاء المصابيح الأمامية لشاحنته. همست:

- «مابيل».

رفعت عينيها عن هاتفها، وسرعان ما انضمت إليّ عند النافذة. التقطت إحدى الشموع الصغيرة ولوحت بها أمام النافذة، كانت تحية خافتة لست متأكدة مما إذا كان قد رآها من الأصل.

رأيته يرفع يده ملوحًا.

- الكهرباء مقطوعة عندك كذلك، أليس كذلك؟

سألته، فرد:

- بلى، لكني لا أعيش في مهجع سيئ التدفئة مثلكما.

نفخنا في الشموع لنطفئها، ثم انتعلنا أحذيتنا، وتناولنا فرشتَي الأسنان الخاصتين بنا. ثم خرجنا في البرد الشديد، تاركتين مسارات آثار أقدامنا وسط الثلج من مدخل المهجع إلى حيث كان محرك شاحنته دائرًا.

بدا أصغر سنًا من قرب.. ليس صغيرًا جدًا، ولكن ليس عجوزًا أيضًا. قال:

- أنا «تومي».

ثم أخرج يده فصافحته.. قلت:

- وأنا «مارين».

- «مابيل».

- حسنًا.. أنتما محظوظتان يا «مارين» ويا «مابيل»، لأن هناك مدفأة في غرفة معيشتي، وأيضًا أريكة من النوع الذي يتم طيُه.

على الرغم من أنني كنت سعيدة لسماع ذلك، فإن مدى حاجتنا له لم تخطر ببالي إلا بعد أن انتقلنا إلى كوخه الصغير المنعزل.

كنت أشعر بالبرد الشديد لدرجة أنني نسيت تقريبًا ما هو شعور الدفء..

كانت النيران تقرقع داخل المدفأة، ملقية غلالة من الضوء الذهبي فوق السقف والجدران.

- لقد أشعلت الموقد أيضًا. هذا الموقد القديم يمكنه أن ينشر سخونة لا بأس بها عبر المنزل بمفرده.. فقط احرصا على عدم لمسه لأن من تفعل ستندم للغاية، فهو ساخن جدًا.

كانت جميع الجدران مكسوة بألواح خشبية، وقد بدا كل شيء باليًا وناعمًا. السجاد والأرائك والكراسي المحشوة، كلها وُضِعَت فوقها البطانيات.

لم يعرض علينا أن يرينا المكان، لكنه كان بيتًا صغيرًا وأمكننا أن نرى معظمه من حيث نقف، وقد انتظرنا منه ليُعرِفنا ما إذا كنا سنقضي المساء نتبادل الحديث، أو إذا كان سيقول ليلة سعيدة ويتراجع إلى الباب في نهاية الرواق القصير. قال «تومي»:

- إنها السادسة والنصف فقط.. أفترض أنكما لم تأكلا بعد، أليس كذلك؟

- تناولنا بعض الطعام قبل بضع ساعات. لكن لم نتناول العشاء بعد.

- أنا لا أتناول عشاءً عادة، لكن لدي بعض المعكرونة وبرطمان من الصلصة.

ثم إنه أرانا كيفية إضاءة موقده القديم بعود ثقاب، وملأ وعاءً فضيًا ثقيلًا بالماء. كان يُبقي السباجيتي في علبتها؛ لم يكن هناك الكثير منها بالداخل.

- كما قلت، أنا لا أتناول عشاءً عادة. آمل أن تكون هذه كمية كافية لكما.

لم أستطع تحديد ما إذا كان يكذب أم لا. لعنت غبائي لأنه كان من المفترض أن أتذكر أخذ بعض الطعام الموجود في ثلاجة المهجع قبل مغادرتنا، لكني لست مستعدة للخروج في الثلج والظلام، والمشي كل تلك المسافة مرة أخرى.. سألته «مابيل»:

- هل أنت متأكد؟ يمكننا أن نجعلها تكفينا كلنا، فنحن لسنا بحاجة إلى كمية ضخمة.

- لا، لا، أنا متأكد.

ألقى نظرة على العلبة مرة أخرى، وقطب حاجبيه، ثم فتح الثلاجة.

- رائع.. الجائزة الكبرى!

قالها وهو يسحب كيسًا من الفطائر المجمدة. قلت:

- لحسن الحظ أن الموقد ساخن بالفعل.

- هذا هو قدرنا.. سأتناول بعض الفطائر وبعض شرائح الجبن. وأنتما ستتناولان المعكرونة وبقية الفطائر مع أي شيء آخر يروق لكما.

ثم إنه فتح الثلاجة حتى نتمكن من إلقاء نظرة. لم يكن هناك الكثير بداخلها، لكنها كانت نظيفة ومرتبة بدقة.

- يبدو هذا رائعًا.

هكذا ردت عليه «مابيل»، لكني أومأت برأسي فقط. هذه هي المرة الأولى التي أدخل فيها منزلًا منذ مغادرة منزلنا، وبينما عيناي تتكيفان مع الظلام، كان كل شيء جديد ألاحظه يملؤني دهشة.

كان هناك عدد قليل من الأطباق في الحوض، وخفان مستلقيان بجوار الباب. أما الثلاجة فقد عُلِقَت فوقها ثلاث صور؛ صبي صغير بواحدة، و«تومي» مع بعض الأصدقاء بالثانية، ورجل في زي عسكري بالثالثة. تناثرت الكتب فوق طاولة القهوة جنبًا إلى جنب مع جهازي تحكم في لعبة فيديو. لا شيء في الثلاجة موضوع عليه بطاقة تشير لاسم صاحبه. كل شيء هنا ملكه وحده.

كانت هناك بطانية ذات لون هو مزيج من الأزرق والذهبي موضوعة على كرسي «جرامبس» في غرفة المعيشة طوال حياتي. قضيت الكثير من ساعات الشتاء تحتها، أقرأ كتبي، أو أغرق في النوم. صحيح أنها كانت بالية في بعض

الأجزاء، لدرجة أن خيوطها برزت في بعض الأماكن، لكنها كانت لا تزال تجلب لي الدفء.

لا أعرف أين هي الآن.

لكم أريدها.

سمعت «تومي» يقول:

- «مارين»، كنت بحاجة إلى الوصول إليكِ بأي طريقة. أنا خارج من منطقة المهجع في يوم عيد الميلاد، ومن المرجح أن أمضي الليل بعيدًا. سأكون مع بعض الأصدقاء في مدينة «بيكون». اتصلي بي إذا حدث أي شيء، وها هي أرقام الشرطة وقوات الإطفاء. اتصلي بهذه الأرقام المباشرة، وليس الخط الساخن.

- حسنا. شكرًا لك.

هكذا أجبته.

أتمنى أن أسأل «مابيل» عما إذا كانت تعرف ما حدث لجميع أشيائنا. هل تمكن أي شخص من إنقاذ أي شيء؟ هل تساءلوا أين كنت؟ هل قلقوا عليّ؟ افتقدوني؟ أم استراحوا لخروجي من حياتهم بلا رجعة!

انتظر كلٌ من «آنا» و«خافيير» ظهوري في مركز الشرطة.. أين ذهبا بعد ذلك، بعدما اكتشفا أنني اختفيت؟

لا أقدر حتى على تخيل النظرة التي ارتسمت على وجهيهما وقتها.. لماذا لا أقول نعم ببساطة على عرضهما؟ لماذا لا أستقل الطائرة إلى منزلهما وأعتذر عن اختفائي السابق وأطلب مغفرتهما، وأخلد للنوم في السرير الذي صنعاه لي في الغرفة التي علقا اسمي على بابها؟

أتمنى لو استطعت التراجع عن ذلك القرار الذي اتخذته في مركز الشرطة!

أتمنى لو لم أهرب يومها من الباب الخلفي. لم يكن الأسبوعان اللذان قضيتهما بذلك الفندق الحقير ليحدثا مطلقًا، ولم تكن فكرة تناول بعض القهوة بالحانة لتثير ضيقي وتقبض أنفاسي.

وضع «تومي» الفطائر المجمدة في الفرن، ثم أوقد لهب الموقد بعود ثقاب قائلًا:

- من حسن الحظ أنه يعمل بالغاز.

أومأت «مابيل» برأسها أن نعم، وأنا أيضًا. لكني لست جائعة. قلت:

- ما زلت أشعر بالبرد حقًا لسببٍ ما.. سأجلس بجانب المدفأة.

- كوني على راحتك. بمجرد نضج تلك الفطائر، سأتجه إلى الخلف، وأنتما الاثنتان اعتبرا نفسيكما في منزلكما. كان لدي بعض الهدايا لأقوم بلفها، وكنت أتحين عذرًا للذهاب إلى الفراش مبكرًا. انقطاع التيار الكهربائي عذر كافٍ.

استرخيت في ثنايا كرسي بذراعين وأخذت أنظر إلى النار، وأتذكر كل تلك الأشياء التي اعتدت أن تكون بمنزلي؛ بطانية، وأوعية من النحاس، ورثها «جرامبس» عن والدته، وطاولة المطبخ المستديرة، وطاولة الطعام المستطيلة.. الكراسي ذات الوسائد القماشية الناعمة والظهر المصنوع من الخوص. تذكرت طاقم الصيني الخاص بجدتي، المغطى بنقوش الزهور الحمراء الصغيرة. الأقداح غير المتطابقة، وفناجين الشاي الرقيقة، وملاعقها الصغيرة. الساعة الخشبية ذات صوت الرنين الصاخب واللوحة الزيتية التي تمثل القرية التي وُلِدَ بها «جرامبس».

الصور الفوتوغرافية الملونة يدويًا المعلقة في الرواق، والوسائد المطرزة على الأريكة، وقائمة البقالة المتغيرة باستمرار، والمعلقة فوق باب الثلاجة تحت مغناطيس على شكل كلب.

ثم البطانية، مرة أخرى، ذات اللونين الأزرق والذهبي.. لكم كانت ناعمة.

والآن قام «توني» بإلقاء تحية المساء ومشى عبر الردهة، بينما «مابيل» في غرفة المعيشة معي، تضع طبقين صغيرين من المعكرونة على طاولة القهوة، قبل أن تجلس على الأرض. التهمت الطعام لكن دون تذوق أي شيء. كنت آكل على الرغم من أنني لم أعرف ما إذا كنت جائعة حقًا.

****

الفصل العاشر

يونيو

كان قد مر أسبوعان منذ الليلة التي قضيناها بمنزل «بين»، ولقائنا بالسائق الكولومبي، وكنت قد قررت أنا و«مابيل» الخروج على مسؤوليتنا. كان «آنا» و«خافيير» دائمًا يسهران حتى وقت متأخر، أحيانًا حتى ساعات الصباح الباكر، لذلك غبت في النوم بعد العاشرة بقليل، عارفة أن هاتفي سيصدر رنينًا بعد ساعات لإعلان وصولها، ووقتها سأتسلل خارجة.

كان «جرامبس» يطهو العشاء في الساعة السادسة معظم الليالي. اعتدنا تناول الطعام في المطبخ، ما لم يصنع شيئًا فاخرًا، وفي هذه الحالة كان يطلب مني إعداد طاولة غرفة الطعام، فنأكل في وجود شمعدانات نحاسية لامعة بيننا. بعد العشاء يقوم بغسل الصحون، بينما أتولى أنا تجفيفها، حتى يصبح المطبخ نظيفًا لأقصى درجة ممكنة، مع الوضع في الاعتبار عمره، واستخدامه المستمر، ثم يقوم «جرامبس» بالعودة إلى غرفته الخلفية لتدخين السجائر وكتابة الرسائل والقراءة.

رن هاتفي مرة، فغادرت بهدوء، دون أن أعرف ما إذا كنت أخالف القاعدة. من الممكن ألا يكون لدى «جرامبس» اعتراض على ذهابي مع «مابيل» إلى الشاطئ ليلًا، للجلوس ومشاهدة الأمواج والتحدث. كان بإمكاني أن أسأله، لكن لم تسر الأمور بيننا بهذه الطريقة.

كانت «مابيل» على الرصيف، وقد تدلى شعرها من أسفل قبعة قماشية داكنة اللون، بينما انقبضت يداها داخل قفاز دون أصابع. كنت أرتدي سترة من الفراء فوق سترتي العادية. قالت:

- تبدين مثل الإسكيمو.

ضحكنا.

- لم لا تصعدين إلى الطابق العلوي، وتتخلصين من تلك السترة الثقيلة، وتحضرين معك بعضًا من الويسكي الخاص بـ «جرامبس».

- في الواقع، لا يبدو الويسكي فكرة سيئة.

تسللت عائدة للمنزل، واتجهت نحو غرفة المعيشة، وانسللت من خلال الباب المفتوح إلى غرفة الطعام، وسحبت بهدوء زجاجة الويسكي الموجودة داخل دولاب خشبي صغير.. عدت بعد هذا إلى الشارع، وقد أخفيت الزجاجة تحت سترتي.

- فتاتان تمشيان إلى الشاطئ وحدهما ليلًا شيء، ولكن مع زجاجة خمر مفتوحة وظاهرة شيء آخر، كأننا ندعو رجال الشرطة لإيقافنا.

كانت الساعة حوالي الثالثة صباحًا والمدينة ساكنة. لم تمر بنا سيارة واحدة طيلة طريقنا إلى الشاطئ. لم يكن علينا الاهتمام بنقطة العبور من المناطق المخصصة للمشاة. خطونا مباشرة من الشارع إلى الرمال، وتسلقنا كثيبًا رمليًّا، ثم وجدنا نفسينا بالقرب من حافة المياه السوداء. كنت أنتظر تكيف عيني مع الظلام، لكن ذلك لم يحدث. لذلك تأقلمت مع هذا.

- لو أن «جرامبس» رآنا الآن لألقانا بالمياه.

قالتها «مابيل» وهي تفتح غطاء زجاجة الويسكي. قلت ضاحكة:

- ليس لتلك الدرجة.. هو ولي أمر متفتح بعد كل شيء.. لا أعرف كيف سيكون رد فعله، لكنه سيكون أخف من رد فعل والدك بالتأكيد.

ثم أخذت رشفة منها، وشعرت بها تسيل حارقة في حلقي فأجفلت.. كنا معتادتين شُربَ بعض البيرة أو الفودكا ممزوجةً بأي عصير موجود لدى أصدقائنا. ناولتها الزجاجة محذرة:

- هاك، اشربي، لكن على مسؤوليتك الخاصة.

أخذت «مابيل» رشفة، ثم سعلت. هتفت:

- لقد حذرتك يا بلهاء.

مسحت فمها بكف يدها وهي تقول:

- لا بأس، طعمها قوي نوعًا ما فقط.

ثم أخذَت رشفة أخرى مكملة:

- طعمها هذه المرة أفضل.. كأن الرشفة الأولى كانت تمهد الطريق فقط لهذا كانت حارقة.

تناولت الزجاجة منها وأخذت رشفة.. كانت محقة.. لم تحرقني هذه المرة.. شعرت بالسائل الدافئ ينساب داخلي حتى وصل لأعماقي.. ومع كل رشفة لاحقة أصبح ابتلاعها أسهل فأسهل، وسرعان ما شعرت بجسمي ثقيلًا ورأسي يسبح وسط الغيوم.

ناولتها الزجاجة وفردت ظهري على الرمال، وأخذت أتأمل سجادة السماء السوداء بالأعلى، سبحت فيها كوكبة من النجوم اللامعة، كأنها قطيع من السمك يسبح بالبحر.. وتذكرت لوحة «آنا».. شعرت بنفسي أرقد داخل اللوحة نفسها، أشعر برمال الشاطئ الداكنة أسفل ظهري، والمياه السوداء التي تشكلت من فستاني السابق تأتي بين الحين والآخر لتداعب أطراف قدمي.

وأظلم كل شيء لبعض الوقت.

أفقت على يد «مابيل» وهي توقظني، لتخبرني أنني غفوت بمكاني لبضع دقائق.

اعتدلت متأملة المكان من حولي، واحتجت للحظات لأستوعب مكاني.. لماذا لست بغرفة نومي؟

ثم بدأت أتذكر ما فعلناه في هيئة مشاهد منفصلة.. اختلاسي زجاجة الويسكي.. تسللي عبر الباب.. صوت غطيط «جرامبس» بغرفة نومه.. إلقائي

معطفي الثقيل قبل الخروج.. إغلاقي لباب المنزل بهدوء حتى لا يُحدِث صوتًا يوقظه.. سيرنا على الرمال.

تأملت السماء، لأجد أن سواد الليلة السابقة بدأ ينسحب خجلًا، مفسحًا المجال لأول أشعة من ضياء الشمس لتغزو السماء مبددة سوادها الداكن.. ومع هذا الضياء بدأ يظهر أوائل مرتادي الشاطئ.

من دون الظلام شعرنا بنفسينا مكشوفتين، وقد بدأ بعض الناس بالفعل في غزو الشوارع متجهين إلى أعمالهم. قفلنا عائدتين.

انتظرنا حتى تغير ضوء إشارة المرور وعبرنا الطريق السريع الواسع.

كنت واعية كيف أن نبرة صوتينا أعلى قليلًا من المعتاد ونحن نتحدث، وكانت كلماتنا متسارعة.

رآنا «جرامبس» قبل أن أراه مباشرة. كان يلوح لنا من الجانب الآخر من الشارع بذراع، ويسحب صفيحة القمامة إلى الرصيف بذراعه الأخرى.

- مرحبًا يا فتاتان!

هكذا هتف وهو قادم نحونا. لم نعرف ماذا نقول بينما نحن الاثنتان نسير نحوه.

- صباح الخير يا «جرامبس».

تمكنت من نطقها أخيرًا، ولكن بحلول ذلك الوقت كان التعبير المرتسم على وجهه قد تغير.

- الويسكي الخاص بي!

تابعت نظرته. لم أكن أدرك حتى إن «مابيل» كانت تحمل الزجاجة هكذا، من عنقها، مكشوفة تمامًا. كان بإمكانه أن يرى كيف أن كلتينا لا تستطيع أن ننظر في عينيه.. أخذ ينظر إلى الزجاجة بصمت، كمن ينتظر رد فعلنا. قلت:

- آسفة يا «جرامبس». لقد أخذنا رشفات قليلة فقط.

حاولت «مابيل» المزاح:

- نحن من ذوات الرأس الخفيف.. لسنا من معتادي الشراب.

ولكن صوتها بدا مثقلًا بالحزن والندم. مد يده نحوها وسلمته الزجاجة. رفعها أمام عينيه لإلقاء نظرة فاحصة على المقدار المتبقي بالداخل. قال:

- لا بأس.. لقد كانت كمية قليلة فقط.

قالت «مابيل»:

- أنا آسفة حقًا.

تمنيت لو تعتم السماء لنصبح وسط الظلام مرة أخرى فأختفي من أمامه.. قال «جرامبس»:

- يجب أن يكون المرء حذرًا مع هذه الأشياء.. والأفضل عدم استعمالها على الإطلاق.

أومأت برأسي، بينما قالت «مابيل» فجأة:

- يجب أن أعود إلى المنزل.

قال لها «جرامبس»:

- أتمنى لكِ يومًا سعيدًا في المدرسة.

- شكرًا.

كانت تقف على الرصيف مرتدية بنطال جينز ممزقًا وسترة، وقد سقط شعرها الداكن على جانب واحد، واصلًا لمرفقها، جبينها مقطب، وعيناها حزينتان للغاية، حتى نظرت نحوي، فابتسمت. قلت:

- أتمنى ألا تقعي في مشكلة..

هل سيخبر «جرامبس» والديها أننا كنا نحتسي الخمر ليلًا معًا على البحر؟ هل سيشك أننا جلبنا صبيانًا أو تمادينا بأي شكل مع أحد؟

****

الفصل الحادي عشر

تدلى من فوقي رأس وعنق غزال.. لا، أعتقد أنه أيل.

ألقت قرونه بظلال طويلة ورشيقة على طول الجدار. تخيلته حيًا في حقل في مكان ما. فكرت في الربيع والعشب والزهور، وبصمات الحوافر وحركة جسده، وكيف كان يبدو وهو مليءٌ بالحياة، غير عارف أنه سينتهي به الأمر كرأس محنط معلق على جدار ما، ورفاته تحول لتراب أو براز منذ سنين على الأرجح.

ولكن الآن ليس هناك سوى السكون وقطرات الشمع الذائبة والهدوء.

ليس هناك سوى أشباح من اعتدنا أن نكون. هناك أصوات «مابيل» وهي تضع أطباق العشاء في حوض مطبخ «تومي»، والإرهاق الذي يصاحب معرفة أن شيئًا ما يجب أن يحدث، ثم شيء آخر، وهكذا إلى ما لا نهاية.. لم لا يوجد بالحياة خيار أن تضغط ببساطة زرًّا ما فيتوقف كل شيء حتى تعود داخلك الرغبة للاستمرار من جديد؟

لم نتحدث عن موضوع النوم بعد.

فوق الأريكة اصطفت مجموعة من الملاءات والبطانيات، تذكيرًا لنا بالمساحة الضيقة التي من المفترض أن نتشاركها. ربما سنبقى مستيقظتين طوال الليل. أو ننام بالتناوب، لأن المكان لن يكفينا معًا.

عادت «مابيل» من المطبخ. اتجهت نحو رف الكتب والتقطت مجموعة من بطاقات الكوتشينة.

استدارت نحوي، وأومأت برأسي.

قامت بتفنيط البطاقات، ثم سلمتني عشرًا منها، وسحبت عشرًا لنفسها، ثم كشفت بطاقة منها.. ملكة البستوني. لا أصدق أنني لم أشتر مجموعة كوتشينة لنلعب بها. كان هذا سيصبح الحل المثالي على سؤال ما يجب القيام به لتمضية الوقت.

لن نضطر إلى إجبار نفسينا على النوم لتجاهل الحاجة إلى تبادل الحديث.

أنهيت الجولة الأولى بفارق اثنتي عشرة نقطة، ونهضت «مابيل» لتجلب لنا قلمًا وورقة. عادت بعد لحظات بقلم وبطاقة بريدية لعيد الميلاد مغطاة بالأشجار.

كان مكتوبًا عليها: «لا شيء يضاهي رائحة الصنوبر الطازج!»، وأسفل الجملة كانت هناك صورة لبعض أشجار التنوب.. كتبت «مابيل» اسمينا، وأسفلهما كتبت النتيجة.

كانت نتائجنا متقاربة، مما يعني أنها ستأخذ وقتًا طويلًا، وبحلول الدور الأخير صارت رؤيتي ضبابية من التعب وإجهاد الرؤية في الظلام.

ظلت «مابيل» تنسى من فينا التي كان دورها لتلعب، لكنها في النهاية كانت من فازت باللعبة. هنأتها:

- عمل جيد.

ابتسمت مجيبة:

- سأستعد للنوم.

طوال الوقت الذي غابت فيه لم أتحرك. ربما أرادت مني إخراج السرير، لكني لن أفعل ذلك. ليس قبل أن تأتي فنعرف من ستنام بأي مكان بالضبط.

عادت بعد بضع دقائق. قالت:

- احترسي، فبعض الشموع ذابت عن آخرها. المكان مظلم للغاية بالخلف.

- حسنًا.. شكرًا.

انتظرت منها أن تفعل أو تقول شيئًا. بالنهاية سألتها:

- أين تنوين أن تنامي إذن؟

- وهل لدينا خيار؟ سنضطر لتشارك هذا الفراش.

قالتها وهي تهز كتفيها ببساطة.. أخذت الوسائد من الأريكة، وقامت «مابيل» بتحريك طاولة القهوة إلى جانب الغرفة لتصبح هناك مساحة أكبر لفرد السرير.

وجدنا مقابض على كل جانب من السرير وسحبناها. تصاعد صرير الزنبرك المعدني، بينما انفردت المرتبة أمامنا.. فردنا الملاءة ووضعناها معًا، وحشرناها عند الجوانب لأن المرتبة بدت رفيعة جدًا.. قالت «مابيل» وهي تلتقط غطاء وسادة:

- يمكنني أن أقوم بالباقي.. اذهبي واغتسلي.

ومثل «جين آير»، حملت شمعة لتضيء طريقي. لكن عندما وصلت إلى الحمام ونظرت في المرآة، كل ما رأيته فيها كان نفسي فقط. رغم الظلام والظلال الطويلة والهدوء، كانت هذه الغرفة خالية من مخاوفي وأشباحي. نثرت بعض المياه على وجهي فشعرت بها باردة للغاية، ثم جففتها بمنشفة تركها «تومي» لنا. قمت بغسل أسناني، وتبولت، وغسلت يدي، وعقصت شعري داخل شريط مطاطي أحضرته معي.

فكرت في «جين آير» وكم كانت تشعر بالوحدة مثلي.

هل تمنت مثلي لو لم توجد قط؟ هل هناك أجزاء لم تروِها «إيميلي برونتي» لكن المفترض أن ندركها بمفردنا من بين السطور؟ ليس كل شيء مباشرًا واضحًا بالحياة، ومثله بالأدب والفن، فلا تقدم الإجابات دومًا بشكل مباشر على طبق من فضة، ولكن تترك بعض الإجابات والأشياء لتدركها بمفردك.. بالضبط مثل لوحة «اثنتين من فريدا».

أخذت الشمعة وعدت إلى غرفة المعيشة.

كانت «مابيل» قد رقدت بالفعل في السرير، وقد أغمضت عينيها وتصاعد صوت تنفسها المنتظم.. تسلقت الجانب الآخر محاولة أن أكون هادئة بقدر الإمكان.. تأوهت الزنبركات المعدنية. سمعت صوتها وهي تتقلب وتهمس:

- ليلة سعيدة.

- ليلة سعيدة.

همست أرد عليها، قبل أن أسحب الغطاء الثقيل فوقي لنعطي ظهرنا لبعضنا بعضًا.. تحرر وحش التعب المتراكم طيلة اليوم من عرينه و...

- هل تعرفتِ بأحدٍ هنا؟

قاطع صوت «مابيل» غلالة النوم التي كانت قد بدأت تفرض سيطرتها عليّ.

- تقصدين صبيًّا؟

- لا، أقصد كائنًا فضائيًّا.. بالطبع أقصد صبيًّا يا حمقاء!

وهنا تذكرت إحدى رسائلها التي كانت تقطر ألمًا:

«هل تعرفتِ بشاب؟ وهو من جعلك تتوقفين عن الرد عليَّ؟ فقط أجيبي بنعم ولن أزعجك ثانية.. أحتاج أن أعرف بحق السماء!»

للأسف لم تكن الإجابة بتلك البساطة.. تعرفت بفتى نعم.. لكنه لم يكن السبب في ابتعادي.. لم تدم علاقتنا -تسميتها علاقة يعتبر مبالغة أصلًا- إلا لأسبوع.. بعدها توقف عن الرد على رسائلي، وكلما صادفني بالشارع كان يتظاهر بعدم رؤيتي، مما أوصل رسالته كاملة وافية.

«هل تعرفتِ بأحد هنا؟»

ظل السؤال معلقًا بهواء الغرفة، ويكاد يخنقني!

في البداية كانت رسائلها كسكاكين تحفر ثقوبًا في روحي.

ربما أنا لست جيدة كفاية ليتحملني أكثر من أسبوع؟ أو المرعب أكثر: ربما تعرف بمن هي أفضل، أكثر جمالًا، ذكاءً، أو أخف دمًا!

انزلقت ببطء داخل شرنقة أثناء إقامتي بذلك الفندق، وكانت رسائل «مابيل» كطرقات طرقات تحاول اختراق الشرنقة التي صنعتها من حولي.. شرنقة تتكون من تفاصيل حياتي الجديدة المثيرة للشفقة.. أيام طويلة داخل غرفتي القذرة أتأمل الجدار، أو أتناول العشاء المليء بالشحوم والقهوة الرديئة، أو أتأمل الشارع عبر نافذتي.

لكن بعد أن بدأت الكلية، وبعد أن تعرفت إلى «هانا»، صرت فتاة أخرى بهاتف مستعمل، لا ترد على أي اتصالات تأتيها من معارفها السابقين، حتى لو كان المتصل هو أقرب صديقاتها من ذلك الماضي.

تلك الفتاة التي كانت تحاول «مابيل» الوصول إليها؛ لا بد أنها كانت تهرب من شيء ما. لا بد أنها كانت شخصًا خاصًا، لتواصل صديقتها محاولة الوصول لها بتلك الطريقة. من المؤسف أن صديقتها اختفت هكذا.

لم نتحدث قط منذ سافرت لكليتها.. كان عليّ أن أتنكر لكل ذلك، لأنه جزءٌ من حياة انتهت.

كان كل ما أمكنني سماعه هو فرقعة النار.

لكن أمكنني الشعور الآن.

أمكنني الشعور بالطريقة التي آذيتها بها.

****

الفصل الثاني عشر

يونيو

في وقت لاحق من ذلك اليوم، بعد أن أمسك بنا «جرامبس» وبحوزتنا الويسكي، وبعد أن ظللت أنا و«مابيل» ننظر لبعضنا بعضًا بخجل -أو نتفادى النظر لبعضنا بالكامل- طيلة اليوم الدراسي، وبعد أن صنع «جرامبس» طاجن اللحم للعشاء، وخيّم أخيرًا بعضٌ من الهدوء بيننا، طلب مني الجلوس على كرسيه الوثير المفضل.. أومأت برأسي مجيبة:

- بالتأكيد.

لكني شعرت بقلبي يدق بقوة، وصدري كأنه مملوء بالثلج. لم أعرف بم سأجيب على الأسئلة التي سيطرحها عليّ. كان كل هذا جديدًا بالنسبة لي. تبعته إلى غرفة المعيشة واتخذت مقعدي. وقف أمامي، وقد بدا طويلًا مهيبًا، وجاد الملامح للغاية، ولا حتى شبح ابتسامة على شفتيه، فقط القلق والحزن، مع لمحة من الذعر. لا بد أنه سيوبخني للغاية.. قال:

- اسمعيني. أريد أن أخبرك شيئًا مهمًا.

أعددت نفسي للتوبيخ الأسطوري الذي سأتلقاه. نادرًا ما شعرت بهذا الشعور من قبل، ولم يكن قط لأي شيء جوهري. واستعددت أنا أيضًا لنوبة الغضب التي ستصيبني. لأنني أعرف أنني لن أظل صامتة.. سمعته يستطرد:

- ربما يكون لديكِ انطباعًا خاطئًا.. بخصوص «بيردي» وأنا. الأمر بيننا ليس كما تظنينه.

انتظرت أن يغير الموضوع وأن هذا مجرد مدخل لتوبيخي، لكنه لم يكن كذلك.. كان يتحدث بالفعل عنه هو و«بيردي» هذه فقط.. لم يكن الموضوع له علاقة بي من الأصل.

كادت ضحكة ارتياح أن تفلت مني. لحسن الحظ أنه لم يلاحظ.. استطرد:

- قد يكون من الصعب تصديق ذلك.. أعلم أنه قد يكون خطر لكِ أنها علاقة رومانسية، بسبب كيف أتصرف عندما تصلني رسائلها، وبسبب هذا الثوب الذي أرسلته لي. لكن في بعض الأحيان يكون هناك اتصال عميق بين شخصين، مما يجعل مصطلح «رومانسية» يبدو مبتذلًا. لا يتعلق الأمر بأي شيء جسدي. إنه متعلق بالروح فقط. حول أعمق جزء من شخصيتك وكيانك.

بدا قلقًا للغاية وعصبيًّا جدًا. شعرت بكل ما بداخلي من ارتياح ينزلق بعيدًا، ويحل القلق محله من جديد. قلت:

- حسنًا يا «جرامبس». مهما كان الأمر، أنا سعيدة من أجلك.

أخرج منديله من جيبه وفرده بعناية. ربت على جبهته وشفته العليا.

لم أره قط منفعلًا بتلك الطريقة بخصوص أي شيء. قلت:

- حقًا.. لا تقلق بشأن ما أعتقده. أنا فقط أريدك أن تكون سعيدًا.

قال:

- يسعدني أن هذا هو رأيك.. لو لم تكن «بيردي» موجودة في حياتي بهذه المرحلة، سأضيع.

لم أكن ونيسًا كفاية له. لم أكن أمثل له أي نوع من الملاذ. شعرت بصدمة تعليقه هذا، لكني ابتلعت الجرح وحاولت أن يخرج صوتي طبيعيًا وأنا أجيبه:

- أنا متأكدة من أنها تشعر بالشيء نفسه نحوك.

تفرس في وجهي. شعرت وكأنه كان ينظر من خلالي، كأنما يبحث عن شيء آخر. يحاول التوصل لما أفكر فيه.. أومأ برأسه ببطء. قال:

- هذه هي الحقيقة، وربما أكثر مني.. أنا أحتاجها وهي في حاجة لي.

ربما كان سيقول المزيد، لكن جرس الباب رن في تلك اللحظة، كانت لعبة الورق على وشك البدء، لذلك نهضت وذهبت لأسفل لفتح البوابة. عادة ما أقوم بتنظيف المطبخ عندما يجيئون، لكنني كنت أخشى أن يكون هناك خطب ما بـ «جرامبس». أردت أن أتأكد من أنه قد عاد إلى طبيعته قبل أن أنسحب.

كنت قد انتهيت من تجفيف الأطباق ووضعها على الرف أثناء قيامهم بسكب أول المشروبات وبدء اللعب. ثم غادرت لفترة ولكن لم أستطع التوقف عن القلق، لذلك عدت لأصنع بعض الشاي لنفسي، وربما تكون هذه ذريعة كافية للتسكع بالقرب منهم. بينما المياه تسخن، رأيت «جونز» يأخذ زجاجة «جرامبس»، ثم يصب المزيد في كأسه. نظر «جرامبس» إلى الكأس، ثم نظر إلى «جونز».

- لماذا فعلت هذا؟

- كانت كأسُك فارغةً.

نظر «جونز» إلى الاثنين الآخرين. كان «فريمان» يخلط الورق لعدد أكثر من اللازم من المرات، لكن نظرات «بو» لاقت نظرات «جونز». قال «جرامبس»:

- لا داعي للإسراع بي للقبر.. أنا ذاهب هناك سريعًا بما يكفي وحدي.

كان صوته منخفضًا، يكاد يكون متذمرًا. هز «بو» رأسه. كان هناك شيء مخجل، لكنني لم أعرف ما هو. تنحنح «جونز»، وابتلع ريقه. قال بالنهاية:

- إنه مجرد مشروب يا «ديلاني».

نظر «جرامبس» نحو «جونز» بنظرات شرسة طوال الوقت الذي كان يتعامل فيه «فريمان» مع البطاقات. رفع الرجال الآخرون أيديهم، ووضعوا ما تلقوه بالترتيب، لكن «جرامبس» ظل يحدق بحدة تجاه «جونز»، كأنما يتحداه أن يبادله النظرات.

لم أعرف ماذا يحدث، لكنه لم يكن مريحًا.. أردته أن ينتهي. قلت:

- «جرامبس»، هل أنت بخير؟

نظر نحوي متفاجئًا، كما لو أنه قد نسي أنني كنت هناك.

- كنت أتساءل...

بادرته بالقول، غير عارفة كيف ستنتهي جملتي.

- ربما... هل يمكنك القيام بتوصيلي إلى المدرسة غدًا؟ أشعر بالنعاس، سأذهب للنوم الآن.

قال:

- بالتأكيد يا عزيزتي.

عاد إلى الطاولة، والتقط بطاقاته. كان الجميع هادئًا، لا حوارات جانبية، ولا نكتة واحدة. وقال «جرامبس»:

- سأراهن على خمسة.

قام «جونز» بتوزيع الورق، بينما عدت أنا إلى غرفتي مع كوب الشاي وحاولت نسيان ما حدث. أخذت أنا و«مابيل» نتبادل الرسائل لساعات. أخذنا نتحدث عن الفتيان والمدرس الجديد والطقس وكل أنواع الهراء الممكن.. أخذنا نتفادى الحديث عما حدث بالصباح.

تحدثنا عن أغنية أحببناها وبعض مقاطع الفيديو العشوائية على يوتيوب، تحدثنا حول قصيدة قرأناها بحصة الأدب الإنجليزي في ذلك اليوم، وماذا نفعل إذا واجهنا نهاية العالم فجأة. هل سيأتي يوم ينقرض فيه البشر كما حدث للديناصورات؟ هل سيأتي يوم تغزو فيه سلالة جديدة الأرض غير عارفة بما سبقهم من كائنات؟ هل سنصبح مجرد أساطير يكذبها البعض في نظرية تطور أخرى تظهر بالمستقبل؟

كانت الساعة حوالي الثانية صباحًا عندما تمنينا لبعضنا ليلة سعيدة. لكني ظللت راقدة بسريري لساعة أتأمل السقف من فوقي.. لا توجد أصوات آتية من مجموعة لعب الورق، وهي علامة جيدة.. أظنهم انتهوا من لعبهم ورحلوا بالفعل.

****

عندما استيقظت كنت أشعر بظمأ حاد، فذهبت إلى المطبخ لأجلب كوبًا من المياه، ثم توجهت نحو الحمام. كان باب غرفة «جرامبس» مفتوحًا جزئيًا، والضوء يلمع عبر المكان الضيق. مشيت برفق بجواره ثم سمعت حفيفًا بالداخل فتوقفت لأنظر خفية.. كان «جرامبس» جالسًا على مكتبه، تحت إضاءة مصباح النحاس الخاص به، وقلمه يتحرك بغضب عبر ورقته. بقيت صامتة، لكني أستطيع أن أقول إنني حتى لو كنت قد ناديته وقتها، فلم يكن لينظر لأعلى. كان بإمكاني خبط الأواني والمقالي معًا، ولم يكن لينتبه حتى.. بدا في عالم آخر بالكامل.

كان يكتب رسائل حب، قلت لنفسي، لكنه لم يبد مثل الحب.

أنهى صفحة وألقاها جانبًا، وبدأ بكتابة واحدة أخرى. كان متعجلًا غاضبًا. التفتُ نحو الحمام وأغلقت الباب من ورائي.

كان يكتب رسائل حب فقط، هكذا فكرت.

رسائل حب فقط.

رسائل حب.

****

الفصل الثالث عشر

وسط سكون غرفة المعيشة غير المألوف، ظهرت ذكرى أخرى على السطح.

بعد التخرج ببضع ليالي، التقينا جميعًا على شاطئ المحيط. كان الجميع يتصرف باندفاع، كما لو كانت تلك هي نهاية العالم!

كما لو أننا لن نرى بعضنا بعضًا مرة أخرى، وربما، في بعض الحالات، كان ذلك صحيحًا. رأيت «مابيل» وانضممت إليها فوق بطانية في الوقت المناسب لسماع نهاية مزحة أعرفها بالفعل. ابتسمت أنا بينما ضحك الجميع، وبدونا جميعًا جميلين للغاية في وهج النيران. أستطيع أن أقول إن الليلة بدت ساحرة، لكن ذلك سيكون مبالغة.. ما شعرت به حقًا هو أننا منغمسون في اللحظة الحالية. لم نكن نفكر فيما سيحدث بعد ذلك. لا أحد يتحدث عن الطريقة التي سيقضي بها الصيف، أو الأماكن التي سنجد أنفسنا فيها في الخريف. كان الأمر كما لو أننا عقدنا اتفاقًا بالبقاء في اللحظة الحالية، أو أن انغماسنا في هذه اللحظة الحالية كان الطريقة الوحيدة للتصرف.

أخذنا نتبادل النكات، ورواية الأسرار، بعضها شائن للغاية.

كان «بين» قد أحضر معه جيتاره، وأخذ يعزف عليه لبعض الوقت، فأخذنا نستمع له بينما شعلة النيران تقرقع، والأمواج تهاجم الشاطئ وتتراجع.

تساءلت في سري عما كان ليتغير لو لم أكن قد هربت.

هل كنت سأدخل كلية مختلفة؟ هل كنا سنظل صديقتين بنفس قوة الماضي؟ هل كنت سأحتفظ بصور لنا معًا على اللوحة الخشبية الموجودة بغرفتي؟ والأهم، هل كنت سأصبح شخصية أفضل من كومة الحطام التي أنا عليها الآن؟ لا أعلم.. لكنني أحاول التفكير أن «كي سيرا سيرا»، أو «ما هو مقدر سيكون»، لو لم تكن الأحداث حدثت بتلك الطريقة فلا بد أن حدثًا آخر كان سيتدخل ليجعل الأمور تسير بطريق مشابه.. طريق موازٍ.. لا أعلم.

عندما أفكر في مجموعتنا بتلك الليلة، أرى كيف كنا في خطر. ليس بسبب الشراب أو اندفاعنا. ولكن لأننا كنا بريئين للغاية، ولم نكن نعرف ذلك.

لكن لا توجد طريقة للعودة للماضي. الضحك بتلقائية.. الشعور بترك المنزل لفترة قصيرة فقط. الإحساس بوجود منزل تعود إليه أصلًا.

كنا بريئين بما يكفي للاعتقاد بأن حياتنا هي ما اعتقدناه عنها، وأننا إذا قمنا بتجميع جميع الحقائق حول أنفسنا معًا، سنتمكن من تشكيل صورة منطقية، غير عارفين -أو غالبًا غير مدركين ستكون أدق بالوصف- بتقلبات الحياة التي تحدث فجأة.. تتدخل يد القدر فتقلب الأمور رأسًا على عقب، ومطلوب منك أن تتعامل وتتحمل وتعود بدفة مركب حياتك للأمان.. لكن هل هذا سهل؟

شعرت بـ «مابيل» تتقلب مكانها، ثم قامت لتجلس، ففعلت نفس الشيء. قالت:

- أعتقد أنني لست مستعدة للنوم بعد.

جلسنا على السرير واستندنا على الجزء الخلفي من الأريكة. أخذنا نشاهد وميض النار وهو ينعكس في أنحاء الغرفة.

أخذت «مابيل» تعيد شعرها للوراء.

- أين أقمتِ عندما وصلتِ إلى هنا؟ أعني قبل أن تذهبي إلى المهجع. كنت أتساءل بخصوص تلك النقطة.

لم أتوقع هذا، لكنني أردت أن أجيبها. ألقيت نظرة طويلة على السقف أفكر.

- عثرت على فندق صغير.

- قريب؟

- نوعًا ما. أعتقد أنه كان على بعد عشرين دقيقة تقريبًا. استقللت حافلة من المطار وظللت بها حتى رأيت مكانًا خارج النافذة.

- كيف كان يبدو؟

- ليس لطيفًا.

- ولماذا بقيتِ هناك؟

- أعتقد أنني لم أفكر قط أنني سأغادر.

فكرت في منظر الغرفة التي دخلتها أول يوم، ورائحتها التي بدت كرائحة إسطبل خيل، وقذارتها. اعتقدت أنني قد أكون قادرة على العيش هناك دون لمس أي شيء، لكن ساعات مرت ثم اتضح أنني كنت مخطئة في اعتقادي. قلت:

- كان فندقًا يعيش فيه الناس عندما لا يكون لديهم أي مكان آخر للذهاب إليه.. ليس من نوعية الأماكن التي يقضي فيها الناس إجازة.

ثم سحبت البطانية فوقي، على الرغم من أنني لم أكن أشعر بالبرد.. أكملت:

- كان المكان مرعبًا.. كنت مرعوبة بالفعل.

- هذا ليس ما تصورته.

- ما الذي ظننتِه قد حدث؟

- اعتقدت أنكِ ربما قمتِ بالانتقال إلى مسكن الطلبة في وقت مبكر أو شيء من هذا. هل تعرفتِ إلى أحد؟

- تقصدين في الفندق؟

أومأت برأسها.

- لا أستطيع القول إنني قابلت أشخاصًا. كان لدي الكثير من الجيران. بعضهم أصبح مألوفًا.

- أقصد هل خرجتِ معهم؟

- لا.

- اعتقدت أنكِ ربما تعرفتِ إلى أفراد جدد.

هززت رأسي نفيًا.

- اعتقدت أنهم كانوا يساعدونك في كل شيء.

- لا.. كنت وحدي هناك.

شعرت بملامح وجهها تتغير. مجموعة من الحقائق تحل محل كل التخمينات التي دفعتها تصرفاتي إليها. أردت أن أعطيها مزيدًا من المعلومات، فأكملت:

- كانت هناك امرأة في الغرفة المجاورة لي، اعتادت الصياح طيلة الوقت.. في السيارات التي تمر، في الأشخاص الذين بالقرب. بعد أن دخلت غرفتي بلحظات، سمعتها وهي تعوي لبضع ساعات متتالية.

- ماذا كان بها؟ مرض عقلي؟

- لا أعرف. بدت مثل ذئب يعوي أو ما شابه. ظللت أتساءل بعد ذلك -ما زلت أتساءل حتى الآن- إذا كان قد مر بها وقت أدركت فيه أن هناك شيئًا ما خطأ. أقصد داخلها. عندما تشعر بنفسها تنزلق بعيدًا، بينما هناك شيء جديد يظهر مكانها. وما إذا كانت تستطيع أن توقفه، أو إذا كان ذلك يحدث فقط. جعلني هذا أفكر في رواية «جين آير». أتتذكرينها؟

- المرأة المجنونة، زوجة السيد «روتشستر» الأولى.

- شعرت مثل «جين» عندما رأتها في المرآة. كنت خائفة. أستمع إليها في الليل وأحيانًا كنت أشعر أنني فهمت ما كانت تحاول قوله. كنت خائفة أن أتحول لأصبح مثلها.

كانت حقيقتها مخيفة بما فيه الكفاية، ولكن حقيقتي، كوني في غرفة مطابقة لغرفتها، وحيدة مثلما هي وحيدة، كان هذا هو أسوأ جزء! كأنها تعيش نفس قصتي، فقط قطارها يسبق قطاري ببضع محطات.

لم يكن هناك سوى جدار يفصل بيننا، وكان رقيقًا جدًا لدرجة تجعله لا يكاد يكون ذا أهمية.. «جين» أيضًا تم حبسها مرة واحدة في غرفة مع شبح. كانت هناك فكرة مرعبة تطوف ببالي، فكرة أننا يمكن أن نغفو كفتيات بريئات، بأنفاس ذات رائحة حلوى النعناع، ونستيقظ لنجد أنفسنا تحولنا لذئاب مثلها.

- أستطيع أن أرى لماذا لا تريدين أن تقرئي الكثير الآن.

أومأت برأسي مجيبة:

- من قبل، كانت مجرد قصص. ولكنها الآن تحولت لسرب من الفراشات المتوحشة التي تحلق من حولي طيلة الوقت، تتحين الفرصة للانقضاض عليّ.

نظرت بعيدًا، فتساءلت بداخلي عما إذا كان الأمر كذلك لأنني أخبرتها بأشياء لا تستطيع أن تشعر بها لأنها لم تمر بما يشابهها. ربما تعتقد أنني كنت أتصرف بدرامية أكثر من اللازم. ربما أنا كذلك. لكني أعرف أن هناك فرقًا بين الطريقة التي اعتدت أن أفهم الأشياء بها في الماضي، وكيف أفهمها الآن. بالماضي اعتدت أن أبكي على قصة ثم أغلق الكتاب، وكل هذا ينتهي فأستعيد حياتي. أما الآن فكل شيء يلقى صدىً داخلي، ويخترق روحي كشظية قنبلة جاهزة للانفجار بأي لحظة. قالت:

- كنتِ وحيدة كل تلك الأيام.

- هل يغير هذا من الأمر أي شيء؟

هزت كتفيها دون رد.. سألتها:

- اعتقدتِ أنني قابلت أشخاصًا جددًا ولم أكن بحاجة إليكِ؟

- كان هذا هو التفسير الوحيد الذي أمكنني التفكير فيه.

بدا عليها الشعور بالذنب مع جملتها الأخيرة.. لكني لم أعرف ما يجب أن أقوله.. سأخبرها أي شيء ما دامت تستمر بطرح الأسئلة. أعتقد أن هذا تأثير الظلام والدفء. الشعور بأننا في منزل شخص آخر، في أرضٍ محايدة،

لا شيء ملكي أو ملكها، لا شيء من هذه البطانيات أو الحطب أو الصور الموجودة على رف المدفأة. شعرت بحياتي بعيدة للغاية. سألتها:

- ماذا تريدين أن تعرفي؟

- كنت أتساءل عن «بيردي».

تقلبت في مكانها، فزأرت المرتبة قبل أن تهدأ من جديد. استلقت يدي ثقيلة فوق ساقي. لا يزال وجهها يقظًا وراغبًا بالسماع.. كنت أنا لا أزال أستطيع التنفس. قلت:

- حسنًا.. ماذا عن «بيردي»؟

- هل عرِفَت بما حدث؟ لم يكن هناك أحد ليتحقق من البريد ويبحث عن رسائلها. أعتقد أنه بعد مضي كل هذا الوقت، الآن، لا بد وأنه سيتم إعادة الرسائل جميعًا لها مرة أخرى، وما زلت أتساءل عما إذا كان أي شخص قد أخبرها أنه مات.

قلت:

- لم يكن هناك «بيردي» من الأصل.

ارتسم الارتباك على وجهها. انتظرت السؤال التالي.

- لكن، الخطابات...

- اسألي...

قالت:

- أعتقد... أعتقد أنها كانت أجمل من أن تكون حقيقة.. كل رسائل الحب هذه لشخص لم يقابله قط. أعتقد... لا بد أنه كان وحيدًا حقًا ليختلق شيئًا من هذا القبيل.

ابتعدت عيناها وصارت تتفادى عينيّ. هي لا تريدني أن أخبرها أي شيء آخر، على الأقل ليس الآن.

أعرف كيف يكون الأمر حينما لا تريد أن تفهم شيئًا ما، لذا بقينا صامتتين بينما آخر جملة لها تدور وتدور في رأسي. وأفكر في كم أنني وحيدة.

كنت كذلك. لم يهم كم كان حولي من أصدقاء.. لم يهم مدى قوة صداقتي بـ«مابيل».. لم يهم عدد النزهات التي ذهبناها معًا.. لم يهم كم خرجنا لتناول حلويات أو أكواب من القهوة، لم يكن أي من هذا كافيًا.. شعرت كأن هناك ثقبًا لا ينفك يتسع داخل صدري فيبتلع كل هذا ويبتلع معه كل مذاق للحياة.

- لم يكن بحاجة إلى أن يكون وحيدًا.

عقدت «مابيل» حاجبيها.

- كنت هناك. كان معي، لكنه كتب الرسائل بدلًا من ذلك.

نظرت نحوي مرة أخرى أخيرًا. قلت:

- كنت وحيدة.

ثم قلتها مرة أخرى، لأنني ظللت أخبر نفسي بأكاذيب لفترة طويلة، وها قد سكن جسدي وثبتت أنفاسي وصرت أشعر بأنني قادرة على مواجهة الحقيقة والتعايش معها.. قبل أن أعرف ما يحدث، سحبتني «مابيل» في حضنها. أعتقد أن تلك كانت أول مرة يحتضنني فيها أحدهم منذ فترة طويلة.. كانت ذراعاها حولي بقوة شديدة كادت تخنقني، بطريقة لا تترك لي مساحة لأحتضنها كذلك، لذلك اكتفيت بأن أرحت رأسي على كتفها صامتة. همست في أذني:

- فلنظفر ببعض النوم.. ما رأيك؟

أومأت موافقة، فأفلتتني ورقدنا من جديد.. جعلت وجهي بالجهة الأخرى لوقت طويل حتى لا ترى حزني.. حتى لا تملَّ من حزني وكآبتي فتبتعد عني.

ولكن بعد ذلك بدأت الأشباح الساكنة داخلي تهمس مرة أخرى. إنها تذكرني بكم كنت أشعر بالبرد.. كيف كدت أن أتجمد. ظلت الأشباح تهمس أن «مابيل» موجودة وستظل صديقتي على الدوام.. أنني أستحق أن يتحملني أحدهم.. أنه ليس معنى أن هناك من ابتعد عني أنني سيئة. لو كنت سيئة فعلًا لم تكن «مابيل» لتتعب نفسها وتسافر لمسافة ثلاثة آلاف ميل.

هذه هي طريقتها لتخبرني أن كل شيء بيننا بخير وكما هو. استدرت في مرقدي ووجدت «مابيل» لا تزال مستيقظة هي الأخرى.. لكزتني في كتفي بقوة.

- لماذا ما زلتِ مستيقظة أيتها القبيحة؟ ظننت أنني أخبرتك أن تنامي لتريحينا من كآبتك هذه.

لكني أدركت أنها تمزح، فلم أتمالك نفسي من الابتسام.. قالت:

- لا تختفي مرة أخرى، اتفقنا؟

شعرت بشعرها الناعم يداعب وجهي.

- عديني!

- أعدك.

أغمضت عينيّ، واستشعرت دفء الغطاء من فوقي، وأخذت أستمع إلى صوت طقطقة النار بالمدفأة، وشعرت بدفء الغرفة ودفء جسمها بجواري، ومع الدفء بدأ شعور آخر في التسلل داخلي.. الشعور بأن الأمور عادت بيننا كالسابق.

أننا عدنا أقرب صديقتين كالماضي.

صداقتنا بخير.

ما بيننا بخير..

أعتقد.

****

الفصل الرابع عشر

ثلاث برتقالات.

كيس من خبز القمح.

بالإضافة إلى ملاحظة مكتوب فيها، «أنا بالخارج أقوم بالتسوق من أجل عشاء عيد الميلاد. لا تسرقي أي شيء، أنا أحفظ كل ما يوجد في المنزل، وأعرف أين تعيشين!».

كوبان أمام وعاء كهربائي لإعداد القهوة.

قلت:

- عادت الكهرباء.

أومأت «مابيل» برأسها، وأشارت إلى الملاحظة.

- ظريف للغاية.

- نعم. ولطيف للغاية كذلك.

- بالضبط.

لا أعتقد أنه قد حدث لي من قبل أن سقطت نائمة في مكان وسط الظلام، واستيقظت لأراه في الضوء لأول مرة. بالليلة الماضية، قمت بتمييز الموجودات، لكن ألوانها لا. الآن أرى النوافذ، ولاحظت أن إطاراتها باللون الأخضر الداكن. لو لم يكن العالم برمته أبيض بالخارج، لتلائم لون الطلاء مع لون الأشجار.

أما الستائر فكانت منقوشة بزهور زرقاء وصفراء. لا بد أن هذا البيت يبدو بديعًا بالربيع.. سألت «مابيل»:

- هل تعتقدين أن «تومي» هو من اختار هذه؟

- لا، لا أعتقد ذلك.

- هل تعتقدين أنه هو من اصطاد ذلك الغزال؟

نظرت نحو رف المدفأة كما لو أن الغزال قد يتكلم ويخبرها. قالت:

- لا. هل تظنين أنتِ أنه فعلها؟

- لا.

هكذا أجبتها. فتحت «مابيل» كيس الخبز وأخرجت منه أربع شرائح. قالت:

- أعتقد أننا يمكن أن نعود عندما نصبح على استعداد.

سكبت لكل واحدة منا كوبًا من القهوة، وناولتها كوبها بينما سارعت لآخذ المقعد الذي يطل على زاوية أفضل للمنظر بالخارج.

كانت طاولة المطبخ غير متساوية؛ في كل مرة ننحني فيها للأمام، كانت تميل هي الأخرى.

شربنا القهوة سادة لأنه لم يكن لديه قشدة، والتهمنا الخبز سادة لأننا لم نتمكن من العثور على الزبد أو المربى.

قشرت «مابيل» برتقالة، وقسمتها لنصفين متساويين، وناولت أحدهما لي. أخذت أنظر للعالم الأبيض المترامي الأطراف بالخارج بينما أنا ألقي فصًا بعد الآخر داخل فمي.. تمنيت لو أبقى بهذا المكان الصغير اللطيف لفترة أطول.

قالت «مابيل»:

- أقسم أنني أشعر إنني أستطيع تناول الطعام طوال اليوم.

- اشتريت الكثير من الطعام بالمهجع. هل تعتقدين أنه فسد خلال الليل؟

- لا أظن، فالجو بارد للغاية، كأننا في ثلاجة ضخمة.

قبل فترة طويلة، كنا نغسل أطباق الإفطار، وسرعان ما وضعناها على منشفة الصحون حتى تجف. قمنا بجمع البطانيات من الليلة الماضية ووضعناها على طاولة القهوة، وقمنا بطي السرير مرة أخرى حتى أصبح مجرد أريكة من جديد. وقفنا في المساحة الفارغة حيث كان السرير، نطل عبر النافذة على الثلج الذي يفترش العالم بالخارج. سألتني «مابيل»:

- هل تعتقدين أننا سنتمكن من العودة؟

- آمل ذلك.

وجدنا قلمًا وكتبنا ملحوظة لـ «تومي» أننا راحلتان، مع الكثير من عبارات الشكر.. ثم سألت مرافقتي:

- مستعدة؟

- مستعدة.

لكني لا أعتقد أنه من الممكن أن تعد نفسك بما يكفي لجو بارد مثل هذا. كان كأنه يسرق أنفاسنا فيخنقنا.

- عندما نقترب من تلك الزاوية سنرى المهجع.

كان هذا هو كل ما أمكنني التفوه به لحظتها؛ كل نفس يخرج كان يؤلمني.

صحيح أن «تومي» قد قام بتنظيف الطريق الصغير في وقت سابق من هذا الصباح، لكن الجو بارد للغاية والجليد بكل مكان.. علينا التركيز في كل خطوة نأخذها حتى لا تزل أقدامنا. أخذت أراقب قدمي لفترة طويلة. عندما نظرت لأعلى مرة أخرى كان المهجع قد ظهر على مبعدة أخيرًا، ولكن للوصول إلى هناك علينا أن نخطو بعيدًا عن الطريق الذي قام «تومي» بتنظيفه من الجليد، لنخطو وسط الثلج نفسه، وعندما فعلنا لاحظنا كم من الجليد قد سقط. كان الثلج يصل حتى منتصف سمانة سيقاننا، ولم نكن نرتدي السراويل المناسبة لذلك. أخذت الثلوج تتسرب للداخل، وكان هذا مؤلمًا. كانت «مابيل» تنتعل أحذية جلدية رفيعة، صُنِعَت لشوارع المدينة في ولاية كاليفورنيا. سوف يكون الحذاء مبتلًا للغاية بحلول الوقت الذي نصل فيه

إلى الباب، وعلى الأرجح سيكون قد فسد تمامًا. ربما كان علينا انتظار عودة «تومي» ليقوم بتوصيلنا، لكننا هنا الآن، لذلك واصلنا المضي قدمًا.

لا أتذكر أنني رأيت مثل هذه السماء الصافية الزرقاء، رائقة بطريقة لم أكن أعرف أن السماء يمكن أن تكون عليها. صارت شفاه «مابيل» أرجوانية، بينما سيطرت الرجفة على جسدي.

لكننا الآن قريبتان من المبنى.. بضع دقائق وسنكون قد وصلنا.. أتمنى.

أطل المبنى من فوقنا متلصصًا، ومددت يدي أبحث عن المفاتيح بأصابع متصلبة للغاية بحيث صعب عليها الانقباض لإمساك المفاتيح، وبطريقة ما أدخلت المفتاح في القفل لكن لم يمكننا فتح الباب.

جمعنا الثلج من الأرض بأيدينا، وأزحناه بعيدًا بأحذيتنا، ثم أخذنا نسحب الباب حتى انفتح ببطء، تاركًا أثرًا على شكل قوس، كجناح واحد لملاك ثلجي، ثم تركناه ينغلق وراءنا.

- علينا الاستحمام بمياه ساخنة بأسرع وقت.. أكاد أتجمد.

قالتها «مابيل» ونحن في المصعد، وعندما وصلنا لطابقي ركضت إلى غرفتي وسحبت المناشف، ثم دخلت كلٌّ منا لكشك منفصل، وأدرنا المياه الساخنة لنظفر بحمام دافئ.. بقينا تحت الماء لفترة طويلة. كانت ساقاي ويداي مخدّراتٍ، ثم صرن يحترقن من المياه الساخنة، ثم بعد ذلك بلحظات عاد إحساسي بهن من جديد.

انتهت «مابيل» أولًا من حمامها؛ سمعت صوت الماء ينغلق عندها، أما أنا فبقيت لبضع دقائق تحت المياه.

****

كانت «مابيل» محقة، فالطعام لا يزال باردًا. جلسنا جنبًا إلى جنب بغرفة الاستراحة، ننظر إلى الثلاجة، بينما الحرارة تنبثق من خلال فتحات التدفئة.

- اشتريتِ كل هذا؟ هل أنتِ جادة؟

سألتني، فأجبت:

- نعم.

لكني لم أكن بحاجة إلى ذلك. اسمي لا يزال موجودًا على كل شيء. قالت:

- أنا مع تناول الفلفل الحار.

- هناك خبز الذرة يمكن استخدامه معه. وزبد وعسل.

- هممم، هذا يبدو جيدًا.

فتحنا وأغلقنا جميع الأدراج والخزائن حتى وجدنا وعاءً نسكب فيه الفلفل الحار، ومبشرة للجبن، ومقلاة خَبز لخُبز الذرة، والصحون لنأكل فيها، وشوكتين. بينما كنت أسكب الفلفل الحار في الطبق، قالت «مابيل»:

- لدي بعض الأخبار. أخبار جيدة. كنت أنتظر اللحظة المناسبة.

- أخبريني.

- «كارلوس» سينجب طفلًا.

- ماذا؟!

- «جريسيلدا» حامل في شهرها الخامس.

هززت رأسي في عجب. كان شقيقها «كارلوس» بعيدًا في الكلية من قبل أن أصبح أنا و«مابيل» صديقتين، لذلك التقيت به عدة مرات فقط ولكن...

- سوف تصبحين عمة!

علقت، فقالت متظاهرة بالوقار:

- العمة «مابيل» لو سمحتِ.

- هذا رائع.

- أليس كذلك؟

- بلى.

- لقد جعلانا نقوم بإجراء مكالمة فيديو جماعية، والداي في المدينة، وأنا في الكلية، وهما في أوروغواي...

- هل هذا هو المكان الذي يعيشان فيه الآن؟

- نعم، حتى تنتهي «جريسيلدا» من الدكتوراه. كنت مضطربة، واستغرق الأمر مني وقتًا طويلًا حتى تنجح المكالمة، وعندما ظهرا أخيرًا على شاشتي كان كل ما رأيته هو بطن «جريسيلدا» الصغير. بدأت بالصياح. كان والداي منفعلين كذلك. كان أمرًا رائعًا. وقد جاء في وقت مثالي، لأنهم كانوا جميعًا عاطفيين بخصوص إزالة أشياء «كارلوس» من غرفته. لا يعني ذلك أنهما لا يريدان ذلك. كانا فقط شاعرين بأن «ها قد كبر ابننا ولن يكون ابننا الصغير مرة أخرى!» وبعدما عرفا تلك الأخبار صار كل حديثهما عن «سيصبح لدينا حفيد!»

- سيكونان أفضل جدين.

- لقد بدآ يشتريان أشياء للطفل بالفعل. كلها أشياء تصلح للجنسين لأن جنس المولود سيكون مفاجأة. لم يحبذ الوالدان فكرة معرفة نوع الجنين قبل الولادة.

أخذت أفكر في «مابيل» وابنة أخيها الصغيرة (أو ابن أخيها). في سفرها إلى أوروغواي للقاء هذه الحياة الجديدة. ومشاهدة إنسان ينمو، من داخل بطن مستدير، إلى رضيع، ليتحول إلى طفل يمكنه الحديث معها. أخذت أفكر في «آنا» و«خافيير»، وتصورتهما وهما متحمسان جدًا، يتذكران كيف كان حالهما عندما كان «كارلوس» صغيرًا.

لا أعرف ما إذا كنت قد فكرت بهذه الطريقة في السابق بخصوص رحابة وغموض الحياة. صحيح أنني أفكر في الأمر على نطاق أوسع من العالم -الطبيعة والزمن مثلًا، أو القرون والمجرات- لكن التفكير في «آنا» و«خافيير» وهما شابان وفي حالة حب، ثم يقومان بإنجاب طفلهما الأول، ثم يشاهدانه يكبر بالعمر ويستقل بحياته ويتزوج، ثم ينتقل لمكان آخر من العالم، ثم يعرفان أنه سيكون لديهما قريبًا سليل آخر يحمل دماءهما، عارفين أنهما سوف يكبران مع مرور الوقت، وسيصبحان كبارًا بالسن بالطريقة التي كبر بها «جرامبس» وصار أشيب الشعر يرتجف في خطوته، بينما لا يزال هناك الكثير من الحب حيًا في قلبيهما.. هذا أذهلني. وتركني مأخوذة غير قادرة على الحديث.

رغم جمال ذلك الخبر فقد انفجر داخلي بركان جارف من الوحدة السوداء فارت كبحر عميق بلا قاع. أردت أن أعرف ما شعر به «جرامبس» عندما عرف أن أمي كانت حاملًا بي. كانت صغيرة السن، ووالد الجنين لم يكن موجودًا، ولكن لا بد وأن «جرامبس» قد شعر ببعض السعادة على الرغم من ذلك.

أتساءل عما إذا كان، بمجرد مرور الصدمة، أخذ يهتف فرحًا ويرقص لفكرة قدومي. أم أنه ظل حزينًا للنبأ غير المتوقع؟ صار مستحيلًا أن أعرف إجابة هذا السؤال الآن، بما أن كليهما رحل بلا رجعة تاركين إياي في هذا العالم بمفردي.

أخبرتني «مابيل» المزيد عن خطط «كارلوس» و«جريسيلدا»، وما هو تاريخ الولادة المرجح، وما هي الأسماء التي تفكر بإطلاقها على الوليد. قالت:

- أنا أقوم بإعداد قائمة بالأسماء كذلك. سأقرأها لكِ. أعرف أنهما سيتوصلان لاسم بمفردهما، ولكن ماذا لو تمكنت أنا من العثور على الاسم المثالي؟

حاولت البقاء في اللحظة الحالية، مستشعرة سعادتها. قلت:

- أحب أن أسمعهم.

- أوه، لا!

هتفت وهي تشير نحو الموقد.. كانت صلصة الفلفل قد سخنت للغاية، مطلقة الكثير من الفقاعات، وأخذت تنسكب من فوق جوانب الإناء. قمنا بتهدئة نار الموقد تحتها. لا يزال أمام خبز الذرة حوالي عشرين دقيقة أخرى لينضج. أخذت أستمع إلى أفكارها حول ما ستجلبه لهما كهدية لأنها لن تتمكن من حضور ولادة الطفل على الأرجح، لأنها لن تكون قادرة على السفر بعيدًا خلال الفصل الدراسي بالربيع.

حاولت التركيز معها بقدر ما أستطيع، وقد فعلت، لكني فقط لا أستطيع التخلص من الشعور بالوحدة الذي ينخر داخلي، حتى توقفت عن الحديث،

وبدا أن موضوع ابنة/ابن أخيها قد قيل بخصوصه كل ما يمكن قوله، وكنت وقتها أجلس إلى منضدة الطعام، بينما جلست هي على الناحية الأخرى منها.

قلت:

- قلتِ من قبل إنكِ كنتِ معجبة بـ «جرامبس».

- وقد اعتذرت عن ذلك.

هكذا أجابت مقطبة حاجبيها، فلوحت بيدي مكملة:

- لا داعي للأسف، أخبريني ما كان سبب إعجابك به.

نظرت لي في صمت، فقلت:

- من فضلك.

هزت كتفيها مجيبة:

- حسنًا.. كان... دائم القيام بصنع تلك الأشياء الرائعة. مثل تلميع تلك الشمعدانات. من يفعل ذلك الآن؟ كان يجلس على مائدة المطبخ المستديرة، يهمهم مع الأغاني المتصاعدة من الراديو، يلمع النحاس حتى يصبح كمرآة.. يلعب الكوتشينة مع أصدقائه طوال اليوم، كما لو كانت هذه وظيفتهم أو شيئًا من هذا القبيل، قائلًا إنها تُبقي عقله حادًا، بينما الموضوع حقًا يتعلق بشرب الويسكي ووجود صحبة، صحيح؟ وكسب المال؟

أومأت.

- كان يفوز أكثر من الآخرين. أظن أن هذا هو سبب تمكنه من دفع تكاليف إرسالي إلى هنا. عقدين من الفوز في لعبة البوكر ذات الرهانات الصغيرة.

ابتسمت. قالت:

- وكل تلك الحلوى التي صنعها. وكيف كان يحب سماعي عندما أتحدث الإسبانية، والأغاني التي غناها والمحاضرات التي قدمها لنا. أتمنى لو

كنا قد استمعنا له بشكل أفضل. أشعر أنه كان هناك أكثر من ذلك بكثير كان يمكن أن نتعلمه منه.

حدجتني بنظرة سريعة وقالت:

- على الأقل كان بإمكاني أنا تعلم الكثير منه. لا أريد أن أتحدث نيابة عنكِ.

قلت:

- لا. لقد فكرت في ذلك أيضًا. كان من المستحيل معرفة موضوع المحاضرة حتى يبدأها. وبدت بعضها عشوائية في ذلك الوقت، لكن ربما لم تكن كذلك. ذات مرة، قام بعمل سلسلة من المحاضرات لثلاثة أيام عن إزالة البقع.

- إزالة البقع؟ أتقصدين للغسل وما شابه؟

- نعم، ولكن مع الكثير من الاختلافات. لقد ذهب إلى أبعد من مجرد غسل الملابس. تحدث عن كيفية إزالة البقع من السجاد، ومتى يتم استخدام المياه الفوارة، ومتى يُستخدم المُبَيِّض، وكيفية الاختبار لمعرفة ما إذا كانت الألوان سوف تبهت.

- مدهش.

- نعم، لكني تعلمت ذلك حقًا. يمكنني الآن التخلص من البقع التي تصيب أي شيء.

ردت:

- سأضع ذلك في الاعتبار.. لا تتفاجئي لو جلبت لكِ كومة من غسيلي.

- ماذا جلبت على نفسي!

رددت عليها مداعبة، فأخذنا نضحك.. قالت «مابيل»:

- أفتقد وجهه.

- وأنا أيضًا.

افتقدت التجاعيد العميقة حول عينيه وفمه، وبمنتصف جبهته. رموشه القصيرة التي تحيط بعينين زرقاوين كالمحيط. أسنانه الملطخة بالنيكوتين وابتسامته العريضة. قالت:

- كم كان يحب النكات، لكنه كان يضحك دائمًا أكثر على نكاته هو.

- فعلًا.

- هناك الكثير من الأشياء الأخرى التي يصعب وصفها في كلمات. يمكنني المحاولة، إذا كنتِ تريدين ذلك مني.

قلت:

- لا داعي. هذا يكفي.

أوقفت عقلي عن إعادتي إلى تلك الليلة وما اكتشفته فيها!

بدلاً من ذلك، أخذت أقلب كل شيء ذكرته «مابيل» مرارًا وأخذت أتصورهم جميعًا، واحدًا تلو الآخر، حتى صارت ذكريات أخرى أيضًا.

تذكرت الصوت الذي كان يصدره حينما كان يسير عبر الردهة في خفه الضخم، كيف كان يحتفظ بأظفار نظيفة وقصيرة دائمًا، وصوت خشخشة حلقه حينما يتنحنح. شعرت بوهج ناعم من الدفء يستقر داخلي، هامسًا أنه معي ولست بمفردي، وقد دفع هذا بعضًا من شعور الوحدة والوحشة من حولي. ثم فكرت في شيء آخر قالته «مابيل». سألتها وأنا أكاد أكون متوقعة إجابتها:

- لماذا قاما بإخلاء غرفة «كارلوس»؟

هزت رأسها، كأنما أسألها سؤالًا غبيًا للغاية، قالت:

- لكِ. لقد أخبرتك بالفعل أنهما قاما بإعدادها لكِ.

- لكني اعتقدت أنك تقصدين غرفة الضيوف.

- تلك الغرفة الصغيرة؟ طبعًا لا! كما أنها مخصصة للضيوف.

- أوه، حسنًا.

ارتفع صوت جرس ميكانيكي، بينما أكملت أنا:

- لقد ظننت أنكِ تقصدين...

تكرر صوت الجرس. كان جرس الفرن. كدت أنسى أين كنا. لا أعرف ما كنت بصدد قوله على أي حال، لذلك قمت لأتحقق من نضج خبز الذرة، فوجدته قد انتفش وصار ذهبي اللون.. شعرت بشيء ما يتحرك بداخلي. سحابة كثيفة تمر. لمحة من الضوء تظهر وسط الغيوم. اسمي مرسوم على باب غرفة.

بعد البحث في صف من الأدراج في المطبخ المشترك، تمكنت من العثور على قفاز فرن بالٍ تغطيه رسوم تمثل رجالًا مصنوعين من خبز الزنجبيل. أريته لـ «مابيل».

- كم هو ملائم للموقف.

- فعلًا.

كان القفاز رثًا لدرجة أن حرارة المقلاة تسربت من خلاله، لكني تمكنت من إسقاط الرغيف على سطح الموقد قبل أن يلسعني بشدة. عبأت الرائحة الزكية الغرفة.

وضعنا صلصة الفلفل الحار في طبقين جلبناهما من الخزانة، وسكبنا فوقها بعض الكريمة الحامضة والجبن المبشور. جهزنا بعض العسل من أجل خبز الذرة، وأزلنا الغلاف عن الزبد.. قلت:

- أريد أن أسمع عن حياتك.

أعلم أنه كان المفترض أن أقول هذا منذ شهور. كان المفترض أن أخبرها بالأمس، أو اليوم السابق بالأحرى.

حدثتني «مابيل» عن لوس أنجلوس، وعمّن يذكرون أسماء المشاهير الذين يعرفونهم طيلة الوقت للتباهي، وحكت لي عن مدى شعورها بالضياع في الأسابيع القليلة الأولى لها هناك، ولكن كيف صارت تشعر مؤخرًا أنها قد تأقلمت. بحثنا في موقع الويب عن معرض «آنا»، وأخبرتني «مابيل» عن أحدث عروضها الفنية. تنقلت بين صور الفراشات، كل جناح مصنوع من

شظايا صور فوتوغرافية، ثم تم صبغها يدويًا بألوان زاهية حتى لم يعد بالإمكان التعرف على الصور الفوتوغرافية. قالت:

- يمكنني أن أخبرك ما هو المعنى المقصود بها.. لكن أنا متأكدة من أنه يمكنك اكتشاف ذلك بنفسك.

سـألتها عمن تعرف أخبارهم من أصدقائنـا القدامـى، فأخبرتني بأن «بين» كان يفكر في الالتحاق بكلية «بيتزر» للفنـون. قالت إنه كان يسأل عني، وإنه كان قلقًا بشأني هو الآخر.. ظلا يقولان إنهما سيجتمعان معًا ذات عطلة نهاية أسبوع، لكن جنوب كاليفورنيا ضخمة للغاية، والذهاب لأي مكان يستغرق وقتًا طويـلًا، وكلاهمـا بدأ يستقر ويعتاد روتين حياته الجديد على أي حال.

- إنه شعور جيد أن أعرف أنه هناك على أية حال. ليس بعيدًا جدًا إذا كنت بحاجة إلى صديق من الديار.

ثم توقفت لثوانٍ قبل أن تستطرد:

- تتذكرين أنه كان هناك آخرون في نيويورك، أليس كذلك؟

أومأت برأسي. لم أفكر في ذلك حتى لوقت طويل.

- «كورتني» في جامعة نيويورك.

ضحكت معلقة:

- هذا لن يحدث أبدًا.

- «إليانور» في كلية «سارة لورانس» للفنون.

- لم أتعرف عليها حقًا.

- نعم، أنا أيضًا، لكنها مرحة للغاية.. كم تبعد كلية «سارة لورانس» هذه عن هنا؟

- وفيمَ يهم هذا؟ ما الذي ترمين إليه؟

- أنا فقط لا أريدك أن تكوني بمفردك.

- والمفترض أن «كورتني» و«إليانور» هما من ستصلحان هذا؟

لوت فمها، وردت:

- حسنًا. أنتِ على حق. أنا أفكر بشكل خاطئ.

وقفت لتنظيف أطباقنا، لكن بعد أن قمت بتكديسها، اكتفيت بوضعها جانبًا، وعدت لأجلس من جديد، ومررت بيدي فوق المنضدة لإزالة الفتات. قلت:

- أريد أن أسمع المزيد. لقد خرجنا عن مسار حديثنا.

- لقد أخبرتك بالفعل عن فصولي المفضلة...

قلت لها:

- أخبريني عن «جاكوب».

رأيت جفنيها يرمشان بسرعة، وبدا عليها التوتر.

- لا داعي للحديث عنه.

هل تظنني أشعر بالغيرة لأنني وحيدة؟ تظاهرت بالابتسام وقلت:

- لا بأس. إنه جزء من حياتك. أريد أن أسمع عنه.

- أنا لا أعرف حتى مدى جدية الأمر.

هكذا ردت، لكني عرفت أنها تكذب. طريقة حديثها معه في الليل. الطريقة التي تقول له بها «أحبك». نظرت نحوها منتظرة. قالت:

- يمكنني أن أريكِ صورته.

أومأت موافقة، فأخرجت هاتفها. لامست أناملها الشاشة لبضع ثوانٍ وبعد ذلك توقفت. كانت صورة لهما وهما يجلسان بجانب بعضهما بعضًا عند الشاطئ، وقد تلامس كتفاهما. كان هو يرتدي نظارة شمسية وقبعة بيسبول، يخفيان معظم وجهه، لذلك لست متأكدة مما يفترض بي أن أراه. بدلًا من ذلك نظرت لصورتها هي. ابتسامتها العريضة، وشعرها المصفف في شكل جديلة على كتفها، والطريقة التي مالت بها عليه. قلت ببساطة:

- تبدوان سعيدين معًا.

خرجت مني بلا مرارة أو ندم. همست «مابيل»:

- شكرًا.

استعادت الهاتف ووضعته في جيبها.

مرت دقيقة. ربما بضع دقائق.

تناولت «مابيل» الأطباق التي رصتها على الحوض. قامت بغسلها، كلا الطبقين، كلتا السلطانيتين، والقدر والوعاء، والشوكتين. في مرحلة ما، نهضت وجلبت منشفة أطباق. أخذت هي تنظف الفلفل الحار المتناثر على الموقد بينما شرعت أنا أجفف كل شيء وأضعه بعيدًا.

****

الفصل الخامس عشر

يوليو وأغسطس

كان صيفًا من النوعية التي لا يلائمها غير البقاء في الخارج لوقت متأخر، تتجول وتتسكع هنا وهناك. لم يعد من المسلم به أنني سأكون في المنزل لتناول العشاء، كما لو كنت أنا و«جرامبس» نتدرب على المستقبل القريب الذي يختبئ في انتظارنا، حيث لن نكون معًا بالكامل!

بالبداية، كان يترك لي في بعض الليالي بعض الطعام. اتصلت به مرة أو مرتين لأخبره أنني سأجلب بقايا من الطعام الذي قام «خافيير» بطهوه. ببطء، أخذت أطباق العشاء التي يتركها تتناقص، حتى توقفت تمامًا.

كنت أخشى أنه لا يأكل، لكنه لم يعترف بذلك عندما سألته. ذهبت ذات يوم إلى القبو لغسل الملابس ووجدت أحد جواربه محشوًا بمناديل ملطخة بالدماء.

سبعة منها!

أخرجتها واحدًا تلو الآخر واستخدمت الحيل التي علمني إياها. انتظرت بجوار الغسالة حتى قامت بدورتها كاملة، على أمل أن تنجح الفكرة. خرج السبعة جميعًا نظيفين، لكن حلقي ظل مقبوضًا، وكانت هناك آلام في بطني. طويتها، واحدًا تلو الآخر، ثم حملتها للطابق العلوي أعلى كومة الغسيل. كان

«جرامبس» في غرفة الطعام عندما وصلت إلى هناك، يسكب لنفسه كأسًا من الويسكي. نظر إلى الغسيل المطوي. سألته بخفوت:

- كيف تشعر يا «جرامبس»؟

تنحنح مجيبًا:

- لا بأس.

- هل ذهبت إلى الطبيب؟

سمعته يتذمر -واضح أن اقتراحي كان سخيفًا- وتذكرت وقتًا ما عندما كنت في المرحلة الإعدادية، عندما عدت إلى المنزل من حصة تتناول موضوع الصحة، وتحدثت معه عن مخاطر التدخين. قال:

- هذه المحادثة أمريكية للغاية.. نحن لسنا في أحد مسلسلات التلفزيون السخيفة.

- يؤسفني أن أخبرك أننا نعيش في أمريكا بالفعل، لهذا يجب أن تكون محادثة أمريكية. أنا قلقة بشأنك.

- بالفعل يا عزيزتي.. ولكن أينما نعيش، في أي مكان في العالم، فالموت سيصل لنا بالنهاية، لأي سبب كان.

لم أعرف لحظتها كيف أجادل وجهة نظره.

كان عليّ أن أبذل جهدًا أكبر.

- لا تلمسي هذه الأشياء أبدًا.

قالها وهو يمسك بزجاجة ويسكي. أكمل:

- اتفقنا؟

هززت رأسي. قال:

- أعني لو تجاهلنا تلك المرة.

- كانت تلك هي المرة الوحيدة.

هكذا أجبته، فقال:

- جيد.. هذا جيد.

قام بإعادة الغطاء فوق فوهة الزجاجة والتقط كأسه.

- ألديكِ دقيقتان؟ لدي بعض الأشياء لأريكِ إياها.

- بالتأكيد.

أشار إلى طاولة الطعام حيث تناثرت بعض الأوراق. قال:

- اجلسي معي.

أمامي كانت هناك وثائق من الكلية التي من المفترض أن ألتحق بها قريبًا، شاكرين لنا دفعنا كاملًا لأول فصلين دراسيين.. كان هناك مظروف به بطاقة الضمان الاجتماعي الخاصة بي وشهادة ميلادي. لم أكن أعرف أنه كان يمتلكهما. قال:

- وهذه هي المعلومات الخاصة بحسابك المصرفي الجديد. صحيح أنه يبدو أن به الكثير من المال، لكنه سرعان ما سينفد. بعد رحيلك لهناك، لا أريدك أن تشتري المزيد من أكواب القهوة ذات الأربعة دولارات، ولا مزيد من الأطعمة السريعة الغالية.. هذه النقود للمصروفات الأساسية، للطعام وأجرة الحافلة... الكتب المدرسية وبعض الملابس البسيطة.

خفق قلبي، وشعرت بعينيّ تحرقانني. كان «جرامبس» هو كل ما لديّ.

- ها هي بطاقة الصراف الآلي الجديدة الخاصة بكِ. الرمز السري هو أربعة، صفر، سبعة، ثلاثة. اكتبيه في مكانٍ ما.. يمكنك تغييره فيما بعد.

قلت:

- يمكنني استخدام بطاقتي العادية القديمة. من حسابنا المشترك.

نظرت مرة أخرى إلى بيان المبلغ بالدولار.. كان مالًا أكثر مما رأيته في حياتي ملكًا لنا. هتفت:

- لست بحاجة إلى كل هذا المال.

قال:

- بل تحتاجين.

ثم توقف وسعل قبل أن يكمل:

- سوف تحتاجينه، صدقيني.

- لكن كل ما يهمني هو أن تكون أنت موجودًا!

تراجع للخلف في كرسيه، خلع نظارته ونظفها، ثم ارتداها مرة أخرى.

- عزيزتي.

كانت عيناه صفراوين مثل زهرة الأقحوان.. كان يسعل الدم كثيرًا، فبدا.. أشبه بهيكل عظمي يجلس بجانبي.

هز رأسه وقال:

- لقد كنتِ دائمًا فتاة ذكية.

كان صيفًا تخيم عليه فكرة عدم التفكير بعمق.

صيفًا من التظاهر بأن النهاية لم تكن آتية.

صيفًا شعرت فيه بنفسي أفقد إحساسي بالوقت، نادرًا ما كنت أعرف ما هو اليوم الذي نحن فيه، ونادرًا ما كنت أهتم بأي ساعة نحن فيها.

صيفًا مشرقًا ودافئًا لدرجة أنني شعرت أن حرارته ستظل باقية، وأنه سيكون هناك المزيد من الأيام أمامنا، وأن الدم على مناديل «جرامبس» كان مجرد تمرين على إزالة البقع، وليس علامة على شيء جاد يخبئه لنا القدر.

كان صيفًا من الإنكار.

صيفًا لم نتحدث فيه أنا و«مابيل» عن الكلية أو الجغرافيا، وركبنا الحافلات وقفزنا في السيارات وسرنا عبر طرقات المدينة. شاهدنا نزول السياح على شاطئنا، وجلوسهم في أماكننا المعتادة، لذلك استعرنا سيارة «آنا» وعبرنا البوابة الذهبية للعثور على قطعة صغيرة من المحيط نكون فيها بمفردنا بعيدًا عن كل هذا الزحام. تناولنا السمك والبطاطس المقليين في حانة مظلمة بدت كأنما تنتمي إلى بلد مختلف، وقمنا بجمع زجاج الشاطئ بدلًا من الصدف، وجمعنا الأوراق المتساقطة الجافة في الغابة الحمراء، وذهبنا لدور

السينما في جميع أنحاء المدينة خلال الحفلات الصباحية والحفلات الليلية. ذهبنا للمكتبات ومتاجر التسجيلات ومحلات الملابس. تسكعنا خارج متجر «ليكسينغتون»، لكن لأننا كنا أصغر من أن ندخل، ظللنا واقفتين بالخارج. نظرنا إلى داخله عبر الأبواب، نتأمل النساء ذوات الشعر القصير والطويل، بأحمر الشفاه والوشم والفساتين الضيقة والجينز الضيق، وتخيلنا نفسينا بينهن. لم نتحدث عن رحيل «مابيل» القريب، والذي سيسبق رحيلي بنصف شهر.

لم نتحدث عن الدم على المناديل، أو السعال الذي يتردد من مؤخرة منزلي. لم أخبرها عن الأوراق الرسمية وبطاقة الصراف الآلي الجديدة، وبالكاد فكرت فيها -فقط عندما وجدت نفسي وحيدة، فقط في أحلك الساعات وأكثرها صمتًا- وعندما كنت أفعل، كنت أدفع تلك الأفكار بعيدًا. لكن اتضح أنه حتى في أشد حالات الإنكار لا يمكن أن يتوقف الزمن.

وها نحن هناك، في منزلها.

تراصت الحقائب وحقائب القماش الخشن التي تمت تعبئتها عندما كنت غير موجودة معها، في بهو بيتها. سيتم تحميلها في السيارة في صباح اليوم التالي. دعاني كلٌّ من «آنا» و«خافيير» لحضور رحلة الذهاب والعودة من لوس أنجلوس، لكني لم أستطع تحمل فكرة العودة دونها، أكون فيها أنا الراكبة الوحيدة في المقعد الخلفي، وبدا على «مابيل» الارتياح عندما رفضت. قالت لي في غرفتها تلك الليلة:

- أعتقد أنني كنت سأبكي طوال الطريق.. أعتقد أنني سأبكي طوال الطريق على أي حال، ولكن إذا كنت وحدي فلن تضطري إلى مشاهدتي وأنا أفعل ذلك.

حاولت أن أبتسم متفهمة لكني فشلت. مشكلة الإنكار هي أنه عندما تأتي الحقيقة، فإنك لا تكون مستعدًا. فتحنا الكمبيوتر المحمول الخاص بها، بحثنا عن الاتجاهات من لوس أنجلوس إلى مقاطعة «دوتشيس».. كانت على مسافة أربعين ساعة بالسيارة. قلنا إن أربعين ساعة لا تبدو بعيدة بهذا القدر؛ كنا

نتصور أنها ستكون أطول. يمكننا أن نلتقي في نبراسكا وهكذا لن يستغرق الأمر سوى عشرين ساعة لكل منا.

لا مشكلة في هذا، هكذا قلنا، لكننا لم نتمكن من النظر في عيني بعضنا بعضًا لحظتها.

بعدها بعدة ساعات، وكنا وقتها نتمشى على الشاطئ، نتحدث بمواضيع تافهة، همست «مابيل» فجأة:

- لن نلتقي في نبراسكا، أليس كذلك؟

هززت رأسي نفيًا مجيبة:

- ليس لدينا سيارات أصلًا.

قالت:

- هناك فترة الإجازة.

- كلانا سيعود إلى هنا وقتها.

- يقول الجميع بأن الجامعة تستغرق أربع سنوات، لكنها في الحقيقة مجرد بضعة أشهر في كل مرة، ثم بضعة أشهر إلى المنزل كل صيف.

أومأت برأسها صامتة.

جاء صباح اليوم التالي مبكرًا جدًّا. الكثير من الضوء، والكثير من القعقعة في المطبخ. كنت أعلم أنني لن أكون قادرة على تناول أي شيء، فارتديت ملابسي وغادرت بيتهم متسللة قبل وجبة الإفطار.

استمعت إلى نفس الأغنية الحزينة طيلة رحلة ركوب الحافلة إلى المنزل، لأنه كان صيفًا حينما كان لا يزال الحزن شيئًا جميلًا.

****

الفصل السادس عشر

الوقت في طريقه للنفاد، ولست مستعدة لهذا بعد.

بدأت أشعر بفراغ المهجع مرة أخرى يخيم من حولي ويطبق على أنفاسي.

أوقن أنه لن يتغير في عيد الميلاد، وسيبدو كما هو الآن بالضبط، فقط ينقص شخص واحد...

لن يكون الجو أكثر دفئًا في الداخل، أو يومض بالأضواء، أو يفوح برائحة صنوبر. لن يمتلئ بأغاني «جرامبس». أين ذهبت الزينات الخاصة بنا؟ جرس الملاك الصغير، والحصان المرسوم، والشجرة الصغيرة، وأول حرف من اسمي، «م»، المخيط بالترتر.

صرنا بالظُهر، ثم حلت الساعة الواحدة. استمررت في النظر إلى هاتفي لأنني لا أريد أن يتسلل الوقت هاربًا دون أن أشعر به.

صارت الساعة الثانية، وشعرت بجسدي ثقيلًا يغرق، ولا أستطيع التخلص من الشعور بأن كل شيء ينتهي من جديد؛ إلا أنه أسوأ هذه المرة، لأنني أعرف ما ينتظرني عندما ينتهي.

صارت الثانية والنصف.

لا يزال هناك الكثير الذي أحتاج إلى أن أقوله لها.

لم تسألني أي شيء آخر حول «جرامبس». كما أنها لم تذكر اسم «بيردي» منذ الليلة الماضية.

أعلم ذلك الشعور -عدم الرغبة في المعرفة- ولكني في نفس الوقت أعتقد أنها ستستمع إذا بدأت أنا بالحديث. شعرت كأننا نلعب لعبة ما، دون أن نقصد. كلتانا تريد من الأخرى الحديث أولًا.

صارت الساعة الثالثة قبل أن أقول أي شيء.. يجب أن أبدأ. يجب أن أجبر نفسي على البدء. قلت:

- أحتاج إلى أن أخبرك بما حدث بعد رحيلك للكلية.

كنا قد عدنا لغرفتي، وجلسنا على البساط، وأخذنا نتفقد كومة من مجلات «هانا». رأيت صفحات من المنازل الحديثة والأزياء الأنيقة، ولكن لا يمكنني التركيز على أي من الكلمات التي ترافقها. أغلقت «مابيل» مجلتها ووضعتها جانبًا، ثم نظرت نحوي.

****

الفصل السابع عشر

أغسطس

في الصباحات التي تلت مغادرتها، كنت أستيقظ مبكرًا.

لا أعرف لماذا.

أردت أن أنام طيلة اليوم، لكني لم أستطع. حل الضباب ضيفًا ثقيلًا على أسطح المنازل والأسلاك الهاتفية والأشجار، واعتدت أن أصنع لنفسي بعض الشاي ثم أعود إلى غرفتي للقراءة والانتظار حتى تتمكن الشمس من شق طريقها وسط الضباب.

بعد ذلك كنت أذهب إلى شاطئ المحيط. أجلس بمفردي في المكان الذي اعتدت أن أجلس فيه مع «مابيل»، لكن بمفردي هذه المرة.. اعتدت على التسكع قرب شاطئ المحيط، والتحديق إلى الماء. أحاول أن أتذكر والدتي. لم أفكر فيها بهذه الطريقة لسنوات طويلة، لكني بدأت.

ستأتي الأمواج، وسأحاول أن أتخيل منظرها وهي تقوم بركوب الأمواج، وكيف كانت تجر لوحها والأمواج من ورائها وهي تعود إلى الشاطئ، وكيف -ولا بد أنها كانت تفعل- تلوح لي بيدها الأخرى. ربما كنت أجلس هنا بنفس هذا المكان مع أصدقائها. ربما كانت الذكريات المدفونة لتلك الأيام هي ما قادني لهذا المكان بالذات في كل مرة.

كنا بمنتصف أغسطس، وقد رحلت «مابيل» منذ بضعة أيام فقط، وكان من المفترض أن أغادر لكليتي خلال أسبوعين تقريبًا.

كان ذلك الصباح هادئًا، فقط ثلاثة شباب يقومون بالتزلج على مبعدة. عندما خرجوا من الماء وقفوا يتحدثون، وفي لحظة معينة رأيتهم ينظرون نحوي. كان بوسعي أن أشعر بما كانوا يقولونه. كان اثنان منهم يخبران الثالث مَن أنا.

شعرت بالضيق، كم هذا ظلم، أن يستطيعوا هم تذكرها بكل تلك السهولة بينما أنا لا أستطيع ذلك. ربما إذا أغلقت عينيّ، وظللت أستمع. سمعت منذ فترة أن الروائح تثير الذكريات، لذلك تنفست في عمق، مستنشقة كل الروائح الموجودة من حولي.. الرمال، الماء المالح، والهواء، والطيور.. كل شيء.. ثم سمعت صوتًا، كان أحد الشباب الثلاثة. ذهب الاثنان الآخران. قال:

- اسمك «مارين»، أليس كذلك؟

- بلى.

نظرت لأعلى نحوه، وتساءلت عمّا إذا كان شعري يذكره بشعرها. لطالما أخبرني «جرامبس» بمدى الشبه بيننا. اعتقدت أنه قد يخبرني بشيء غير محسوس.. هالة تحيط بي أو إيماءة قمت بها.

- فيمَ جلوسك بمفردك؟ هل تنتظرين شيئًا؟

- لا شيء.

أجبته.

لكن هذا لم يكن صحيحًا. كنت في انتظار أن أتذكرها.

كنت في انتظار أن تغمره دوامة من الحنين، كما يحدث مع كل الآخرين. كدت أن أمد يدي نحوه، وأنا واثقة من أنه سيضع بها بعض الصدف. ربما شعوري بالصدف بين أناملي سيساعدني على تذكرها.

- سمعت أنك تبدين كثيرًا مثل أمك، ولكن هذا سخيف.

لم يكن يبدو حالمًا على الإطلاق، لكني ابتسمت على أي حال وشكرته.

قال:

- لدي شاحنة في الجراج، وأنا متفرغ لبعض الوقت.

شعرت بجسدي يتصلب. على الرغم من شعور الثقل في بطني، وعلى الرغم من الطريقة التي كنت أغرق بها في الرمل، فإنني شعرت بالظلام يتصاعد داخلي، فرفعت نبرة صوتي لأجعلها تبدو أقوى. سألت:

- مَن أنت أصلًا؟

قال:

- أنا «فريد».

- لم أسمع عنك قط!

التفتُ إلى المحيط وشاهدتُ الأمواج تتحطم على عتبات الشاطئ. كلما ركزت عليها أكثر، علا الصوت أكثر، وزاد قربها.

أين ذهب الاثنان الآخران؟ وما هي نيته الحقيقية تجاهي؟ هل سيستغل كون الشاطئ فارغًا بالكامل من الناس؟ شعرت بجلدي يقشعر، لكني لم أسمح للذعر أن يسيطر عليّ، أو يظهر بتصرفاتي.

عندما وصلت موجة لطرف حذائي، نهضت. كنت وحدي، تمامًا كما كنت آمل، لكنه كان شعورًا رهيبًا.

هل كنت أتخيل وجوده، أم أنه رحل؟

كنت بحاجة إلى الرحيل من هنا.

قمت من مكاني وأخذت أسير نحو بوابة الشاطئ.. أنا بحاجة لئلا أكون وحدي.. بحاجة لأكون مع شخص ما.

«آنا» مثلًا؟ هكذا فكرت، لكن كان هذا غبيًا. «آنا» ليست أمي بعد كل شيء!

أنا بحاجة إلى مكان دافئ، وموسيقى، وغرف برائحة حلوة؛ تفرقت السيارات مفسحة لي المجال لعبور الطريق، بينا تحلقت السماء المظلمة بالأعلى.

فتحت باب منزلي وهرعت للطابق العلوي. هتفت:

- «جرامبس»، حالة طوارئ! أحتاج إلى قطعة من الكعك!

لكنه لم يكن في غرفة المعيشة أو غرفة الطعام. كان المطبخ فارغًا، لا شيء على الموقد أو في الفرن.

- «جرامبس»؟

وقفت صامتة واستمعت.. لا شيء غير السكون. لا بد أنه قد خرج، هكذا فكرت، لكني وجدت نفسي عند باب مكتبه، رأيته. لم أستطع أن أصدق، ولكنه هناك كان على مكتبه، وقد توهجت سيجارته في منفضة السجائر الكريستالية، والقلم في يده، يحدق إلى لا شيء.

- «جرامبس»؟

- ليس هذا وقتًا مناسبًا.

حتى صوته لم يبدُ كصوته المعتاد بطريقة فاجأتني.. اعتذرت منسحبة:

- آسفة.

اتخذت طريقي نحو حجرة المعيشة الصغيرة، وجلست.. كنت أرغب بسماع محاضرة منه عن أي شيء.. الاسم المناسب لمتجر قهوة، أو ازدواجية الراهبات، أو الفرق بين الرغبة الجسدية والانجذاب لروح شخص ما. كنت أرغب في تصادم ركبتينا تحت الطاولة.

أردت منه أن يحدثني عن والدتي.. عن «بيردي».. عن أي شيء يريده.

حل الليل ولم يكن قد خرج بعد.

لم يقم بإعداد العشاء.

ظللت جالسة مكاني حتى بدأ ظهري يؤلمني وبدأت قدماي تتخدلان، وكان عليّ الوقوف لجعل تيار الدم يسري فيهما مرة أخرى. سرت بأنحاء الغرفة حتى كلّت ساقاي.

استعددت للنوم بالاغتسال وغسل أسناني، ثم ذهبت إلى غرفتي بمقدمة المنزل، حيث لا يذهب أحد باستثنائي.

ربما نتحدث بالغد فأفهم منه ما خطبه.

****

الفصل الثامن عشر

- «مارين»، أرجوكِ تحدثي معي.

أعتقد أنني ظللت صامتة لفترة طويلة. لم أدرك ذلك حتى.

- أفتقده.

هكذا همست. ليس هذا ما كنت أتوقع أن أقوله؛ بل خرجت مني الكلمة دون وعي. لا أعرف حتى إذا كان هذا صحيحًا. أحيانًا أشعر أنني أفتقده، ولكن أحيانًا أخرى أشعر أن لا.. قالت:

- أعرف.. أعرف.. لكنك تحاولين أن تخبريني بشيء ما. أريد أن أسمعه منكِ.

هل يمكن أن نعود صديقتين كما كنا بالماضي؟

هل؟

أردت أن أسألها، لكني لا أستطيع أن أفعل ذلك.

ليس بعد.

الكلمات عالقة بالداخل.. كأنها مقدار من المياه تحبسه سدادة البالوعة من الخروج.

في النهاية كان كل ما تمكنت من قوله هو:

- أخبريني شيئًا.

- ماذا؟

- أي شيء.

أخبريني عن الشاطئ.

أخبريني عن فتاة تعيش في منزل مع جدها، عن منزل مليء بالحب الذي لا يحتاج لشروط، عن منزل ليس مسكونًا بأشباح الماضي وموتاه.

عن أيْدٍ مغطاة بدقيق الكعك، والهواء الذي تنبعث منه رائحة حلوة.

أخبريني عن الطريقة التي كان يتكفل بها كلٌّ من الفتاة وجدها بغسيل الآخر، وتركه مطويًا في غرفة المعيشة، ليس لأن هناك أسرارًا، ولكن لأن هذه هي الطريقة التي كانت تسير بها الأمور: بسيطة وسهلة وحقيقية.

ولكن قبل أن تتمكن من قول أي شيء، تسللت الكلمات من فمي:

- لا شيء كان حقيقيًا!

هكذا أخبرتها. نظرت لي مستغربة وهي تسأل:

- لا شيء من ماذا؟

- منه هو.

أجابتني في حيرة:

- لا أفهم.

- كانت لديه خزانة ملابس ضخمة من النوعية التي يمكن أن تكفي لوقوف الشخص في داخلها، خلف غرفته. كان هذا هو المكان الذي يعيش فيه حقًا. كانت مليئة بكل تلك الأشياء.

- أي نوع من الأشياء؟

- رسائل على سبيل المثال. كان هو من كتبها كلها. وكان يوقعها باسمها، لكنه كتبها جميعًا!

- «مارين»، أنا لا...

****

الفصل التاسع عشر

أغسطس

أيقظني رحيل «جرامبس». صوت انغلاق الباب، وصوت الخطوات وهي تنزل درجات السلم. اختلست النظرات إلى الشارع ورأيته يستدير عند الزاوية في اتجاه المتجر، أو منزل «بو»، أو أي من الأماكن التي اعتاد أن يختفي فيها حينما يتمشى في الحي.

استكملت نومي.. كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة عندما دخلت لآخذ حمامًا.

بمجرد خروجي، قمت بسلق بعض البيض وتركت اثنتين في طبق ليجدهما حين يعود. صنعت بعض الشاي لنفسي ثم وضعت كيسًا ثانيًا في فنجان ليجده عند عودته. استلقيت فوق الأريكة أقرأ لفترة. ثم خرجت. قضيت بقية اليوم في حديقة «دولوريس» مع «بين» وكلبته «لاني»، أرمي الكرة لها، أو أتبادل الضحكات مع «بين»، ونتذكر كل ذكرى مشتركة من السنوات السبع الأخيرة من حياتنا. ربطنا «لاني» بوتد خارج متجر «تاكيرا»، الذي يقدم طبق «الناتشوز» المفضل لدى «بين»، وشاهدنا مجموعة من الشباب ذوي ملابس غريبة يتوقفون ويربّتون عليها. استعد «بين» للتشاحن معهم لو قرروا مضايقتها، لكنهم ربّتوا عليها فقط ثم ابتعدوا.

- كيف ستعيشين دون هذا؟

هتف «بين» ونحن نقضم من البوريتو الذي اشتريناه للتو.

- هل هناك طعام مكسيكي في نيويورك أصلًا؟

- بصراحة؟ ليس لدي فكرة.

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة عندما وصلت إلى المنزل، وعلى الفور، شعرت بالسكون المخيم على المكان. هتفت:

- «جرامبس»؟

ولكن مثل الليلة السابقة، لم يجبني. كان بابه مغلقًا هذه المرة.

طرقت الباب وانتظرت.

لا شيء.

كانت السيارة أمام المنزل. أي أن هناك احتمالًا لا بأس به أنه هنا.

نزلت درجات السلم إلى الطابق السفلي لأعرف ما إذا كان يقوم بغسل بعض الملابس، لكن الغسالة كانت صامتة. بينما في المطبخ، سُلقَت البيضتان اللتان تركتهما له دون أن يمسهما أحد، في حين تدلت فتلة الشاي الجافة كما هي في الكوب.

شاطئ المحيط! سأبحث عنه هناك.

جذبت سترتي وارتديتها على عجالة وأنا في طريقي إلى الشارع.

كانت السماء مظلمة، بينما أضاءت مصابيح الشارع التي اصطفت على جانبي الطريق السريع وأنا أعبره. ركضت على الرمال، داعب عشب الشاطئ كاحلي، بينما حلَّق سرب من الطيور من فوقي، وبعد ذلك كنت أمر متخطية علامات التحذير التي يتجاهلها الجميع، على الرغم من أن الخطر الذي يحذرون منه كان حقيقيًا بلا شك. فكرت في أرجل سروال «جرامبس» المبللة، فكرت في هيكله العظمي النحيل، وفي الدم الذي لوث المناديل. كان لديّ رؤية واضحة للمياه الآن، ولكن لا توجد إضاءة كافية لإبراز التفاصيل. بحثت بعينيّ عن أصدقاء والدتي، ولكنهم بالرغم من أنهم ماهرون، وربما

لأنهم ماهرون وليسوا بتلك الحماقة، لم يمارسوا ركوب الأمواج عند الغسق. كانت هناك مجموعات قليلة من الناس تمشي في الخارج، فتى وفتاة يسيران بجوار مجموعة من الكلاب. لم أستطع رؤية أي رجل عجوز على مد البصر.

درت للخلف.

عندما عدت للمنزل مرة أخرى، طرقت باب غرفته من جديد.

لم يقابلني غير الصمت.

استولى الذعر عليّ، وبدأت أشعر بعينيّ تزيغان. شعرت بخفقات قلبي تتزايد أكثر من معدلها الطبيعي.. هل مات بينما أنا في الخارج؟ مات وحيدًا؟ ربما حاول الاستنجاد بي لكنه لم يجد أحدًا معه بالبيت!

سحقًا، يجب أن أعثر عليه!

كان هذا عقلي، يمارس حيله. كنت أتصرف بهستيرية، فـ «جرامبس» يغادر المنزل طوال الوقت، وبالكاد كنت في المنزل طوال الصيف، فلماذا يجب عليه أن يكون هنا الآن من أجلي؟ وقفت على الجانب الآخر من بابه. صرخت:

- «جرامبس»!

كان صوتي عاليًا جدًا لدرجة أنه مستحيل أن يظل نائمًا لو كان موجودًا في الداخل!

لكن عندما استمر الصمت، قلت لنفسي أن كل شيء بخير. هو فقط ليس موجودًا.. غالبًا ذهب لنزهة أو ما شابه.. ربما ذهب لرؤية بعض أصدقائه.

اتجهت نحو المطبخ، حيث وضعت قدرًا من الماء على الموقد.

قبل أن يغلي الماء سيكون هنا..

أسقطت المعكرونة في الوعاء وضبطت المؤقت. قبل أن تنتهي الدقائق العشر، قمت بتذويب بعض الزبد. لم أكن جائعة، لكنني سآكل على أي حال، وبحلول الوقت الذي أنتهي فيه من طبقي، أنا متأكدة من أنه سيدخل عبر الباب مناديًا اسمي.

دقت الساعة مع مرور الدقائق ببطء.

أكلت ببطء قدر استطاعتي.

ولكن بعد وهلة صار طبقي فارغًا، وكنت لا أزال وحدي!

لم أكن أعرف ماذا يحدث. أحاول أن أفهم. أخذت أبكي، وأخذت أحاول عدم البكاء.

رفعت سماعة الهاتف واتصلت بمنزل «جونز». حاولت جعل صوتي ثابتًا قدر الإمكان. قال «جونز»:

- كلا. رأيته أمس. سأراه غدًا.

اتصلت بـ «بو»، الذي قال لي:

- لعبة البوكر ستكون غدًا.

عدت إلى باب غرفته، وأخذت أطرق بقوة لدرجة أنني كدت أسقطه، لكن كان هناك ذلك المقبض، وعرفت أن كل ما عليّ فعله هو إدارته. بدلًا من ذلك، التقطت هاتفي مرة أخرى. أجاب «خافيير»، وسألني:

- هل بحثتِ في كل مكان؟

- ليس في غرفته، بابه مغلق.

شعرت بالارتباك البادي في صمت «خافيير». قال بالنهاية:

- افتحي الغرفة يا «مارين». اذهبي وافتحيها.

- ولكن ماذا لو كان هناك فعلًا؟

شعرت بصوتي ضئيلًا للغاية. كأنني طفلة بالحضانة.. لست مستعدة لما سأجده في الداخل لو كانت أسوأ مخاوفي صحيحة.

- سنستغرق بعض الوقت للوصول عندكِ، لكننا سنكون عندكِ بأسرع ما يمكن.

قلت:

- أنا وحدي.

لم أكن أعرف ما كنت أقوله حتى.

- سأتصل بالشرطة. من المحتمل أن يكونوا عندك قبل أن نصل نحن. انتظري عندك فقط. نحن قادمان إليكِ.. سنتجاوز كل هذا معًا. سوف نتحرك الآن.

لم أكن أريده أن يغلق الخط، لكنه فعل، وأخذت يدي ترتجف.

وقفت في مواجهة الباب المغلق. ترى ماذا يوجد بالداخل.

التفتُ بعيدًا عنه، نحو صورة أمي.

كم أنا في حاجة إليها. أزلت صورتها من فوق الحائط. كنت بحاجة لرؤيتها بشكل أفضل. سوف أخرجها من إطارها الزجاجي. ربما يساعدني حملها في يدي على التذكر. ربما أشعر بها معي.

على منضدة القهوة، ركعت على السجادة ورفعت الدبابيس المعدنية الصغيرة التي ثبتت الإطار في مكانه. رفعت الطبقة الكرتونية الموجودة بالخلف، وظهر لي ظهر الصورة الفوتوغرافية الأصفر، وعليه كتابة بخط يد «جرامبس»: («بيردي» على شاطئ المحيط، 1996).

شعرت بالرؤية تتشوش أمام عينيّ، ثم تستعيد طبيعتها، ثم شعرت بالظلام يتزايد من حولي.

ربما كان عقلي يأخذني في اتجاهات معقدة. ربما كان «بيردي» مجرد لقب مثل «عزيزتي» و«حبيبتي»، اسم يمكن أن يُطلق على أي شخص.

فتحت أبوابه لأول مرة.

ها أنا أقف في الداخل مكتبه.

خلال الخمسة عشر عامًا التي عشت فيها هنا، لم أدخل تلك الغرفة قط.

كان أحد الجدران مبطنًا بمجموعة من الرفوف، وعلى الرفوف تراصت مجموعة من العبوات والصناديق التي امتلأت بالرسائل. كانت يداي ترتجفان وأنا ألتقط إحداها.

كان المظروف مكتوب عليه عنوان المرسل إليه، هو عنوانه، لكنه كان مكتوبًا بخط يده!

فضضت الورقة.

«أبي العزيز،

تبدو الجبال جميلة اليوم. متى ستزورني؟ فقط لبعض الوقت حتى.. «مارين» لديها المدرسة وأصدقاؤها. يمكنك تركها لأسبوعين دون مشكلة».

توقفت عن القراءة. التفتُّ إلى الرسالة الموجودة وراءها. كانت موجهة إلى «كلير ديلاني»، بكولورادو، لا ختم، لم تُرسل قط. أخرجت ورقة الرسالة.

«أنتِ تعلمين أنني لا أستطيع فعل ذلك. ليس بعد. لكن قريبًا..»

أخرجت صندوقًا آخر من الخطابات. كانت جميعًا منه إليها أو منها إليه.

وكانت جميعًا مكتوبة بخط يده!

كانت منذ عدة سنوات. أحاول أن أقرأ، لكن رؤيتي ظلت مشوشة.

سمعت صفارات الإنذار من بعيد. تركت مكتبه ودخلت غرفة نومه.

رائحتها مثل السجائر والشاي.

رائحتها مثله.

كان سريره مرتبًا وكان كل شيء مرتبًا.

صدمتني حقيقة أدركتها فجأة، وهي أن هذه هي المرة الأولى التي أرى تفاصيل غرفته فيها، كم كان خطأ مني أنني لم أرها من قبل. كم كان من الخطأ أن يتم إبعادي بتلك الطريقة. كان باب خزانة ملابسه مفتوحًا، وجميع ستراته مطوية بدقة.

فتحت درج خزانة الملابس لأجد القمصان التي غسلتها وطويتها له قبل يومين. فتحت درجًا أصغر ورأيت أكوامًا من المناديل الخاصة به. كنت أعلم أنني كنت أبحث عن شيء ما، لكنني لم أعرف ما هو بالضبط.

صوت صفارات الإنذار يعلو. ثم رأيته، كرسيًا بذراعين مخمليًا باليًا، يستند على الباب.

دفعت الكرسي بعيدًا.. أدرت المقبض.. كانت مساحة صغيرة، في مكان ما بين الغرفة وخزانة الملابس، وكان الظلام مخيمًا عليها حتى رأيت السلسلة تتدلى من السقف وسحبتها، ليغمر الضوء كل أشياء أمي!

كانت محفوظة كما لو كانت لمتحف، في أكياس شفافة مع قطع النفتالين، قمصان، وسراويل، وسراويل قصيرة، وملابس داخلية وملابس سباحة، وفساتين، وأحذية.

الأوراق المدرسية والمذكرات والرسائل والملصقات والهدايا التذكارية، والكتب والمجلات. غطت صورها جزءًا من أحد الجدران.

كل بوصة مربعة كانت مغطاة بصور لم يُرِني إياها قط!

رأيتها طفلة صغيرة بملابس واسعة غاص فيها جسدها الضئيل، ثم مراهقة ترتدي جينزًا ممزقًا، ثم امرأة شابة في لباس البحر أو ملابس مبللة، ثم أُمًّا شابة تحمل رضيعًا؛ تحملني. توقفت صفارات الإنذار، ثم تصاعد صوت قرعات على الباب، ثم صوت هتاف:

- الشرطة!

بدت أمي امرأة غريبة في كل صورة. لم أعرف أين كان «جرامبس»، لكن جزءًا في داخلي أيقن أنني لن أتمكن من رؤيته ثانية أبدًا!

أبدًا!

لا بد وأنه قد تصاعد صوت عالٍ مع تحطم الباب الأمامي وهو يُفتح عنوة.

لا بد وأنه قد تصاعد صوت خطوات قادمة نحوي.

لا بد أنهم كانوا ينادون أي شخص كان في المنزل.

لكن لم يحاول أي أحد أن يتعجلني بينما أنا أستوعب كل شيء من حولي.

لم يقل أحد أي شيء بينما أنا ألتفت إلى الملابس، وآخذ الحقيبة المكتوب عليها «فساتين» وأفتحها، فقط للتأكد من شيء معين، وبالفعل عثرت على الثوب الأخضر الداكن.. تمدد أمامي كما حدث في ذلك اليوم الذي فرده أمامي، ولم يسمح لي بلمسه!

تركته يسقط على الأرض. استدرت، لمحت اثنين من ضباط الشرطة واقفان يراقبانني.

- هل أنتِ «مارين ديلاني»؟

أومأت برأسي.

- تلقينا مكالمة تفيد بأنكِ بحاجة إلى المساعدة.

كان جسدي مثقلًا بالشوق، وصار قلبي -لأول مرة- مليئًا بالكراهية. كانا ينتظران مني أن أقول شيئًا. قلت:

- خذاني بعيدًا عن هنا.

قال لي أحد رجال الشرطة:

- سوف نذهب إلى المخفر.

- هل أنتِ متأكدة أنكِ لا تريدين أخذ سترة معكِ؟

سألني الآخر. هززت رأسي نفيًا.

- آسف لما حدث.

قالها بينما أنا أصعد إلى المقعد الخلفي من سيارتهما، خلف الشبكة المعدنية.

- ستكون رحلة سريعة.

أجلساني على كرسي في مكتب. أحضرا لي كوبًا من الماء، ثم كوبًا آخر. تركاني وحدي لبعض الوقت، وبعد ذلك عادا.

- هل كان يتصرف بطريقة غريبة؟

سألني أحدهما.. لم أكن أعرف. كان يتصرف كطبيعته.. ظلا منتظرين ردي.

- ماذا يعني التصرف بطريقة غريبة؟

- أنا آسف يا عزيزتي. هل تحتاجين لدقيقة؟ نحن فقط بحاجة لتسجيل كل المعلومات المتاحة.

- لا بأس.. دعينا ننتقل إلى السؤال التالي، هل تعرفين ما إذا كان لجدك تاريخ من الأمراض العقلية؟

سألني الآخر.. ضحكت.

- لقد رأيتما تلك الغرفة.

- أي مؤشرات أخرى؟

- كان يشك أن أصدقاءه يسممون الويسكي الذي يشربه.

قلت.. لم أستطع أن أجلب نفسي للحديث عن الرسائل. هي موجودة بالمنزل على كل حال لو أرادوا رؤيتها.

- ما الذي يجعلك تعتقدين أن جدك قد يكون مفقودًا؟

- ماذا يعني أن تكون مفقودًا؟ ماذا يعني أعتقد؟

كل ما شعرت أنني أعرفه هو القماش الأخضر، ينفرد. بيضتان، لم تلمسهما يد. غرف سرية وصور فوتوغرافية. الشاي والقهوة والسجائر. سرير مرتب. زوج من النعال. الصمت. آلاف الأسرار التي أخفاها عني. قلت:

- أعتقد أنه مصاب بالسرطان.. كانت هناك دماء على مناديل.

- سرطان.

علق أحدهما، ثم كتب في دفتر معه. أخذت أنظر لهذا الدفتر. كل ما قلته لهما كان مكتوبًا فيه، كما لو أن إجاباتي تعني شيئًا حقًا، كما لو أنها ستجعلهما يكتشفان الحقيقة. قلت:

- دماء على مناديل.. هل ستكتب ذلك أيضًا؟

قال:

- بالتأكيد يا عزيزتي.

وكتب الكلمات بتؤدة.

- لدينا شاهدان شاهدا رجلًا عجوزًا وهو يخترق المياه عند شاطئ المحيط!

قال الآخر. وكنت بشكل ما أعرف ذلك من قبل أن يقوله، على ما أعتقد.

ما مدى سهولة سحب مياه المحيط له بعيدًا؟

كنت أعرف المعلومة بالفعل، لكني شعرت بجسدي يتصلب، كما لو كنت أنا الميت الذي يتحدثان عنه.

- لدينا فريق بحث هناك الآن يحاول العثور عليه. ولكن إذا كان هو الشخص الذي رأياه، فهو مفقود لأكثر من ثماني ساعات.

- ثماني ساعات؟ كم الساعة الآن؟

كانت نافذة المكتب الوحيدة تطل على الردهة. في الخارج، لا بد أننا صرنا في وضح النهار.

- هناك شخصان في الردهة في انتظارك. السيد والسيدة «فالينزويلا».

فكرت في فكرة ابتلاع الماء لـ «جرامبس». لا بد أنها كانت مياهًا باردةً للغاية. لا بد أنه لم يكن يرتدي ملابس ثقيلة، فقط قميصه الخفيف، ومن أسفله ذراعيه النحيلتين. جلده الرقيق، وكل الخدوش والكدمات التي غطته. قلت:

- أنا متعبة حقًا.

أجابني أحدهما:

- أنا متأكد من أنهما يستطيعان توصيلك إلى المنزل.

لا أرغب في رؤيته مرة أخرى. لن أرغب في ذلك أبدًا. ومع ذلك؛ كيف ستطأ قدماي داخل منزلنا دونه؟ تسلل شعور كريه بالخسارة داخلي، مظلم وعتيق وكئيب.

فكرت في «آنا» و«خافيير»، وكم سيكونان لطيفين وهما ينظران إليّ، والأشياء التي قد يقولانها وكيف سيتوجب أن أخبرهما بما اكتشفته وكيف عرفت أنني لن أستطيع فعلها.. لن أقوى على فعل هذا.. ليس بداخل بطاريتي الروحية أي طاقة لأي تفاعل مع أحد.. كان صوتي غليظًا وأنا أقول:

- أعتقد أنني سأستقل سيارة أجرة.

- لقد بدا عليهما القلق عليكِ. لقد كانا ينتظران لفترة طويلة.

لا بد أنه كان يشعر بالبرد الشديد. فكرت في دموعه.

- سنحضر لكِ سيارة أجرة يا عزيزتي. إذا كنتِ متأكدة من أن هذا ما تريدينه.

****

الفصل العشرون

قالت «مابيل»:

- لدي مشكلة في الفهم. «بيردي» كانت والدتك؟

- «بيردي» كانت أمي. وكل الأشياء التي كانت ترسلها له كانت أشياء يمتلكها بالفعل. وجميع الرسائل التي كتبتها له، كتبها هو لنفسه. يكتب رسالة، فيرد عليها بأخرى.

- لكن ألم تكوني لتعلمي ما إذا كان خط يده؟

سألتني، فقلت:

- لم أر الخطابات قط.. لم يكن لدي مفتاح صندوق البريد حتى.

- حسنًا.

- كان لديه كل شيء. كان لديه صور لي وصور لها. كان لديه متحف لعين هناك بالخلف ولم يُظهِر قط لي أيًا منها. كان بإمكاني أن أعرفها. لا شيء مما كان لدينا حقيقي. هو نفسه لم يكن حقيقيًا!

- لكن كان تصرفه هذا بدافع من الحزن، أليس كذلك؟ هو كان حقيقيًا، لكنه كان... أعتقد... مكسور القلب...

هل كان كذلك فعلًا؟ اعتقدت أنه لم يكذب عليّ قط.. ظننت أنني أعرف من كان، لكنه كان شخصًا غريبًا لم أعرفه على حقيقته طوال الوقت، وكيف أحزن على شخص غريب؟

وإذا لم يكن الشخص الذي أحببته حقيقيًا بما يكفي، فكيف يموت؟ الموت يحدث للبشر الحقيقيين فقط.. وهو لم يكن كذلك. كان أكذوبة!

هذا هو ما يحدث عندما أسمح لنفسي بالتفكير كثيرًا. أغمضت عينيّ بقوة محاولة وقف وحش التفكير من التهام روحي حتى النخاع.

أردت الظلام، والسكون، لكن الضوء يقطع هذا الظلام.

- هل هو ميت؟

سألتها. صار صوتي همسًا، أصغر وأضعف نسخة من نفسي. هذا هو أكثر شيء خشيت أن أقوله. الشيء الأكثر جنونًا، الشيء الذي يجعلني مثله كثيرًا. هو كان يتفادى ذكر موت ابنته، وأنا أتفادى ذكر موته هو. قلت:

- لا أعرف ما إذا كان قد مات.

قالت «مابيل»:

- انظري إليّ.

- قالوا إنه غرق. لكنهم لم يجدوه. لم يجدوه قط. هل تختفي الجثث بهذه الطريقة؟

قالت «مابيل»:

- انظري إليّ!

لكني لا أستطيع.

- انظري إليّ!

قالتها مرة أخرى. أخذت أنظر إلى طبقات سروالي، ثم أنظر إلى خيوط البساط، ثم إلى يديّ المرتعشتين، وأنا متأكدة من أنني لا بد وقد جننت.

مثل «جرامبس»، ومثل زوجة السيد «روتشستر» المسكينة المحبوسة، ومثل المرأة الصارخة في غرفة الفندق المجاورة لي.

قالت «مابيل»:

- لقد توفي يا «مارين»! الجميع يعرف ذلك. فُقِد في المحيط. ذُكِر الموضوع في الصحيفة. نحن فقط لم نكن نعرف كيف حدث ذلك.

- لكن كيف نتأكد حقًا أن هذا هو ما حدث؟

- لأن هذا هو المنطقي، هذا هو ما تدل عليه كل الملابسات.

منطقي.. منطقي.

- لكن هل يحدث الأمر حقًا بهذا الشكل؟

- نعم.

هكذا ردت، فقلت:

- لكن هناك الأمواج، والمد...

- نعم. وهناك أيضًا التيار الذي يسحب الأشياء لأسفل ويرسلها بعيدًا. وهناك الصخور التي يمكن أن تعلق بها الجثث، وهناك الحيوانات المفترسة.

- ولكن هل أنتِ متأكدة؟

- متأكدة..

- أولئك الأشخاص الذين اعتقدوا أنهم رأوه، من الممكن أن يكونوا قد رأوا شخصًا آخر.

لم تجب عليّ. قلت:

- كان المكان مظلمًا.

ظلت صامتة.

- «مارين»...

قالت بالنهاية.

- المكان كان مظلمًا حقًا. أنتِ تعرفين كم يكون مظلمًا هناك. والمياه هناك أحيانًا تكون سريعة الحركة وتسحب أفضل السباحين داخلها بلا رجعة.

****

الفصل الحادي والعشرون

أغسطس

يمضي المرء منا في حياته معتقدًا أن هناك الكثير من الأشياء التي يحتاج لها، مثل الجينز والسترة المفضلين لديك، والسترة ذات بطانة الفرو الصناعي لتبقيك دافئًا، وهاتفك والموسيقى وكتبك المفضلة، والماسكارا، وشاي الإفطار الأيرلندي، وكوب الكابتشينو من متجر «قهوة المشاكل». أنت بحاجة إلى كتبك السنوية، والرسائل السرية التي يلقيها أصدقاؤك في خزانتك.

أنت بحاجة إلى الكاميرا التي حصلت عليها في عيد ميلادك السادس عشر والزهور التي جففتها.

أنت بحاجة إلى دفاتر ملاحظاتك المليئة بالأشياء التي تعلمتها والتي لا تريد أن تنساها.

بحاجة إلى غطاء السرير الخاص بك، أبيض اللون، والمطبوع عليه قطع من الماس الأسود.

أنت بحاجة إلى وسادتك، فهي تناسب طريقتك بالنوم.

بحاجة إلى مجلات تعدك بتحسين الذات.

أنت بحاجة إلى حذائك للجري والصندل وحذائك طويل العنق.

تقرير الدرجات الخاص بك من الفصل الدراسي الذي حصلت فيه على الدرجات النهائية.

فستان حفلة التخرج الخاص بكِ، وأقراطِك اللامعة، وقلادتِك ذات السلسلة الرقيقة.

تحتاجين إلى ملابسك الداخلية، وحمالات الصدر ذات الألوان الفاتحة، وذات اللون الأسود.

صائد الأحلام المعلق فوق سريرِك.

العشرات والعشرات من الصدف المتجمع في الجرار الزجاجية.

كانت سيارة الأجرة تنتظر خارج مركز الشرطة. حاولت التحدث، لكن لم يخرج أي صوت. بالنهاية تمكنت من نطق:

- إلى المطار.

وانطلقت السيارة بي.

تعتقد أنك بحاجة إلى كل ذلك.

حتى تغادر دون أن يكون معك غير هاتفك فقط، ومحفظتك، وصورة لأمك.

****

الفصل الثاني والعشرون

أغسطس

بالكاد أتذكر الوصول إلى هناك. مشيت إلى شباك التذاكر وقلت إن لديّ حجزًا.

- هل معكِ رقم الرحلة؟

هززت رأسي نفيًا.

- أيمكنك تهجئة اسمك لي؟

حاولت، لكني لم أستطع تذكر ولو حرف واحد. مررت بكفي على بنطالي الجينز.

****

في مركز الشرطة، قال الضباط:

- هل أنتِ متأكدة أنكِ لا تعرفين أين هو؟

- كنت في السرير عندما غادر.

****

- هل يمكنك أن تتهجي اسمك يا آنستي؟

- أنا آسفة، لا أستطيع تهجئة اسمي.

****

- أنا آسفة، لقد صنعت له بعض البيض لكنه لم يأكله.

****

- لقد وجدت حجزًا باسم «مارين ديلاني». من مطار «سان فرانسيسكو» إلى مطار «نيويورك» الدولي، لكنه في يوم الثالث والعشرين.

قلت:

- لقد أتيت مبكرًا.

****

قالوا:

- نستطيع أن نرى أنكِ مستاءة.

****

قالت موظفة الحجز بالمطار:

- دعيني أرَ ما إذا كان بإمكاني تغيير موعد رحلتك لتصبح على متن طائرة اليوم.. لكن أخشى أنه ستكون هناك رسوم.

أخرجت بطاقة الصراف الآلي.

شعرت بالحرارة تبتلعني عندما وصلت إلى نيويورك.

طوال حياتي كانت الأيام الحارة تأتي بنسمات أكثر برودة، ولكن حتى مع غروب الشمس، كان الهواء كثيفًا وحارًا. استقللت حافلة من المطار. لم أكن أعرف أي اتجاه يجب أن أسير فيه، لكن هذا لم يكن مهمًا حقًا. ظللت أراقب الموجودات التي تهرع بجواري عبر النافذة بينما الحافلة مستمرة في طريقها، حتى رأيت لافتة فندق تضيء وسط الظلام.

«بيت بعيدًا عن بيتك!»، كان هذا هو المكتوب على اللافتة. قرعت الجرس للنزول عند المحطة التالية، ثم خطوت عائدة نحو الفندق الصغير المتواضع.. في اللحظة التي دخلت فيها إلى ردهة الفندق، علمت أنه ليس المكان المناسب لأقيم فيه.. كان يجب أن أغادر، لكنني تقدمت على أي حال.

- هل تجاوزتِ الثامنة عشرة من عمرك؟

سألني الرجل البدين الموجود خلف النضد بملل. أجبته:

- نعم.

نظر إليّ. نفث دخان سيجاره كريه الرائحة قبل أن يقول ببرود:

- سأحتاج إلى بطاقة هوية.

سلمته رخصة قيادتي.

- كم من الوقت ستبقين هنا؟

- سأرحل في الثالث والعشرين من الشهر.

نقل بياناتي من بطاقتي، ثم أومأ برأسه، وسلمني مفتاحًا. صعدت السلم وسرت عبر ممر طويل لأجد غرفة رقم 217.

أجفلت عندما لمحت الغرفة التي قبلها، حيث وقف رجل عند نافذتها يحدق نحوي. تجاهلته واستمررت بالتقدم نحو باب غرفتي، أقحمت المفتاح بالقفل، وأدرته سريعًا، ودخلت مغلقة الباب من ورائي.

رائحتها كانت أسوأ من رائحة إسطبل خيل، وكانت قذرة للغاية!

حاولت فتح النوافذ لإخراج الرائحة، لكنها لم تنفتح إلا لثلاث بوصات فقط، وكان الهواء في الخارج ساكنًا، سميكًا، وساخنًا.

الستائر صلبة ومغطاة بشيء ما، بينما السجادة ملطخة ومتهالكة، وأما اللحاف فكان ممزقًا متآكلًا. هل ذكرت الحوائط المغطاة بطبقة من الطلاء الرخيص التي تقشرت في أكثر من موضع؟

وضعت حقيبتي القماشية على الكرسي مع محفظتي وهاتفي.

أما في الغرفة المجاورة لي، فقد بدأت امرأة بالعواء دون توقف.. أسفل مني، كان هناك شخص ما يقوم بانتقاد المسلسلات المكسيكية الهابطة التي يذيعها التليفزيون.

سمعت صوت كسر شيء ما. من المحتمل أن بعض الغرف كانت مأهولة بناس عاديين، محدودي الحظ، لكن كان من الواضح أن الجناح الذي توجد به غرفتي يمتلئ بالمكسورين الذين حطمتهم الحياة، وكنت بينهم.

الوقت متأخر ولم أكن قد أكلت شيئًا. اندهشت من أنني قادرة على أن أشعر بالجوع، لكن معدتي كانت تهدر وتزأر جوعًا، وبدأت تصدر أصواتًا.. لذلك عبرت الشارع إلى أقرب مطعم، ولم تكن حالته أفضل كثيرًا من الفندق نفسه.

جلست عند أقرب منضدة، وطلبت بعض الجبن المشوي والبطاطس المقلية ومخفوق الشوكولاتة.

خشيت ألا يتمكن شيءٌ من ملئي وإشعاري بالشبع.

مذاق الطعام لا يختلف كثيرًا عن منظر المطعم. كان أشنع طعام التهمته بحياتي.. حتى النودلز السريعة طعمها أفضل من تلك القمامة. كانت البطاطس مليئة بالشحم، والجبن عديم المذاق كأنه قطع من كاوتش السيارات، وأما مخفوق الشوكولاتة فكان من الأفضل أن يسموه «مخفوق ماء غسل الأطباق»!

على أي حال لم أكن في حالة تسمح بالشكوى.

كانت السماء قد صارت شديدة السواد عندما عدت عبر الشارع. طلبت من موظفة الاستقبال في الفندق فرشاة أسنان. قالت لي بأن هناك صيدلية في الجهة الأخرى عبر الشارع، لكنها سلمتني بعد ذلك طقم أدوات سفر تركه شخص ما وراءه، وما زال مغلقًا بالبلاستيك، بداخله فرشاة أسنان صغيرة وأنبوب صغير من المعجون. مررت بجوار جاري، وكان لا يزال يحدق من النافذة.

بينما أنا أنثر بعض الماء على وجهي، ظننت أنني سمعت «جرامبس» يغني، لكن عندما أطفأت الصنبور لم يكن هناك شيء.

عدت للخارج. طرقت الباب المجاور لي، ففتحه الرجل.

كان لديه وجنتان غائرتان وعينان محتقنتان بالدم. كان من نوعية الأشخاص الذين قد أعبر الطريق سريعًا لأبتعد عنهم. قلت:

- أريد أن أطلب منك شيئًا.. إذا رأيت رجلًا عجوزًا خارج غرفتي، هل يمكنك أن تطرق على الحائط لتنبئني؟

- بالتأكيد.

هكذا أجابني، ثم نمت وأنا أعلم أنه كان يراقب المكان.

****

بعد ثلاث ليال سمعت صوت دقة فوق رأسي.

هل سيكون عبارة عن جثة ملطخة بالدماء، أم سيكون شبحًا؟

كان المكان بالخارج ساكنًا. لم يكن هناك أحد. أطلت عينا جاري الخاليتين من التعبير. عرفت أنه لم يتحرك منذ وقت طويل. لم يكن هو الذي طرق. ربما أحد القوارض وهو يخترق الجدران. وربما كان عقلي يلعب حيلة ما. ربما شخص ما في الطابق العلوي. ربما كان يعبر الجدران ليثير جنوني.

كان يغني في كل مرة أفتح فيها الصنبور، لذا توقفت عن استخدام الماء. لم يبق سوى ستة أيام قبل أن أتمكن من الانتقال لمساكن الطلبة.

اشتريت من المتجر جالونًا من الماء للشرب وتنظيف الأسنان، واشتريت معه زجاجة من مطهر اليد الذي لا يحتاج للغسل بالماء، مع مجموعة من القمصان البيضاء ومجموعة من الملابس الداخلية البيضاء.. طلبت حساء البازلاء، وبيضًا مخفوقًا، وقهوة.

استخدمت بطاقة الصراف الآلي، وأضفت ثمانية عشر بالمائة من السعر على سبيل البقشيش.

شكرتهم، فردوا بـ:

- نراكِ الليلة.

أو:

- نراكِ في الصباح.

- فطيرة الكرز مميزة اليوم.

ودائمًا ما يكون ردي:

- شكرًا.

أو:

- أراكم لاحقًا.

كنت أنظر في كلا الاتجاهين قبل عبور الشارع.

كنت أدير التلفزيون. مسلسل «القاضية جودي» يعمل طيلة الوقت..

سحبت البطانيات متجاهلة البقع، واختبأت أسفلها مثلما تختبئ القوارض في الحائط. ظللت أتقلب حتى أعثر على الوضع الصحيح. أجبرت نفسي على الهدوء.. أغمضت عينيّ.. أجبرت جسدي على الثبات.

قلت لنفسي:

- أنتِ بخير.

قلت لنفسي:

- ششش.. صمتًا.. كل شيء بخير.

****

الفصل الثالث والعشرون

قالت «مابيل»:

- تعالي معي.

انتهى حديثنا.

كنا نجلس على الأرض أمام بعضنا بعضًا، وقد اتكأت كل واحدة منا على سرير. المفترض أن أشعر أنني تخلصت من وزن تلك الأسرار الآن بعد أن أخبرتها بكل شيء، لكنني لم أفعل. ليس بعد.

ربما في الصباح سوف يراودني شعور جديد.

- أعدك أن هذه هي المرة الأخيرة التي أسألك فيها. فقط تعالي إلى البيت لعدة أيام فحسب.

لو لم يقل كل الأكاذيب التي حكاها لي.

لو أن «بيردي» كانت امرأة مسنة ذات خط جميل.

لو كانت معاطفه فقط هي كل ما تم تعليقه في الخزانة.

لو كان يعرف أن رئتيه تالفتان ولو كان يشرب الويسكي دون أي شكوك أنها ستتسبب بهلاكه.

لو كان بإمكاني التوقف عن الحلم بمشهد فراش الموت، موته، حيث تم طي بطانيات المستشفى على بطنه، ويداه تمسكان بيديّ. يقول شيئًا مثل، «إلى اللقاء بالجانب الآخر يا عزيزتي»، أو «أحبك يا حبيبتي». وهناك ممرضة

تلمس كتفي لتخبرني أن الأمر انتهى، بالرغم من أنني أستطيع أن أرى هذا بالفعل من خلال السكون المخيم عليه.

«خذي وقتك»، هكذا تقول، فنبقى هناك، أنا وهو، أو أنا فقط بالأحرى لأن روحه أو كيانه أو أيًا كان الشيء الذي غادر جسده قد رحل بالفعل، حتى يحل الظلام، وأصبح قوية بما يكفي لمغادرة الغرفة دونه. سألتني «مابيل»:

- كيف يفترض بي أن أتركك هنا؟

- أنا آسفة. سوف أذهب معكِ.. في يوم ما. لكن لا يمكنني فعل ذلك غدًا.

أخذت تتأمل الحواف البالية للبساط.

- «مابيل».

لكنها لا تنظر إلي.

كل شيء ساكن. أود أن أقترح الذهاب إلى مكان ما، فقط نزهة على الأقدام، ولكن كلتينا ترتجف من البرد.

أطل القمر من منتصف النافذة، كان هلالًا أبيض مقابل بساط أسود من السماء، وأمكنني أن أرى من خلال ضيائه أن الثلج لم يعد يتساقط بعد الآن.

- ما كان يجب أن أكتفي بالاتصال وإرسال رسائل نصية فقط. كان يجب أن أستقل الطائرة إليكِ.

- لا بأس.

- بدا مريضًا لفترة طويلة. نوع من الضعف أو شيء من هذا القبيل.

- أعرف.

دمعت عيناها، وأخذت تنظر من النافذة.

****

في وقت لاحق، وقفنا جنبًا إلى جنب عند الأحواض في الحمام. بدونا مجهدتين للغاية ومستنزفتين.

وضعت «مابيل» بعض معجون الأسنان على طرف فرشاة أسنانها، ثم ناولتني الأنبوب.

لم تقل «تفضلي»، ولا أنا قلت «شكرًا».

أخذت أنظف فمي بالطريقة الدائرية المعتادة، بينما أخذت «مابيل» تسير بالفرشاة ذهابًا وإيابًا بخشونة. تأملت انعكاسي، وحاولت أن أركز على إعطاء كل سِنّة الوقت الكافي في التنظيف.

لو كنا نقف نفس الوقفة في حمام «مابيل» في منزلها بالماضي، ما كنا لنقف صامتتين هكذا أبدًا. كانت هناك دائمًا الملايين من الأشياء التي يمكن الحديث عنها، كل موضوع يقتحم مجال المحادثة لدرجة جعلت المحادثات نادرًا ما تبدأ وتنتهي، وإنما تبدأ ويتم مقاطعتها قبل أن تستمر من جديد في وقت لاحق.

لو حانت الفرصة لنفسينا في الماضي أن تطّلِعا على حالنا الآن، فماذا كانتا ستصنعان بنا؟

لا نزال كما نحن من الخارج، نفس الشكل ونفس الجسد، ولكن هناك ثقل في كتفَي «مابيل»، وإرهاق في الطريقة التي تتكئ بها فخذي على النضد. الانتفاخ المحيط بعينيها، والسواد أسفل عينيّ.

ولكن الأكثر من تلك الأشياء، هناك حاجز ما صار بيننا!

حاجز صار حولي أنا بالأحرى.

كأنني وحش صار محبوسًا داخل بلورة زجاجية، وتلك البلورة تمتص صوته وأنفاسه وروحه.. مَن ينظرون من الخارج لا يفهمون ما الخطب به سوى أنه صامت، بينما هو بالداخل يكافح ليُسمع صوته.

لم أكن أرد على رسائل «مابيل» التسعمائة لأنني علمت أننا سننتهي بهذا الشكل مهما كان الأمر. ما حدث كسرني حتى لو لم يكن الموضوع متعلقًا بي على الإطلاق. لأنني علمت أنه بالرغم من كل رعايتها وتفهمها، عندما تنتهي هذه الزيارة وتعود هي إلى لوس أنجلوس مع جاكوب وأصدقائها الجدد، عندما تجلس في قاعات محاضراتها أو تركب عجلة فيريس في سانتا مونيكا أو تتناول العشاء بمفردها أثناء استذكارها، ستكون هي نفسها كما كانت

دائمًا؛ شابة حسناء لا تعرف الخوف، مرحة لا تشعر أنها ينقصها شيءٌ ما. ستظل هي نفسها، بينما سأتعلم أنا أي حطام صرته الآن.

بصقت «مابيل» في الحوض.

بصقت أنا الأخرى في الحوض.

غسلنا الفرشاتين وراء بعضنا بعضًا.

كلتا الحنفيتين تعمل بينما نحن نرش وجهينا بالماء.

لا أعرف ما الذي تفكر فيه. لا أستطيع حتى أن أخمن.

سرنا عائدتين عبر الردهة الطويلة، وأغلقنا الأنوار، وصعدنا إلى سريرين توأم متقابلين.

عيناي مفتوحتان في الظلام.

قلت:

- ليلة سعيدة.

ظلت صامتة.

بالنهاية قالت:

- أتمنى ألا تفكري في أن هذا بسبب «جاكوب».

ثم نظرت إليّ بحثًا عن إشارة أفهمها.

ثم استسلمت قائلة:

- ليس الأمر أنني قابلته ونسيت أمرك. كنت أحاول المضي قدمًا. لم تعطيني خيارات أخرى. لم تردي على رسائلي أو مكالماتي طيلة شهور.. أنا لا أحاول أن أجعلك تشعرين بالذنب لأنني أعرف ما مررتِ به. أنا أفهم الآن حقًّا.

شعرت بالألم عندما سمعت كلماتها.. والأسوأ أنها محقة.. أنا من اختفيت وليست هي.. هذا ليس ذنبها. في أعماق صدري لا يزال خواء مؤلم، شاغر، وخوف. خواء لا يمكن أن يملأه شيء، وليس ذنب أي شخص أنني أشعر به.

قلت:

- أنا آسفة. أعلم أنني الشخص الذي اختفى. آسفة حقًا.

كان لا يزال بإمكاني رؤية القمر من النافذة. ما زال باستطاعتي أن أستشعر هدوء الليل وسكونه. أمكنني سماع «مابيل» تقول، «لقد مات جرامبس!»، وهي واثقة جدًا، وأنا أحاول أن أشعر بهذا اليقين داخلي أيضًا. ربما أتمكن من المضي قدمًا بحياتي لو استوعبت حقيقة أنه مات ولا سبيل لرؤيته ثانية؟ لا أعرف.

قلت مرة أخرى:

- أنا آسفة.

لم أعرف هل أقصد أنني آسفة لها أم لنفسي.. أنني آسفة لأنني انحدرت بنفسي لهذا الحضيض. لا يهم ما فعله «جرامبس».. المهم كيف تعاملت أنا مع الموضوع؛ هربت كالجبناء دون أن أقدر على مواجهة الماضي.. لهذا ظلت أشباح الماضي وهمساته تطاردني مهما ابتعدت.

سمعت «مابيل» تقول:

- لا بأس.. أنا متفهمة.

- شكرًا لقدومك.

****

مرت الساعات، وأخذت أغفو وأستيقظ مرارًا وتكرارًا، وفي لحظة ما شعرت بها تنزلق من السرير وتخرج من الغرفة. بقيت بعيدًا لفترة طويلة، بينما حاولت أنا أن أبقى مستيقظة حتى تعود، لكني انتظرت وانتظرت حتى غبت في النوم. عندما استيقظت مرة أخرى مع أول ضوء من الصباح، كانت قد عادت إلى سرير «هانا»، نائمة وقد غطت عينيها بذراعها، كما لو أنها تحميهما من الشمس.

****

الفصل الرابع والعشرون

عندما فتحت عينيّ مرة أخرى، لم تكن هنا.

سيطرت عليّ موجة من الذعر أنني قد خسرتها للأبد هذه المرة، وأنها قد رحلت بالفعل ولم أتمكن من أن أقول وداعًا.

لكن ها هي الحقيبة القماشية الخاصة بها مفتوحة في منتصف أرضية غرفتي.

خرجت من السرير وأخرجت الهدايا التي اشتريتها. تمنيت لو كان لديّ ورق تغليف أو على الأقل بعض الشرائط حتى، لكن المناديل الورقية ستحل محلهما. ارتديت حمالة صدر وسروال الجينز وقميصًا، ثم قمت بتمشيط شعري. لسبب ما لا أريد أن أكون مرتدية بيجامتي عندما أنزل بها درجات السلم مودعة.

قالت من الردهة:

- مرحبًا.

هتفت بصوت حاولت أن يبدو طبيعيًا:

- صباح الخير، سأكون معك خلال دقيقة.

أسرعت بالتبول وتنظيف أسناني، وعندما خرجت كانت هي تقوم بإغلاق حقيبة ملابسها.

- كنت أفكر في أننا يمكن أن نلف هذا في ملابسك.

قلتها وأنا أناولها المزهرية التي اشتريتها لوالديها. أخذتها مني ووضعتها بين أغراضها. ثم مدت يدها نحو السوستة لتغلق الحقيبة من جديد، لكني أوقفتها. قلت:

- أغمضي عينيكِ ومدي يديكِ.

- ألا يجب أن أنتظر؟ حتى مساء يوم عيد الميلاد أقصد.

سألتني، فقلت:

- الكثير من الناس يتبادلون الهدايا عشية عيد الميلاد.

- لكن الشيء الذي جلبته لكِ هو...

- أعرف. لا يهم. أريد أن أراكِ تفتحينه.

أومأت برأسها.

قلت مرة أخرى:

- أغمضي عينيكِ.

تغلقهما.

أخذت أنظر إليها. أتمنى لها كل شيء حسن. أن تصادف سائق سيارة أجرة ودودًا ورحلة قصيرة عبر بوابات الأمن. أن تصادف رحلة دون مشكلات ومقعدًا فارغًا بجانبها. أن تقضي إجازة عيد ميلاد جميلة. تمنيت لها سعادة أكثر مما يمكن أن يجتمع في حياة شخص واحد. تمنيت لها سعادة من النوعية الغامرة التي تطفح فتغمر من حولها.

وضعت الجرس في كفيها المفتوحتين.

فتحت عينيها ونظرت نحوه. هتفت:

- لقد لاحظتِ!

- اقرعيه.

فعلت ذلك، وظلت النغمة باقية وانتظرنا بهدوء حتى انتهت.. قالت:

- شكرًا لكِ.. إنه جميل جدًا.

رفعت حقيبتها على كتفها، وقد آلمني المشهد بقدر ما كنت أتوقعه. تبعتها إلى المصعد.

عندما وصلنا إلى الباب، كانت سيارة الأجرة تنتظر وسط بحر من اللون الأبيض. سألتني:

- أنتِ متأكدة مما تفعلينه، أليس كذلك؟

- بلى.

هكذا أجبتها، فبدا عليها الضيق وهي تطل نحو نافذة السيارة.. قضمت أظفارها، ثم سألتني من جديد:

- هل أنتِ متأكدة من أنكِ متأكدة؟

أومأت برأسي إيجابًا بصمت.. أخذت نفسًا عميقًا، وحاولت رسم ابتسامة على شفتيها.

- تمام. حسنًا. أراكِ قريبًا.

تقدمت نحوي وعانقتني بقوة. أغمضت عينيّ. سيأتي وقت قريب -في أي ثانية- عندما تنسحب بعيدًا وهذا سوف ينتهي وأعود وحدي.. وهذا ليس خطأها، وليس خطئي.. يجب أن أعتاد أن أستمتع باللحظة الحالية.. وأن أحاول البقاء هنا والآن لأطول فترة ممكنة.

قلت:

- أراكِ قريبًا.

لكن الكلمات خرجت وهي مثقلة باليأس.

لقد اتخذت الخيار الخطأ.

انفتح الباب الزجاجي، ليندفع البرد داخلًا. خطت للخارج وأغلقت الباب وراءها. عندما عشت مع «جونز» و«أجنيس»، كانت ابنتهما «سامانثا» هي التي تعد لي وجبة الإفطار، المكوّنة من خبز القمح وصلصة التفاح، كل صباح.. كنا نأكل نفس الوجبات، وقد جلسنا على تلك الكراسي العالية التي بلا ظهر في مطبخهم. كانت تتفقد واجبي المدرسي لترى إذا كان لديّ أسئلة،

لكني أتذكر عدم الرغبة في طلب الكثير من المساعدة. كانت دائمًا تقطب جبينها وتحكي كيف مرت فترة طويلة منذ أن تعلمت هذه الأشياء. ثم تتمكن من التوصل للحل في النهاية وتقنعني به، لكن الجزء الأكثر متعة كان سؤالها عن مجلاتها، لأن حديثها عنها يجلب لها السعادة، فتنطلق بالحديث عنها دون ملل لساعات.

تعلمت ما هو تأثير القيادة بعد احتساء الخمر، لأن كلًّا من «باريس هيلتون» ونيكول ريتشي» فعلتاها. كانت أخبار حفل زفاف «توم كروز» وكاتي هولمز» في كل مكان. صرت أنتظر صدور كل عدد جديد.

نادرًا ما كنت أرى «جونز» و«أجنيس» إلا بعد المدرسة، لأنهما ينامان في وقت متأخر، وكانا يثقان بعهد مهمة رعايتي بالصباح لـ «سامانثا». كانت دائمًا لطيفة معي بعد ذلك. دائمًا ما اعتنت بأظفاري مجانًا.

ليس لديّ رقمها الآن. لقد مضى وقت طويل منذ أن عاشت مع والديها. أتمنى لو كان لديّ الآن.

اتصلت برقم الصالون، فقط في حال كانت هناك في وقت مبكر للقيام ببعض العمل قبل أن يفتح المكان أبوابه، ولكن ظل الهاتف يرن للحظات، قبل أن ينقلني إلى البريد الصوتي. استمعت إلى صوتها ببطء يوضح ساعات العمل والموقع.

أخذت أسير عبر الغرفة لفترة من الوقت، في انتظار حلول الساعة العاشرة في سان فرانسيسكو. بمجرد أن حلت الساعة الواحدة هنا، قمت بالاتصال.

- إنه أنتِ!

كان هذا رد «جونز» عندما سمع صوتي. قلت:

- نعم.. إنها أنا.

- أين أنتِ؟

- الكلية.

ظل صامتًا لثوانٍ، قال:

- حسنًا.. هل تقضين العطلة مع بعض الزملاء من مثيري الشغب؟

ربما يجري جردًا داخل عقله حول من الذي يمكن أن أكون معه، وتخيل عددًا قليلًا منا هنا، فريق من الأيتام ومثيري الشغب.

أجبته:

- شيء من هذا القبيل.

كان يجب أن أعد شيئًا لأقوله له. الحقيقة هي أنني قد اتصلت به فقط حتى أتمكن من تذكيره -وتذكير نفسي كذلك ربما- أنني ما زلت جزءًا من العالم. بدا لي الأمر وكأنني لو لم أتصل به الآن فلن أفعلها أبدًا، ولست متأكدة مما إذا كنت أريد أن أفقد ما تبقى من الحياة التي تشاركتها أنا و«جرامبس». اعتدت أن أكون متأكدة في الماضي، ولكني الآن لم أعد متأكدة من أي شيء.

كنت على وشك أن أسأل كيف حال «أجنيس»، لكنه تحدث قبل أن أتمكن من إخراج الكلمات من فمي. قال:

- لديّ كل شيء هنا.. لمعلوماتك فقط.. سواء كنتِ تريدينها أم لا، عندي كل شيء هنا في المرأب بانتظارك. ليست الأسِرّة أو الثلاجة أو أي شيء من ذلك، بل الأشياء الحقيقية. قام المالك بالترتيب لبيع العقار بعدما ظل المكان شاغرًا لثلاثين يومًا. لكن أنا والرجال اشترينا كل شيء...

أغمضت عيني: الشمعدان النحاسي.. البطانية ذات اللونين الأزرق والذهبي.. طاقم الصيني الخاص بجدتي المنقوش بالزهور الحمراء الصغيرة. قال:

- كلنا شعرنا بالسوء حقًا حيال ذلك. شعرنا وكأننا كان يجب أن نفعل ما هو أكثر من أجلك.

- ماذا عن الرسائل؟

خيم الصمت لثوانٍ، ثم تنحنح مجيبًا:

- موجودة هنا. أعطانا المالك الـ... إحم... الأشياء الأكثر خصوصية.

- هل يمكنك التخلص منها؟

- يم

- فقط احتفظ لي بالصور، حسنًا؟

قال:

- هممم.

أخذت أفكر في كل تلك الصور التي أبقاها «جرامبس» لنفسه. تصلب فكي من شدة غضبي. كان يجب أن يجلس بجواري ويريهم لي وهو يقول، «أعتقد أن هذه كانت المرة التي قمنا فيها بـــ...» أو «نعم، أتذكر هذا اليوم جيدًا..»

كان يجب أن يخبرني بكل الطرق التي يجب أن أذكرها بها.

كان ينبغي أن يساعدني في تذكرها.

لم يكن ينبغي أن يترك لي الفرصة أن أنسى.

ظل «جونز» هادئًا. سمعت صوته يتنحنح.

- كان «جرامبس» في المستشفى منذ وقت طويل، عندما أتيتِ لتقيمي معنا. لست متأكدًا إذا كنتِ تتذكرين. كاد هذا أن يقتله، لذلك لم نرغب في إعادته إلى هناك. أتمنى لو يمكنني القول بأن هذا كان القرار الصحيح. أتمنى لو يمكنني القول إنني لم أدرك أن حاله أصبح سيئًا للغاية مرة أخرى. أتمنى لو يمكنني أن أقول ذلك..

أخذت نفسًا عميقًا وأخرجته، فوجدت الأمر يتطلب جهدًا.

- اعتقدت أنه كان مريضًا.

- حسنًا، كان كذلك. لكنه كان مريضًا بطرق أكثر مما تعتقدين.

تنحنح مرة أخرى. ظللت أنتظره ليكمل. قال:

- أحيانًا يكون من الصعب معرفة الشيء الصحيح لفعله.

أومأت برأسي رغم أنه لا يستطيع رؤيتي. ليس هناك مجال للجدال مع جملة مثل هذه، حتى لو كان مستقبل مختلف ينفتح داخل عقلي، مستقبل أعرف فيه أي أدوية تم وصفها لـ «جرامبس»، وأنتبه للتأكد من أنه يتناولها

في مواعيدها، ويأخذني إلى مواعيده ويخبرني أطباؤه بالأشياء التي يجب أن أحذر من تعرضه لها.

أحتاج إلى أن أجد شيئًا لطيفًا لأقوله، شيئًا بدلًا من كل تلك الأفكار السوداء حول كيف خذلني «جرامبس»، وكيف خذلنا «جونز»؛ إنه يعرف ذلك بالفعل. أستطيع سماع هذا في صوته.

- أتمنى لك عشية عيد ميلاد سعيدة يا «جونز»..

أخيرًا تمكنت من النطق، راغبة فجأة في إنهاء المحادثة التي بدأت تصبح ثقيلة على قلبي.

- هل أصبحتِ متدينة فجأة؟ لو كان «جرامبس» بقبر، فلا بد أنه يتقلب فيه الآن.

كانت مزحة قاسية، من النوع الذي اعتادوا أن يتبادلوه في مطبخ منزلنا.

قلت له وأنا أنظر للخارج:

- إنها مجرد شيء لطيف لقوله.

خارج النافذة، كان الثلج قد بدأ يتساقط مرة أخرى. ليست عاصفة، فقط بعض الثلج متناثر هنا وهناك.

- أبلغ «أجنيس» و«سامانثا» تحياتي يا «جونز». وأخبر رفاقي أنني قمت بتحيتهم.

بعد أن أنهيت المكالمة، فتحت مظروف «هانا» وخرج منه شيء. انفرد وهو يسقط أرضًا: سلسلة ورقية من رقاقات الثلج، كل واحدة بيضاء وهشة.

لا يوجد رسالة في الداخل.

هذا هو بالضبط ما بدا عليه الأمر.

رقيق، هش، وبلا رسالة أو مغزى...

****

الفصل الخامس والعشرون

سبتمبر

ظهرت في يوم توجيه الطلاب الجدد، لا أحد يرافقني، وقد علقت على كتفي حقيبة من القماش الخشن حشوتها بملابسي، وبعض المقرمشات، وصورة «بيردي».

كان أول ما رأيته بالغرفة هو منبه «هانا» عندما وقفت عند بابنا. ثم رأيتها تقف وتبتسم لي. مدت يدها نحوي، لكن صدمتها لدى رؤيتي أربكتني..

كنت هنا، في مدرسة، تحيط بي فتيات في سني. لا أحد يصرخ في التليفزيون. لا أحد يقف لساعات أمام نوافذه. لا أحد يتجنب إدارة الصنبور خوفًا من الأشباح.

قلت لنفسي: تماسكي بحق السماء!

كنت فتاة عادية. لم أكن من النوع الذي يسبب القلق. كنت من النوع الذي يستحم يوميًا ويرتدي ملابس نظيفة ويجيب على الهاتف عندما يرن.

عندما يقترب الخطر، أعبر الشارع.

عندما يجيء الصباح، أتناول وجبة الإفطار بموعدها.

هذا الشخص الذي وقف في المدخل ليس أنا.

صافحت يد «هانا» الممدودة نحوي، وأجبرت وجهي على الابتسام. قلت:

- معذرة، أعرف أنني لا بد وأنني أبدو بأسوأ حال! لقد مررت بأسبوعين ثقيلين. سأقوم بترتيب أشيائي والذهاب للاستحمام.

هل رأيت لمحة من الارتياح تمر فوق وجهها عندما سمعت كلماتي؟ كنت آمل ذلك. كنت على وشك فتح حقيبتي القماشية، لكنني فكرت في كل الملابس المتسخة المحشوة في الداخل، وفكرت في الرائحة التي لا بد أنها ستنبعث منها متسببة في فضيحة من أول يوم. فكرت بشكل أفضل وقلت:

- أعتقد أنني بحاجة للمغسلة أيضًا.

قالت لي «هانا» وهي تشير بيدها للخارج:

- بالطابق الثاني.. والحمامات عند أول منعطف. لقد قمت بجولة مع عائلتي هذا الصباح.

ابتسمت مرة أخرى. قلت:

- شكرًا.

كانت معظم الحمامات وراء بعضها، على طراز غرف خلع الملابس، لكنني وجدت حمامًا كاملًا به باب يمكن غلقه.

بالداخل خلعت قميصي وسروالي، وتركتهما يسقطان على الأرض. كان هذا المكان أنظف كثيرًا من الذي كنت فيه. خلعت ملابسي الداخلية، وفككت حمالة صدري.

بدت الفتاة في المرآة متوحشة النظرات.. وجه منتفخ، وعينان شرستان، وشعر دهني أشعث.

لا عجب أن «هانا» صُدمت عند رؤيتي. لقد صدمت أيضًا من منظري.

لكن لم يكن لدي صابون أو شامبو. كان هذا كافيًا لجعلي أبكي. لا يمكن للمياه بمفردها أن تفعل الكثير.

أردت غرفة مليئة بالبخار ورائحة اللافندر أو الخوخ.

كان هناك وعاء من الصابون السائل معلق على الحائط بجوار الحوض. قمت بضخ أقصى قدر يمكن أن تحمله يد واحدة، ثم فتحت باب كابينة البانيو بيدي الأخرى.

كما لو كان بفعل السحر، انتصبت على الرف زجاجات الشامبو والبلسم والصابون الخاصة بالفنادق. أدرت الصنبور وغسلت الصابون الكيميائي الأصفر نحو البالوعة. مع ارتفاع درجة حرارة المياه، قمت بفحص زجاجات الفندق الصغيرة. كانت برائحة أوكالبتوس. خطوت تحت الماء وأدخلت نفسي في المربع المبلط بقطع القرميد الخضراء. صِغَر تلك المساحة كان مريحًا. كل ما سمعته كان صوت تساقط الماء.

ملأت رائحة الأوكالبتوس الغرفة.

غسلتُ شعري بالشامبو وشطفتُه حتى أصبحت الزجاجة فارغة.

غسلت وجهي وجسدي بالصابون. تركت بلسم الشعر فوق رأسي لفترة طويلة جدًا. في كاليفورنيا، كنا دائمًا قلقين من الجفاف، فكنا نحافظ دائمًا على كل قطرة ماء. لكني بعيدة الآن.

همستُ:

- أنا بعيدة.

مكثت لفترة أطول. استمر الماء الساخن إلى الأبد. كنت أعرف أنني سأتمكن من غسل الأوساخ والشحوم، ولكن الوحشية في نظراتي كانت أكثر صعوبة، وهذا هو أسوأ جزء.

أخبرت نفسي أن أتنفس فقط.

أخذت نفسًا عميقًا.

أخرجته.

مرارًا وتكرارًا. حتى نسيت أنني كنت أستحم في مساكن الطلبة في نيويورك، وحتى لم أعد أعلم أي شيء.

لم يعد ممكنًا إعادة ارتداء الملابس المتسخة، لكن لا توجد معي أي ملابس نظيفة.

اخترت أفضلها حالة وأقلها رائحة، وحشرت الباقي في الغسالة مع بعض المنظفات التي اشتريتها من آلة البيع. ثم ذهبت للبحث عن متجر الطلاب، متمنية العثور على شيء آخر لارتدائه في الوقت الحالي.

كان المتجر عبارة عن فوضى. احتشد الآباء وأطفالهم في الممرات، بعضهم يبدي إعجابه بالهدايا التذكارية والبضائع التافهة، بينما البعض الآخر يشكو من غلو أسعار الكتب. أخذ المبتدئون القادمون يتذمرون ويتململون بقلق؛ كل شيء كان أهم شيء على الإطلاق.

أما أنا فكنت غير مرئية، تحركت بصمت بينهم نحو قسم الملابس، الشخص الوحيد الموجود هناك هو أنا.

ما وجدته ملأني رهبة.

كانت هناك قمصان، وقمصان بولو، وبلوزات، وسراويل رياضية وسراويل قصيرة. سراويل داخلية وسراويل ملاكمة وحمالات صدر. ملابس نوم وقبعات وجوارب ونعال. بل كان هناك فستان!

كل الملابس كانت مزينة بألوان الكلية والتميمة الخاصة بالفريق، وكلها نظيفة جدًا.

اشتريت كمية ملابس بقيمة تزيد على ثلاثمائة دولار. عندما قمت بتمرير بطاقة الصراف الآلي بالماكينة، عرفت أن أموالي سوف تنفد سريعًا بتلك الطريقة. صحيح أن هذا لن يحدث قريبًا، لكن لن يمر وقت طويل قبل أن يحدث.

ما لم أجد طريقة لبدء وضع بعض الأموال إلى الحساب، سأكون مفلسة في غضون عام. طلبت استخدام غرفة قياس الملابس في طريقي للخروج، وارتديت حمالة الصدر والملابس الداخلية النظيفة. كانت السراويل الداخلية منقوشًا عليها صورة التميمة على المؤخرة. بدا منظرها مضحكًا نوعًا ما،

حتى لو كنت أنا فقط من سيراها. حمالة الصدر كانت رياضية أكثر من أي شيء آخر كان لدي من قبل، لكنها كانت لطيفة على أي حال.

كان اليوم حارًا لذلك اخترت السراويل القصيرة، ممتنة لأنني شقراء، فهذا يسمح لي أن أُظهِر ساقيّ حتى لو لم أكن قد حلقتهما لبعض الوقت. جاء أخيرًا دور القميص، كانت لا تزال هناك بعض التجاعيد موجودة عليه من آثار طيه.

نظرت إلى نفسي في المرآة الضخمة.

كان شعري نظيفًا وناعمًا، ولا يزال رطبًا بعض الشيء. الملابس تناسبني بشكل جيد. فاحت مني رائحة مثل رائحة المنتجع الصحي.

باختصار بدوت مثل أي فتاة أخرى، مختلفة كثيرًا عن صورة المشبوهة التي كنت عليها منذ ساعتين.

توقفت عند غرفة الغسيل في طريق العودة، لكن بدلًا من وضع ملابسي في المجفف، رميت بها في القمامة.

كانت «هانا» في غرفتها عندما عدت مرة أخرى، وهذه المرة كان والداها هناك أيضًا. والدتها تقوم بفرد ملاءة على سريرها، بينما زوج والدتها يعلق ملصقًا لعرض موسيقي من برودواي.

- مرحبًا.

قلت من مكاني عند المدخل.

كم مرة تحصل على فرصة للقيام بشيء ما مرة أخرى، للقيام به بشكل صحيح؟ أنت تحصل على فرصة واحدة فقط لتترك انطباعًا أوليًا، ما لم يكن لدى الشخص الذي تقابله حالة نادرة ونوع معين من الكرم والتسامح. النوع الذي يمنحك فائدة الشك، النوع الذي يقول في سره: «بمجرد أن أتعرف إليها بشكل أفضل، سيتضح أنها فتاة جيدة على الأرجح»، وليس من النوع الذي يقول: «لا. غير مقبول».

النوع الذي يقول: «يمكنكِ أن تفعلي ما هو أفضل. والآن أريني».

النوع الذي تنتمي له «هانا»، ولكم أحسد نفسي على أن حظي كان حسنًا ليلقيها القدر في طريقي كرفيقة غرفتي.

- لا بد وأنكِ «مارين»! كنا نتوق لمقابلتك!

قالت والدتها. قال زوج والدتها:

- أخبرينا الآن. هل اسم «مارين» مشتق من كلمة «بحري» marine، أم من اسم مقاطعة «مارين»؟

قلت:

- المقاطعة. تشرفت بلقائكما.

صافحتهما.. قالت «هانا»:

- تشرفت بلقائك يا «مارين».

ابتسمنا لبعضنا بعضًا كما لو أن لقاءنا في الصباح لم يحدث قط. أكملت «هانا»:

- آمل ألا تمانعي في أنني استوليت على هذا الجانب.

- لا.. على الإطلاق.

- هل غادرت عائلتك بالفعل؟

سألتني والدة «هانا». أجبتها على الفور:

- في الواقع، لم يتمكنوا من المجيء. بدأت موضوع الاستقلال بذاتي في وقت مبكر قليلًا.

قال والد «هانا»:

- حسنًا، أخبرينا كيف يمكننا المساعدة!

- هل لديكِ ملاءات؟

سألتني والدتها، وهي تطوي غطاء سرير «هانا». هززت رأسي بـ «لا». حدق الفراش عاريًا نحوي. تساءلت عن عدد الأشياء الأخرى التي لم أخطط لها. قالت «هانا»:

- لقد أحضرت أمي الكثير من الملاءات.

- حسنًا، من الجيد أنني فعلت هذا! ستنفعنا الآن.

هكذا قالت والدتها تدافع عن نفسها. سرعان ما بدا جانب «هانا» من الغرفة كما لو كانت تقيم هناك لأشهر بالفعل، بينما بدا جانبي خاليًا إلا من بعض الملاءات المخططة باللون الأحمر، ووسادة ناعمة، وبطانية ذات لون كريمي.

- شكرًا جزيلًا.

كذا قلت لوالديها عند مغادرتهما. حاولت أن أبدو ممتنة بشكل عرضي لكن دون مبالغة، وليس ما شعرت به حقًا؛ أنهم قد أنقذوا حياتي.

وظلت «هانا» تنقذني بعدها.

أنقذتني بعدم طرح الأسئلة أبدًا، وإنما بدأت القراءة لي عن النحل وعلم النبات والتطور. أنقذتني بالملابس التي أقرضتها لي ولم أردها قط. أنقذتني بمقاعد بجانبها في صالة الطعام، مع مراوغات سريعة عندما يسألني الناس أسئلة لم أستطع الإجابة عليها، بقراءة الفصول بصوت عالٍ، وبالخروج الإجباري من المسكن والتوجه إلى محل البقالة، وزوج من أحذية الشتاء.

****

الفصل السادس والعشرون

أخذت دبوسين من الجرة على مكتب «هانا» واقتربت من اللوحة الفارغة الخاصة بي. علقت السلسلة الورقية التي على شكل ندف الثلج على الجزء العلوي منها، ثم أرسلت صورة للمنظر إلى «هانا» برسالة نصية. ردت على رسالتي على الفور، برسالة فيها علامتي نصر وثمة قلب بينهما.

شعرت بإحساس جيد للغاية. أردت أن أقوم بما هو أكثر. أخرجت وعاء الزرع الجديد من حقيبته ووضعته على مكتبي. بدت نبتتي مزدهرة، كل ورقة فيها نضرة. بحذر حررت جذورها من الكوب البلاستيكي الذي أتت فيه، صببت التراب المتبقي في الوعاء الذي اشتريته من «كلوديا»، ثم وضعت الجذور في المنتصف، وضغطت على التربة من حوله. سكبت بعض الماء المتبقي من الكوب الذي كانت «مابيل» تستخدمه. سأحتاج إلى جلب المزيد من التربة عندما أستطيع، لكن هذا يكفي الآن.

عبرت الغرفة والتفتُ إلى مكتبي.. سلطانيتان صفراوان، ووعاء وردي به نبات أخضر مورق، وخيط من رقاقات الثلج الرقيقة.

منظر جميل، لكنه يحتاج إلى شيء آخر.

سحبت كرسي مكتبي إلى خزانة ملابسي ووقفت عليه حتى أتمكن من الوصول إلى الرف العلوي. وجدت الشيء الوحيد هناك: صورة والدتي في الثانية والعشرين من عمرها وهي تقف في الشمس. استعرت أربعة من الدبابيس الفضية التي تملكها «هانا»، واخترت المكان المناسب على لوحتي،

على يمين قلادة رقاقات الثلج، ودفعت الدبابيس للداخل مقابل زوايا الصورة، بحيث ترفعها دون صنع أي ثقوب فيها.

كانت صورة كبيرة، على الأرجح ثمانية في عشرة إنشات.

لا أقول إنه لا يخيفني إخراجها للضوء.

وقفت والدتي على شاطئ المحيط. تحمل لوح ركوب الأمواج الخاص بها تحت ذراعها، وترتدي بدلة سوداء مبللة وشعرها مبلل كذلك.. عيناها محدقتان وابتسامتها واسعة.

تخيفني، نعم، لكني شعرت أيضًا بأن هذا هو الشيء الصحيح لفعله.

أخذت أحدق إليها.

أخذت أحاول وأحاول أن أتذكر.

بعد ساعتين، أخذت حمامًا طويلًا. تركت الماء يغمرني.

عندما أعود، حيثما كان الوقت الذي سأفعل فيه ذلك، سأحتاج إلى العثور على شيء من مقتنيات «جرامبس» لأرميه أو لأدفنه.. لم أستطع الضحك على مزحة «جونز». بدلًا من ذلك، أخذت المزحة تتردد مثلما تفعل الأشياء الحقيقية عندما أحاول إنكارها. لو كان «جرامبس» بقبر. لو كان «جرامبس» بقبر...

لقد مر وقت كافٍ الآن لكي أتفهم أن «مابيل» محقة. لكن نسخة أخرى من الحكاية تثور في بعض الأحيان بداخلي، صورة له وجيوبه ممتلئة ببضعة آلاف من الدولارات، وهو يقامر بنقود أبقاها لنفسه، في طريقه إلى جبال روكي. أحتاج إلى منحه قبرًا لاحتوائه. أحتاج لدفن شيء ما لإرساء شبحه لأتخلص من مطاردته المحمومة لي.

في أحد هذه الأيام، في المستقبل غير البعيد، سأقوم برحلة إلى مرأب «جونز»، وسأبحث في أشيائنا القديمة، وسأجمع صندوقًا من الأغراض بدلًا من الرماد، وسوف أجد مكانًا ليستريح فيه الصندوق.

قمت بشطف البلسم عن شعري. أغلقت الماء واستنشقت البخار.

كان يرتدي سلسلة ذهبية حول رقبته في المناسبات الخاصة. أتساءل عما إذا كان «جونز» يحتفظ بها لي. جففت نفسي ولففت جسدي بمنشفة.

عندما عدت إلى غرفتي، تفقدت هاتفي. لا تزال الساعة الثانية فقط. أخذت إشارة من القائمة التي كتبتها في أول ليلة لي هنا بمفردي وصنعت الحساء.

قمت بتقطيع الخضار وغلي المعكرونة، ووضعت مكعبًا من مرق الدجاج في قدر.

بمجرد أن خلطت جميع المكونات ولم يعد هناك إلا أن أنتظر بينما تنضج، انتقلت إلى المقالة الثانية في كتاب الوحدة، لكن عقلي مليء جدًا بنسخ كثيرة مختلفة من قصة ما حدث بالصيف الماضي.

هناك نسخة من الأحداث أكون فيها أنا من خذلته.. نسخة توقفت فيها عن العودة إلى المنزل فتوقف هو عن إعداد العشاء، وأنا لست موجودة لرؤية كم يحتاج لي. ثم هناك نسخة أخرى من القصة يكون فيها هو من خذلني. نسخة أشعر فيها بأنه لا يريدني هناك، أنني عائق. لذلك بقيت بعيدة، من أجله ومن أجلي كذلك. حتى لا أضطر لأن أواجه رفضه أبدًا. حتى أتمكن من التظاهر أنني أهم شيء بالنسبة له، كما هو بالنسبة لي.

لأنه إذا كان لدينا أي شعور بالحفاظ على الذات، فإننا نقوم بتقديم أفضل ما لدينا.

قدم لي كعكات وتوصيل إلى المدرسة.

قدم لي الأغاني والعشاء على طاولة في ضوء شمعدانات نحاسية.

قدم لي رجلًا بقلب حساس وحس فكاهة مراوغ، والمهارة الكافية في لعب الكوتشينة ليفوز لي بتكلفة مصاريف أول سنة بالكلية -الرسوم الدراسية والسكن والمأكل- وأخذت كل شيء من تلك الأشياء الجيدة وأخبرت نفسي أنها تجعلنا مميزين. أخبرت نفسي أنها تعني أننا كنا عائلة مثل «مابيل» و«آنا» و«خافيير».. أخبرت نفسي أننا لم نفتقد أي شيء.

كنا كشريكين بالمؤامرات، «جرامبس» وأنا. في ذلك، على الأقل، كنا معًا.

عندما صدرت الكتب السنوية، لم أقلب ظهرها مباشرة مثل الآخرين للعثور على صفحات طلبة السنة الأخيرة. بدلًا من ذلك بدأت من المقدمة. أخذت أتفقد كل صفحة من صفحات طالبات السنة الأولى.. لم أكن أعرفهن حتى، لكنني أخذت وقتي وكأنهن صديقاتي. تفقدت صفحات النادي، وصفحات طالبات السنة الثانية، وصفحات الفرق الرياضية. صفحات الصغار والاستعراضات، والمعلمين.

ثم ظهرت لي أول صفحة من صفحات طالبات السنة الأخيرة، وقرأت كل اقتباس مذكور، حدقت بشدة إلى صور كل هؤلاء الفتيات وهن أطفال. الكثير من الرؤوس الصلعاء والفساتين الصغيرة للغاية والأيادي الضئيلة، هناك الكثير من الصفحات التي مررت بها قبل أن أصل لصفحتي.

بمجرد أن قلبت الصفحة رأيت نفسي.

بدلًا من ترك مساحة فارغة حيث كان من المفترض أن تكون صورتي كرضيعة، فقد قام المحررون بتكبير صورتي الحالية بما يكفي لشغل مساحة الصورتين. كان كل ما حولي زميلات الدراسة كأطفال ثم صورهن الحالية؛ ثم هأنذا، كما لو كنت قد دخلت العالم كمراهقة بالثامنة عشرة من عمرها، ترتدي بلوزة سوداء بلا أكمام وتبتسم ابتسامة قاسية. اعتقدت أنني لا يمكن أن أكون الوحيدة التي هي كذلك، لكني وصلت إلى نهاية الكتاب، وكنت كذلك.

حتى «جودي برايس» التي تم تبنيها في الثامنة من عمرها، كان لديها صورتها وهي رضيعة!

حتى «فين زوو»، الذي احترق منزله في العام السابق!

في تلك الأيام والليالي في الفندق، ظننت أنني خائفة من شبحه، لكني لم أكن كذلك.

كنت خائفة من وحدتي.

وكيف تم خداعي.

والطريقة التي أقنعت بها نفسي كثيرًا: أنني لم أكن حزينة، وأنني لم أكن وحدي.

كنت خائفة من الرجل الذي أحببته، وكيف اتضح بعد كل هذا الوقت الذي عشناه معًا أنه غريب عني.

كنت خائفة من كرهي له.

خائفة من كم رغبت في عودته.

خائفة مما كان في تلك الصناديق وما قد أكتشفه يومًا ما، والفرصة التي قد أكون ضيعتها بتركها خلفي.

كنت خائفة من الطريقة التي كنا نعيش بها دون فتح الأبواب.

كنت أخشى أننا لم نكن في المنزل حقًا مع بعضنا بعضًا.

كنت خائفة من الأكاذيب التي قلتها لنفسي.

والأكاذيب التي قالها لي.

كنت خائفة أن تصادم سيقاننا تحت منضدة الطعام لتناول الوجبات معًا لم يعنِ شيئًا.

طي الغسيل لم يكن يعني شيئًا.

الشاي والكعك والأغاني -كلها- لم تكن تعني شيئًا.

****

الفصل السابع والعشرون

كنت خائفة من أنه لم يحبني قط.

****

الفصل الثامن والعشرون

بدت السماء الشتوية رمادية لامعة.. لمحت طائرًا يأتي ويذهب خارج النافذة، انقصفَ فرعٌ رفيعٌ وسقط.

كان يجب أن أسقط معه.

****

الفصل التاسع والعشرون

جلست على سريري، متكئة على الحائط، أشاهد تساقط الثلوج مرة أخرى.

أردت سماع صوت الرعد فوق المحيط.. أردت يومًا باردًا ولكنه أتى جافًا.. أردت الشعور الذي يأتي مع ثقل الغيوم على مبعدة. صوت الإغاثة من الجفاف.

فكرة أن يكون لك منزل تعود إليه.. الحطب في الموقد والحرارة والضوء.

لم أسأل «جونز» عما كان يقصده عندما قال إنه احتفظ بالأشياء الحقيقية. إذا كان يقصد الأصداف التي جمعتها، أم يقصد البطانية ذات اللونين الأزرق والذهبي. أو طاولة المطبخ بأوراقها القابلة للطي والكراسي التي تتماشى معها. أحاول تخيل شقة مستقبلية. مطبخي الخاص بزخارف على الحائط. أرفف تراصت عليها مجموعتي من فخار «كلوديا».

لا أعرف ما إذا كنت أرى الطاولة والكراسي والبطانية بتلك الصورة.. لا أعرف ما إذا كنت أريد رؤيتهم حتى.

إذا واصلت النظر من النافذة، سأرى الثلج يتساقط فوق الطرق من جديد، ليقوم بتغطية الأشجار حيث كانت بعض الفروع قد بدأت تظهر.

وجدت فيلمًا وثائقيًا على الإنترنت عن امرأة عجوز تصنع الفخار كل يوم من منزلها في مزرعة. وضعت الكمبيوتر على كرسي مكتبي وسحبت بطانياتي لأعلى وشاهدته.

في غضون عشرة أيام سيحين وقت الاتصال بـ «كلوديا».. آمل أنها ستظل تريدني. هناك الكثير من اللقطات المقربة ليدي الخزّافة في الطين. لا أطيق الانتظار حتى أشعر بملمس الطين على يديّ.

ظل جسدي ساكنًا. هذا الفيلم هادئ جدًا.

أريد أن أذهب للسباحة، لكني لا أستطيع. لا يزال باقٍ أكثر من ثلاثة أسابيع حتى يعود الجميع ويعاد فتح المسبح وأشعر بنفسي وأنا أقوم بالغطس وسط المياه، ثم أقوم بالتجديف. لكن عليّ أن أفعل شيئًا. حالًا. أطرافي تتوسل إلي.

لذلك أوقفت الفيلم مؤقتًا، ونهضت وخرجت للردهة.

خلعت خُفَّيَّ وشعرت بوبر السجادة تحت قدميّ.

حدقت إلى الردهة الطويلة الفارغة، ثم ركضت. أخذت أركض حتى وصلت إلى النهاية، ثم ركضت للخلف عائدة، وشعرت أنني بحاجة لما هو أكثر، لذلك فتحت فمي هذه المرة وأخذت أصرخ ملء رئتيّ وأنا أركض. ملأت ذلك البناء التاريخي العتيق بصوتي. ثم دفعت الباب الذي يقود لدرجات السلم ليتردد صوتي. ركضت إلى قمة المبنى، لا لأتمتع بالمنظر من فوق، بل لأشعر بنفسي أتحرك، أخذت أركض وأصرخ وأركض بكل قاعة وردهة موجودة في كل طابق. حتى أخذت ألهث وقد غطاني العرق وشعرت بالامتلاء بطريقة صغيرة ولكنها حيوية.

عدت إلى غرفتي وانهرت على سريري. كان لون السماء يتغير، يصبح أكثر قتامة.

سأستلقي هنا، في هذا المكان الصامت، وأحدق خارج النافذة حتى يحل الليل. سأشهد كل لون يحل بالسماء.

وقد فعلت.. جعلني هذا أشعر بالسلام.

لكن الساعة لا تزال الخامسة والنصف فقط، ولا يزال هناك عشرة أيام أخرى قبل أن يمكنني الاتصال بـ «كلوديا»، وثلاثة وعشرون يومًا آخر حتى يعود الجميع هنا. سأجن على الأرجح -إن لم أكن قد جننت بالفعل- قبل انقضاء ربع تلك المدة.

لا! توقفي عن الحديث عن نفسك بتلك الطريقة!

كنتِ بخير منذ لحظة، وسوف تتعلمين كيف تكونين بخير مرة أخرى.

أعدت تشغيل الفيلم وشاهدته حتى النهاية، نزلت على الشاشة قائمة فريق العمل وتغيرت الألوان على الشاشة بعد هذا. ثم ظهرت قائمة بالأفلام الوثائقية المشابهة التي قد تعجبني. مررت بعيني عليها لأرى ما تدور حوله، لكن لم يُثِر أي منها انتباهي بما يكفي للنقر عليه.

استلقيت بدلًا من ذلك. نظرت إلى السقف وتذكرت الباب الذي انغلق بيني وبين «مابيل».

لوحت مودعة من داخل سيارة الأجرة. كان حذاؤها جافًا بحلول ذلك الوقت -وضعناهما بجوار المدفأة وتركناهما هناك طوال الليل- لكن الحذاء بدا ملطخًا ومشوهًا.

تساءلت عما إذا كانت ستقوم بإلقائه في سلة المهملات عندما تعود إلى المنزل. لا بد وأنها قد وصلت إلى المنزل الآن. نهضت لأجلب هاتفي. إذا أرسلت لي رسالة، فأنا أريد أن أقرأ رسالتها بمجرد وصولها.

أريد أن يصل ردي لها فورًا. استلقيت واضعة هاتفي بجواري. أغلقت عينيّ وانتظرت.

ثم سمعت شيئًا.

صوت سيارة!

فتحت عينيّ، فلمحت شعاعًا من النور يسبح فوق السقف. لا بد وأنه «تومي»، يتفقد أموري أو يتفقد المبنى.

أشعلت النور وخطوت إلى النافذة لألوح له. لكنها ليست شاحنة -إنها سيارة أجرة- وتوقفت هنا أمام المدخل مباشرة، وانفتحت أبوابها، كل أبوابها دفعة واحدة.

لم يهمني أن الثلج يتساقط؛ فتحت نافذتي بسرعة لأنهم كانوا هم!

فتح كلٌّ من «مابيل» و«آنا» و«خافيير» وسائق سيارة الأجرة حقيبة السيارة.

- أنتم هنا؟

أخذت أصرخ. نظروا لأعلى وقاموا بالتلويح لي. أرسلت لي «آنا» قبلة بعد قبلة. سارعت بالخروج من غرفتي ونزلت الدرج راكضة حتى كدت أن أدق عنقي أكثر من مرة. توقفت عند نافذة الدور الأول ونظرت منها، لأنني خلال الثواني القليلة التي مرت فكرت أنني لا بد وقد تخيلت هذا الأمر، كما تخيلت صوت «جرامبس» وهو يغني بالفندق، فقد رأيت بعينيّ «مابيل» وهي ترحل متجهة للمطار هذا الصباح. يجب أن تكون في سان فرانسيسكو الآن.

لكنهم ما زالوا هنا، «مابيل» و«آنا» وقد تراصت حقائب بجانب أقدامهما، وتدلت حقائب أخرى من أكتافهما، بينما «خافيير» والسائق يصارعان لإخراج صندوقٍ عملاقٍ من حقيبة السيارة.

عدت إلى بئر السلم واستكملت طريقي لأسفل، لأسفل، قافزة فوق بعض درجات السلم. ربما كنت أطير. وبعد ذلك صرت في الردهة وهم يقتربون.

السيارة تغادر، لكنهم لا يزالون هنا.

- هل أنتِ غاضبة؟

سألت «مابيل». لكني كنت أبكي بشدة فلم أتمكن من الإجابة.

كنت مليئة بالسعادة لدرجة منعتني من الشعور بالحرج لأنني جعلتهم يفعلون ذلك.

- Feliz Navidad!

هكذا هتفت «خافيير»، وحسب ثقافتي الإسبانية الكسيحة كنت أعرف أن معناها «عيد ميلاد سعيد»، وهو يميل بالصندوق على الحائط، وفتح ذراعيه على اتساعهما لاحتضاني، لكن «آنا» وصلت إليّ أولًا، وسحبتني بذراعيها القويتين نحوها، ثم صاروا جميعًا من حولي، كلهم، أذرعهم في كل مكان، والقبلات التي تغطي رأسي، وأنا أقول شكرًا، مرارًا وتكرارًا، دون أن أستطيع أن أجعل نفسي أتوقف، حتى لم تعد هناك إلا ذراعي «خافيير» من حولي، وهو يهمس في أذني أن أهدأ، ويربت على ظهري بيده الدافئة، قائلًا:

- ششش، اهدئي يا حبيبتي، نحن هنا الآن. نحن هنا.

****

الفصل الثلاثون

بمجرد وصولنا إلى الطابق العلوي، تفرقنا، وشرعنا في العمل.

قامت «مابيل» بقيادتهما إلى المطبخ، وتبعتهم أنا بالخلف، منهكة ولكن شاعرة كأنني محاطة بالضوء. قالت «مابيل» بخبرة:

- الأواني والمقالي هنا. وهنا الملاعق والمغارف.

- أين صواني الخبز؟

سألتها «آنا»، لتجيبها «مابيل»:

- سأبحث.

لكني تذكرت أين هي. فتحت الدرج الموجود تحت الفرن. قلت:

- هنا.

قال «خافيير»:

- نحتاج إلى خلاط لإعداد صلصة «المول» المكسيكية.

- أنا جلبت خلاطًا في حقيبتي.

أخبرته «آنا». سحبها بين ذراعيه وقبلها. قالت وهي لا تزال في حضنه:

- يا فتاتان، هل يمكنكما القيام بإعداد الشجرة؟ سننتهي من قائمة البقالة التي تنقصنا ثم نبدأ الطهو.. لدينا حوالي ساعة قبل أن تعود سيارة الأجرة.

أخبرني «خافيير»:

- لقد وجدت لنا مطعمًا.. يقدم قائمة عشاء عيد ميلاد خاصة.

- أي شجرة؟

سألت، فأشارت «مابيل» إلى الصندوق. حملناه في المصعد معًا وصعدنا إلى غرفة الاستراحة.

سنتناول عشاء عيد الميلاد هناك فوق المنضدة، ونسترخي على الأرائك، ونتأمل الشجرة. قلت:

- يمكننا النوم هنا، وإعطاء والديكِ غرفتي.

- عظيم.

وجدنا مكانًا مناسبًا للشجرة بالقرب من النافذة وفتحنا الصندوق.

- من أين جلبتموها؟

سألتها وأنا أتذكر شجر الصنوبر الطويل الذي كانوا يجلبونه دائمًا ويقومون بتزيينه بالزينة المصنوعة يدويًا. أجابتني:

- من جارنا، على سبيل الإعارة.

أتت الشجرة في شكل قطع. بدأنا بنصب العمود الموجود في المنتصف، ثم شرعنا بتركيب الفروع، الفروع الأطول بالأسفل، والفروع الأقصر بالأعلى. كلها مغطاة بلون أبيض كالثلج، كلها مغطاة بالأضواء.

- الآن حانت اللحظة الحاسمة.

قالتها «مابيل»، وهي تولج القابس بالفيشة.

توهجت مئات من المصابيح الصغيرة بالضوء.

- إنها في الواقع جميلة حقًا.

أومأت برأسي أوافقها. أخذت خطوة للخلف.

بتلك اللحظة، تسبب منظر الشجرة في جعل ذكرى معينة تطفو فوق بِركة ذكرياتي، ذكرى لـ «جرامبس» وهو يحمل مجموعة من الصناديق بعناية شديدة لغرفة المعيشة. يفتح أغطيتها على الزينة الملفوفة بالمناديل الورقية للحفاظ عليها. عصير التفاح والكعك. تدلى زوج من تماثيل الملائكة الصغار

بين إصبعه وإبهامه وهو يبحث عن الفرع المناسب لتعليقهما. شعرت بشيء ينهش صدري، وصار التنفس يؤلمني.

همست:

- يا للمسيح، هذه شجرة رائعة.

كان المطعم المقصود مطعمًا إيطاليًا، بمفارش بيضاء ونُدُّل يرتدون ربطات عنق سوداء.

أحاطت بنا العائلات والضحكات. اختارت «آنا» النبيذ، وعاد النادل ومعه الزجاجة.

- كم عدد الذين سيستمتعون بنبيذ «كابيرنت» هذا المساء؟

- كلنا.

قالها «خافيير» وهو يمر بذراعه عبر الطاولة، كأننا نحن الأربعة قرية، بلدٌ، العالم كله.

- رائع!

قالها النادل، كأن قوانين الشرب المتعلقة بالسن ليست موجودة خلال العطلات، أو ربما لم يسبق لها أن وُجِدَت على الإطلاق. سكب النبيذ في كل كؤوسنا، وطلبنا الحساء والسلطات وأربعة أنواع مختلفة من المعكرونة، لم يكن من بينها طبق مميز بشكل خاص، ولكن كل شيء جيد بما فيه الكفاية. قاد كل من «آنا» و«خافيير» المحادثة، يداعبان «مابيل» وبعضنا بعضًا، بأحاديث مليئة بالحكايات والحيوية، وبعد هذا استقللنا سيارة أجرة إلى متجر «ستوب آند شوب»، وبقي السائق في انتظارنا بينما نحن نتسابق عبر الممرات، نلتقط كل شيء في قائمة البقالة. أطلق «خافيير» سبابًا وهو يقول إن بهارات القرفة لديهم سيئة للغاية ومغشوشة؛ وأسقطت «آنا» كرتونة من البيض انكسرت بصوت عالٍ على الأرض، لينز منها سائل لزج أصفر. ولكن بصرف النظر عن كل ذلك، حصلنا على كل ما يبحثان عنه، واستقللنا سيارة الأجرة مع مشتريات البقالة، وعدنا للمهجع.

- هل هناك أي شيء يمكننا القيام به للمساعدة؟

سألت بعد أن أفرغنا أكياس البقالة في المطبخ. قال «خافيير»:

- لا داعي، فكل شيء تحت السيطرة.

- والدي هو القائد الليلة، وأمي هي الشيف المساعد.. مهمتنا هي البقاء بعيدًا عن طريقهما فقط.

- حسنًا، موافقة.

أجبتها.. ذهبنا إلى المصعد ولكن لم يضغط أي منا الزرَ الذي يقود لطابقي. قلت:

- دعينا نصعد إلى السطح.

لا بد وأن المنظر هو نفسه كما كان بالليلة الأولى التي صعدنا فيها هنا، لكنه بدا أجمل وأكثر إشراقًا، وعلى الرغم من أننا لا نستطيع أن نسمع «آنا» و«خافيير» أثناء قيامهما بالتقطيع والتقليب والضحك، فقد شعرت أننا أقل وحدة. ولكن ربما ليس للموضوع علاقة بـ «آنا» و«خافيير» على الإطلاق.

- متى قررتم فعل هذا؟ أقصد أن تعودوا لي.

سألتها.

- ظننا أنكِ ستأتين إلى المنزل معي. كانت تلك خطتنا الوحيدة بالبداية. لكن عندما أدركت أن هناك احتمالًا لا بأس به في ألا أتمكن من إقناعك، فكرنا في القيام بذلك.

- الليلة الماضية، عندما كنتِ على الهاتف...

أومأت برأسها مكملة عبارتي:

- كنا نخطط لهذا. أرادا مني إخبارك قبل قدومهما، لكني عرفت أنني إذا فعلت هذا فربما تستسلمين وتعودين معي قبل أن تكوني جاهزة بالكامل.

ثم استندت بيدها على النافذة مكملة:

- نحن جميعًا نفهم. ندرك منطقك في عدم الرغبة بالعودة إلى الديار بعد.

ثم أزالت يدها، ولكن بَصمَتها كانت لا تزال هناك، بقعة من الدفء على الزجاج.

- عندما كنت أنتظر والديّ في المطار، ظللت أفكر في شيء أردت أن أسألك إياه.

- حسنًا.

أجبتها، لكنها ظلت صامتة.. شجعتها بقولي:

- اسألي.

- كنت أتساءل عما إذا كان هناك أي شخص هنا يثير اهتمامك.

احتقنت وجنتاها خجلًا، لكنها أخذت تحاول إخفاء هذا.

- أوه، لا.. لم أفكر في أشياء من هذا القبيل. ليس الآن على أي حال.

بدت عليها خيبة أمل، ولكن ببطء، تغير تعبيرها.

- دعينا نفكر في الأمر الآن. لا بد وأن هناك شخصًا ما.

- ها أنتِ تفعلينها مرة أخرى، هذا يشبه موضوع «كورتني» و«إليانور».

أخذت تهز رأسها نفيًا مجيبة:

- ليس الأمر هكذا. أنا فقط... سوف يجعلني هذا أشعر بتحسن.. وأنا متأكدة أن من شأنه أن يجعلك تشعرين بتحسن أيضًا.

- لست بحاجة إلى أن أكون مع شخص ما كي أكون بخير.. لا بأس بالفعل. أنا بخير بمفردي.

- «مارين»، أنا فقط أطلب منكِ التفكير في الأمر. أنا لا أقول إن عليكِ أن تتخذي بعض القرارات الكبيرة أو الوقوع في الحب أو أن تفعلي أي شيء يعقد حياتك.

- أنا بخير كما أنا.

هكذا أجبت، لكن لا يبدو عليها أنها تنوي التراجع. قالت:

- هيا.. فكري.

هذه كلية نيويورك -وهي ليست مدرسة كاثوليكية- وكل شخص هنا يتصرف على راحته.. لا يجب على جميع الفتيات أن يكون لهن صديق حميميّ أو عشيق أو أي شيء. هناك فتيات كثيرات وحيدات مثلي ولم يهتم أحد بأن يطالبهن بالتفكير في الأمر للخروج منه كأنه عدوى ما.

سمعت أن هناك الكثير من الاجتماعات المشابهة لجلسات العلاج الجماعية، مجموعات للنقاش حول المشكلات التي يتعرض لها بعض الطلاب كالتنمر، أو المشكلات التي يعاني منها بعضهم، كالبدانة وإدمان تناول الطعام أو أي أنواع أخرى من الإدمان.

لكني لم أنضم لمثل تلك الاجتماعات قط، فقط لأنني لا أتحدث عن الأشياء التي تركتها ورائي.

فبعد كل شيء، كلنا نتعرض لخيبات مختلفة، لا أحد على ظهر هذه الأرض لم يمر بخيبة ما بشكل أو بآخر، مهما بدا لك قويًا أو ذكيًا، لا تفرق الخيبات بينهم وبيننا مطلقًا.. لكنهم لا يُظهِرون هذا.. يكونون أمام العالم بخير، ويجب أن نكون نحن كذلك بخير، أو نتظاهر بهذا على الأقل.. لن تتوقف الأرض عن الدوران أو تتوقف الشمس عن الشروق مهما ألم بنا من المآسي والخطوب.

انتزعتني «مابيل» من أفكاري بقولها:

- أنتِ تفكرين في شخص ما.

- ليس حقًا.

- أخبريني.

أستطيع أن أرى كم تريد هذا، لكني لا أريد أن أفعل ذلك. حتى لو كان هناك شخص ما، كيف يمكنني أن أظل أخبر نفسي أنني بخير وراضية بهذا القليل، أن كل ما أحتاج إليه هو صداقة «هانا» وحمامات السباحة والحقائق العلمية وسلطانياتي الصفراء والحذاء الشتوي المستعار، إذا نطقت باسم صبي بصوت عال، هل سيصبح بتلك الطريقة شيئًا تمنيته؟ سألتني:

- هل هو وسيم؟

النظرة المرتسمة في عينيها جادة للغاية، شعرت بنفسي منفعلة للغاية للإجابة. لا.. لن أتحدث عن «جاك».. لا يستحق أن يتم ذكره من الأصل.. هو اختار أن يبتعد وأن يلقي بي في صفيحة قمامة ذكرياته، إذن فهو يستحق نفس الشيء من جهتي!

لكني أعتقد أنها تحتاج إلى سماع ذلك -لكي نمضي قدمًا وتغير الموضوع- لكني شعرت وكأنها خسارة أخرى. أن أفتح جرحًا آخر جاهدت لكي يظل في ركن مظلم داخل عقلي لم أحكِ عنه لأي شخص.. ولا حتى «هانا».. لماذا يجب أن أخرجه الآن؟

وسيمًا؟ نعم، كان وسيمًا للغاية.

لكم هو مرعب أنك تمر بجوار الأشخاص بالشارع غير عارف أنه ربما بمصادفة ما يمكن أن يصبح أحدهم هو حب عمرك الوحيد.. غير عارفٍ كيف يمكن أن ينكسر قلبك وروحك عندما تنفصلان فتعودان غرباء من جديد.

ربما آمل بالفعل في هذا الشعور مرة أخرى، مع شخص جديد. الشعور بأنك محبوب من شخصٍ ما بهذا العالم الواسع القاسي، وتبادل المكالمات والرسائل النصية على مدار اليوم.. متعة استكشاف تفاصيل شخصيته وذوقه بالأغاني والطعام والأفلام.. ما يحبه وما يكرهه.. وبالمقابل متعة الكشف عما تحبه ومعرفة مدى التشابه والاختلاف بينكما.

متعة ارتباط أغنية معينة به لأنها كانت تعمل بالمقهى الذي تلتقيان فيه عادة.

شعرت بشيء ما بداخلي ينكسر مفتوحًا، وشعرت بالضوء القادم من الأسفل لامعًا للغاية لدرجة أنه صار مؤلمًا، وما تبقى مني لا يزال هنا، مجروحًا، على الرغم من أنني أعرف أن كل شيء يحدث من أجل الأفضل. هذا هو ما يقولونه دومًا على الأقل، أليس كذلك؟

شعرت بيد «مابيل» تربت عليّ وتقول:

- هل تحبين أن نشاهد فيلمًا أو شيئًا من هذا القبيل؟

- نعم.

أجبتها. ألقينا نظرة أخيرة من النافذة نحو الليل المظلم، وتمنيت في سري للجميع بالخارج هذا النوع من الدفء. ثم عدنا للمصعد.

الجدران المصنوعة من خشب الماهوجني، والثريا.

أغلقنا الأبواب وبدأنا في النزول. وعندما انفتحت الأبواب مرة أخرى، وجدنا أنفسنا في غرفة الاستراحة، نقف أمام شجرة مزينة بالكامل، متوهجة بيضاء. لم تكن تشبه الشجرة التي كان «جرامبس» يجلبها، لكنها جميلة بطريقتها الخاصة. قالت «مابيل»:

- أيًا كان من هو، ربما سألتقي به في يوم من الأيام.

- ربما يومًا ما.

قلت ذلك مع الكثير من عدم اليقين، لكن من يدري.

«يومًا ما» هي كلمة مفتوحة. قد يكون معناها غدًا، أو يمكن أن تصل لعقود.

لو أن أحدهم أخبرني بينما أنا متدثرة تحت بطانيات الفندق الحقير الذي أقمت به قبل المجيء للمهجع أنني سأقابل «مابيل» ثانية يومًا ما، وأنني سأحكي لها قصة ما حدث يومًا ما وأشعر أنني أفضل بقليل، وأقل خوفًا بقليل، لم أكن لأصدق!

وقد مرت أربعة أشهر فقط منذ ذلك الحين، وهو ليس وقتًا طويلًا للغاية لو تحدثنا بعقلانية.

لا أقول إنني ربما سألتقي بـ «جاكوب»، على الرغم من أنني أعلم أنني يجب أن أفعل. لكني لا أستطيع أن أجبر نفسي على قولها.. ليس بعد على الأقل.

قالت «مابيل» وهي أمام التلفزيون، تتفقد الأفلام الموجودة:

- انظري.. إنه فيلم «جين آير». هل شاهدتِه من قبل؟

هززت رأسي نفيًا. لقد رأيت فقط النسخة القديمة الأبيض والأسود.

- ما رأيك؟ تكريمًا لليلتنا التي قضيناها دون كهرباء؟

ترددت، بينما استطردت هي:

- أو يمكننا مشاهدة فيلم خفيف.

ولكن لم لا؟ الرواية كانت ببالي منذ فترة، وأنا أعلم أحداثها جيدًا بالفعل. لن تكون هناك مفاجآت، لذلك قلت نعم. بدأ الفيلم بـ «جين» كامرأة شابة، تهرع هاربة من «ثورنفيلد» باكية. لقطة أخرى، هي وحدها وسط مشهد قاتم مقبض. سماء بدت كأنها تحترق، يزينها بريق الرعد والمطر. تعتقد أنها ستموت. ثم يعود الفيلم بالزمن للماضي وهي فتاة صغيرة ونعلم كيف بدأ كل شيء.

أقام «جرامبس» تلك الشجرة كل عام. كان يُخرِج الزينة التي اشترتها زوجته الميتة وابنته الميتة وتظاهر بأنه رجل فقد الكثير وتمكن من تخطي كل ذلك. تظاهــر، بالنســبة لي، أن عقله وقلبــه لم يكونــا مكانيــن مظلمين متشابكين.

تظاهر أنه عاش في منزل معي، حفيدته، التي كان يقوم بصنع الكعك من أجلها، وغالبًا ما يوصلها إلى المدرسة، ويعلمها الدروس المهمة حول كيفية التخلص من البقع وتوفير المال، بينما هو في الحقيقة يعيش في غرفة سرّية مع القتلى. أو ربما لا. ربما يكون الأمر أكثر تعقيدًا. هناك درجات من الهوس، من الوعي، من الحزن، ومن الجنون!

وازنت كل واحد من تلك الأيام والليالي في غرفة الفندق الحقير أمام الأخرى. حاولت أن أفهم ما حدث، ولكن في كل مرة كنت أفشل. في كل مرة اعتقدت أنني ربما قد فهمت، تأتي بعض القطع من المنطق لتُظهِر خطئي وتعيدني مرة أخرى إلى خانة عدم المعرفة.

عدم المعرفة يحبسك بمكان مظلم.

من الصعب الاستسلام لهذا.

لكني أعتقد أن عدم المعرفة هو المكان الذي نعيش فيه معظم الوقت. أعتقد أنه حيث نعيش جميعًا، لذلك ربما لا يجب أن يُظهِر داخلي كل هذا

الكم من الوحدة. ربما يمكنني التعامل معه وتقبله، فلو تقبلته وتعايشت معه ستصبح الأمور أسهل بالتأكيد.

وأما بالفيلم، فكانت «جين» تقف عند فراش موت عمتها. سامحتها وعادت إلى المنزل. وها هو السيد «روتشستر»، ينتظرها، بشخصيته الغامضة التي تخفي الكثير من الأسرار التي ارتكبها بماضيه المخيف.

لم تكن «جين» متأكدة مما يجب أن تشعر به نحوه، ما إذا كان يجب أن تثق به أو تخافه. الجواب هو كلاهما. هناك الكثير مما لم يخبرها به بعد. هناك موضوع زوجته المحبوسة في العلية. هناك الكثير من الأكاذيب التي قام بها عن طريق إغفال ذكر معلومات مهمة. هناك الخدعة التي سيلعبها عليها، والطريقة التي سيدعي بها أنه شخص آخر، ويشق طريقه إلى قلبها. سوف يخيفها. سوف تكون على حق في أن تخاف. هناك الكثير الذي كان بإمكاني اكتشافه إذا كنت قد عدت إلى المنزل بعد مركز الشرطة. كان بإمكاني إغلاق النوافذ بإحكام بحيث لا يتمكن شبحه من اقتحام المنزل والعبث بأشياء أمي.

كان بإمكاني لمس كل صورة.

كان بإمكاني تفقد رسائله للحصول على معلومات عنها. لا بد وأنه كانت هناك تلميحات من الماضي، منسوجة مع أحلام «جرامبس» بخصوص حياتها في كولورادو.

كان هناك الكثير لاكتشافه بخصوصها، حتى لو لم يكن نصف ما سيتم اكتشافه صحيحًا.

- ها هو المشهد المنتظر.

علقت «مابيل» وهي تتابع الفيلم. شعرت به أيضًا، تقدمه للزواج منها...

«روتشستر» لا يستحقها، لكنه يحبها. هو يعني ما قاله، لكنه كاذب. آمل أن يحافظ هذا الفيلم على الكلمات كما كتبتها «إيميلي برونتي» بالرواية الأصلية. فهي جميلة للغاية. نعم... ها هي الكلمات نفسها:

- (لدي شعور غريب فيما يتعلق بك. كما لو كان هناك رباط في مكان ما تحت ضلوعي اليسرى، معقود بإحكام برباط مماثل موجود بجسدك.

وإذا كنت ترغب في المغادرة، فأخشى أن هذا الرباط من شأنه أن ينقطع. ولدي شعور أنه لو حدث هذا سأنزف داخليًا..)

- مثل الوريد في لوحة «اثنتين من فريدا».

همست «مابيل»، فأجبتها:

- نعم.

قالت «جين» بالفيلم:

- (أنا إنسان حر بإرادة مستقلة، أمارسها الآن بأن أتركك!)

وربما يجب أن تكمل الموضوع، ربما يجب أن تغادر. نحن نعلم بالفعل أن هذا سيرحمها من بعض وجيعة القلب. لكن يبدو الأمر أفضل بكثير الآن لو قالت نعم، سأبقى. وانشغلنا «مابيل» وأنا بها بالكامل.

لفترة قصيرة، شعرت بالأحداث تسحبني خارج نفسي.

لبضع دقائق، ظلت «جين» تعتقد أنها ستكون سعيدة، وحاولت أن أصدق ذلك أنا أيضًا.

بالقرب من نهاية الفيلم، ظهر كلٌّ من «آنا» و«خافيير» في الغرفة، وقد حملا بعض الهدايا المغلفة. وضعاها تحت الشجرة وشاهدا معنا الفيلم بينما «جين» تسير وسط حطام «ثورنفيلد» للعثور على «روتشستر» مرة أخرى.

غادرا عندما انتهى الفيلم ونزلت قائمة بأسماء طاقم العمل، ثم عادا مع المزيد من الهدايا.

- ألا تزال الهدية في حقيبتك؟

سألت «مابيل» هامسة، فأومأت برأسها، فقمت لإحضارها.. صحيح أنها بدت متواضعة بجوار هداياهما الملفوفة بورق هدايا احتفالي مزركش، لكني سعيدة أن يكون لدي شيء لأعطيه لهما من الأصل.. من الجيد أنني فكرت بشراء المزهرية وقتها، لأن الآن لا توجد أي متاجر مفتوحة على الأرجح.

أدركت الآن لماذا حاولت «مابيل» الانتظار لفتح هديتها بالسابق، وشعرت بالحزن لأنني ليس لدي شيء آخر لإعطائها إياه.

ضحك «خافيير» لدى مرأى الشجرة البيضاء، وهز رأسه برضىً.. هزت «آنا» كتفيها:

- تبدو مبهرجة نوعًا ما ومضحكة.. لكن لا بأس.

حلت علينا غلالة من الهدوء. أستطيع أن أشعر كم كان الوقت متأخرًا. قال «خافيير»:

- «مابيل»، هل يمكنك أن تأتي معي للحظة؟

وسرعان ما كنتُ مع «آنا» فقط على الأريكة بجانب الأنوار اللامعة. عندما نظرت «آنا» نحوي، أدركت أن عزلتنا هذه قد تم ترتيبها عن قصد. قالت:

- لدي شيء أريد أن أخبرك به.

كانت الماسكارا قد سالت تحت عينيها، لكنها لا تبدو متعبة.

- أيمكنني ذلك؟

سألتني وهي تتناول يدي بين يديها. ضغطت على يدها، متوقعة منها أن تفلت يدي، لكنها لم تفعل. قالت:

- أردت أن أكون والدتك. منذ أول ليلة قابلتك فيها، أردت ذلك.

شعرت بكل شيء داخلي يبدأ في الطنين. فروة رأسي، وقلبي، وحتى أصابعي وأطراف روحي!

- دخلتِ المطبخ يومها مع «مابيل». كنتِ في الرابعة عشرة من عمرك. عرفت بالفعل بعض الأشياء عنكِ من قبلها، أنكِ صديقة ابنتي الجديدة التي تدعى «مارين»، والتي تعيش بمفردها مع جدها، وتحب قراءة الروايات والتحدث عنها. شاهدتك تنظرين من حولك. لمستِ الحمامة المرسومة فوق الحوض عندما ظننتِ أن لا أحد ينظر لكِ.

- لم أعد أحبها بعد الآن.

وجدت نفسي أقول، فبدا عليها الارتباك. أكملت:

- أقصد قراءة الروايات..

- ربما سوف تفعلين مرة أخرى. ولكن حتى لو لم تفعلي ذلك، فلا يهم.

- لكن ماذا لو لم يحدث؟

- ماذا تقصدين؟

- ماذا لو لم أعد تلك الفتاة التي خطَت إلى مطبخك؟

- أوه، حسنًا. فهمت قصدك.

زأرت المدفأة؛ مطلقة دفقات من الهواء الساخن. تراجعت للوراء مفكرة، ولكن لا تزال تمسك يدي بقوة بين يديها. أنا أجعل الأمور صعبة بالنسبة لها. كل ما أريده هو أن أقول نعم. لماذا لا أوقف تروس عقلي عن الدوران قليلًا وأجيبها بالإجابة التي تريدها كلتانا؟ أربعتنا بالأحرى، لو حسبت «مابيل» و«خافيير» معنا.

- أخبرتنا «مابيل» كل شيء. عن «جرامبس» وكيف توفي، وعن كل شيء آخر.. أخبرتنا عما اكتشفتِهِ بعد وفاته.

ملأت الدموع عينيها وسالت على خديها، لكنها بالكاد لاحظت هذا.. قالت:

- يا لها من مأساة. حسرة للقلب.

صمتت، ثم تأكدت من أنني أنظر إليها، قبل أن تكمل:

- خيانة.

كانت عيناها تنظران لعينيّ مباشرة.

- أتفهمين؟

لقد انتظراني في ردهة مركز الشرطة، ولكني غادرت من خلال المخرج الخلفي. لم أعاود الاتصال ولو لمرة واحدة. تصرفت بطريقة وضيعة وجبانة للغاية.. الآن أدرك هذا.. غريب عندما يتغير منظورك لنفس الموقف بعدها ببعض الوقت (أربعة أشهر بالضبط)، بالرغم من أنه نفس الموقف، وأنت نفس الشخص، أو ربما لم أعد نفس الشخص.. هل مِنا مَن يستطيع أن يجزم أنه هو نفس الشخص الذي كانه منذ عام؟ منذ شهر؟ منذ ساعات حتى؟

جعلت «مابيل» تأتي إلى هنا لتتعقبني، وها قد جعلتهما يأتيان إليّ أيضًا.

قلت:

- أنا آسفة جدًا.

قالت:

- لا، لا...

قالتها رافضة كما لو أنني طلبت ارتداء ملابس داخلية في حفل المدرسة.

قالت:

- ليس نحن، بل أنتِ. أنتِ من تعرضتِ للخيانة.

- أوه.

- هذه كلها أشياء تغير الشخص. إذا تحملناها ولم نتغير، فهناك خطأ ما. لكن هل تتذكرينها؟ تلك الحمامة في مطبخي؟

قلت:

- بالطبع.

أفكر في كم كان الرأس مرسومًا بشكل جميل. أفكر في أجنحتها النحاسية.

قالت «آنا»:

- أنتِ ما زلتِ نفس الفتاة. وما زلتُ أريد أن أكون والدتك.. كنتِ بمفردك لفترة أطول مما تتصورين. هو فعلَ أفضل ما في وسعه وبمقدوره وقتها، وأنا على يقين من ذلك.. لقد أحبك، ليس هناك شك بهذا. ولكن منذ تلك الليلة عندما اتصلتِ بي أنا و«خافيير» للحصول على المساعدة، وكلانا ينتظر الوقت المناسب لإخبارك أننا نريدك في عائلتنا. كنا سنقولها لكِ ذلك الصباح، لكنكِ لم تكوني مستعدة. ونحن لم نرد أن نتعجلك أو ندفعك لاتخاذ قرار ما عكس رغبتك خجلًا من رفض عرضنا.

مسحت الدموع عن وجهي لكن المزيد من الدموع هطلت بعد ذلك. قالت:

- قولي نعم.

ضغطت بفمها على خدي، وشعرت بقلبي يدق سريعًا، وصدري يؤلمني.

- قولي نعم.

مرت بيدها على شعري تعيده خلف أذني، بعيدًا عن وجهي المبلل.

لا أستطيع التوقف عن البكاء. هذا أكثر من غرفةٍ مرسوم اسمي على بابها. أكثر من أكواب من الماء خارج حوض المطبخ. جذبتني نحوها، حتى أصبحتُ شديدة الضآلة، بشكل لم أتصوره ممكنًا.

استند جسدي على صدرها، بينما اتخذ رأسي موضعه في المكان الذي تلتقي فيه رقبتها بكتفها، وأخذت ألهث لأنني تذكرت شيئًا ما.

بالماضي ظننت أن شاطئ المحيط، أو ربما الأصداف الوردية، أو التحديق إلى صورتها، اعتقدت أن أحد هذه الأشياء، يومًا ما، قد يساعدني على تذكر ماما. لكن ما يحدث الآن هو ما ذكّرني!

أتذكر شعر والدتي الذي تصاعدت منه رائحة مالحة، رائحة البحر، وذراعيها القويتين، وشفتيها فوق قمة رأسي.

لم أتذكر صوتها، ولا كلماتها، ولكن تذكرت الشعور بها وهي تغني، والشعور بذبذباتها على وجهي. قالتِ «آنا»:

- قولي نعم.

تذكرت يدي الصغيرة تتشبث بقميص أصفر.

تذكرت الرمال والشمس وهي تداعب بشرتي.

تذكرت شعرها المنسدل مثل الستارة، يبقيني في الظل. ابتسامتها عندما نظرت إليّ، تمتلئ بالحب.

كان هذا هو كل ما تذكرته، وهو يُغني عن كل شيء آخر.

ما زلت ألهث، وما زلت أحتضن «آنا» بقوة. إذا أفلتتني، فقد تذهب تلك الذكريات معها، لهذا ظللت متشبثة بها، خائفة من أن تشعر بالملل مني وتفلتني، لكنها ظلت محتفظة بي في حضنها لوقت طويل جدًا، ثم أخذت وجهي بين يديها وقالت:

- قولي نعم.

كانت الذكريات لا تزال هنا، حية، نابضة.

لا يزال بإمكاني أن أشعر بها. ولدي فرصة أخرى، لأخذها. همست بضعف مجيبة عليها:

- نعم، نعم.

كنا على الشاطئ وكانت الشمس مشرقة وكنت بين ذراعَي والدتي. كانت تغنّي لي.. لي وحدي.. لا أستطيع سماع الأغنية، لكن يمكنني سماع نغمة صوتها.

وعندما توقف الغناء؛ أراحت وجهها على رأسي.

العالم كله كان هناك. نحل العسل والأشجار المتساقطة.

حمامات السباحة ومحلات البقالة.

الرجال ذوو العيون الخالية من التعبير، والأجراس على أبواب المطاعم والحانات، الفنادق المتواضعة القاتمة جدًا لدرجة أنها تستقر داخل عظامك وروحك.

«مابيل» و«آنا» والرجل الذي سيصبحه «جرامبس»، أو ربما كان هو طيلة الوقت دون أن ألاحظ.

كل خيبة أمل وكل كسرة قلب.

كل لحظة سعادة وكل لحظة حزن.

كان العالم بأسره هناك، بانتظاري، لكني كنت بين ذراعي أمي، وكنت بخير، وهذا هو ما يهم حقًا...

تمت

اعترافات

بعد بضعة أشهر من وفاة جدي، في وقت كنت أبكي فيه كلما فكرت فيه، قالت صديقتي المقربة «كريستين» إن لديها فكرة رواية لي. ماذا لو كتبت عن فتاة تعيش بالقرب من شاطئ المحيط مع جدها؟ وقد بقيت تلك الفكرة تراودني لفترة لا بأس بها.

في أول ذكرى سنَوية لوفاته، وُلِدت ابنتي «جولييت». بعد ذلك، في أوائل الصيف، عندما كانت طفلة، تمشيت بمفردي للمقهى المحلي الذي نرتاده، وفجأة بدأت أصوات «مارين»، و«مابيل»، و«جرامبس»، تظهر لي وهي تقول مقتطفات من الحوار، واشتياق «مارين» لحب الآخرين لها، والأهم، حبها هي لنفسها.

أعتقد أن «كريستين» كان لديها قصة مختلفة ببالها، لأن الحب الذي تشاركته مع جدي كان بسيطًا غير معقد، وباستثناء ميله للنكات الغريبة القاسية ولعب الورق، كان لديه القليل من الصفات المشتركة مع «جرامبس». لكني كتبت الرواية خلال وقت الاضطرابات وخيبة الأمل وهو ما كان يمثل تناقضًا صارخًا مع الحب الغامر الذي تنعم به عائلتنا الجديدة، وهذا الكتاب كأنه تتويج لكل ذلك.

شكرًا لكِ يا «كريستين» على بذور هذه القصة، وعلى دعمك القوي المستمر.

وإلى ابنتي «جولييت» اللطيفة والفضولية، شكرًا لكِ على جعلي الشخص الذي يمكن أن يكتب هذه الرواية. كما يجب أن أرسل الكثير من الشكر من القلب لمجموعتي الكتابية –«لورا ديفيس»، و«تيريزا ميلر»، و«كارلي آن ويست»– اللاتي أكدن لي من البداية، على الرغم من مخاوفي، أن هذا الكتاب لم يتكون فقط من صنع الطعام وغسل الأطباق وبعض المشاعر التافهة.

شكر خاص لــ «جولز لاكور» لمساعدته فيما احتجته باللغة الإسبانية، وكذلك «آدي السيد» لتقاسم معرفته الثقافية.

شكرًا لــ «جيسيكا جاكوبس»، شريكتي النقدية الأصلية، للقراءة النهائية التي لا تقدر بثمن، ولــ «أماندا كرامب» لآلاف المحادثات على طول الطريق.

وبفضل عائلتي بدار نشر «بنجوين»، بحلول الوقت الذي تخرج فيه هذه الرواية، نكون قد قضينا عشر سنوات رائعة معًا!

شكرا لــ «جولي شتراوس – غابيل» لقيامها، من بين أشياء أخرى كثيرة، إهدائي تلك المناقشة الطويلة على الغداء في سان فرانسيسكو، والتي ساعدتني من خلالها (مرة أخرى من بين عدد كبير من المرات!) في إظهار قلب قصتي وتصديق أنها كانت كافية. أتمنى أن نتمكن من القيام بالمزيد من الكتب معًا.

امتناني الضخم والأبدي لفريق النشر بدار «دوتون»: «ميليسا فولنر»، و«روزان لور»، و«آنا بوث»، و«آن هيوسلر»؛ المصممات اللاتي أعطين هذه القصة هذه التصميمات الجميلة: «سميرة عرفاني» و«تيريزا إيفانجيليستا»؛ ووكيلتي الإعلامية الرائعة «إليزي مارشال».

وشكر خاص لكم جميعًا، أولئك الذين سيقومون بعد الانتهاء من قراءة هذا الكتاب، بالتأكد من أنه يجد مكانًا في المكتبات المختلفة والمدارس والإنترنت. أنتم تصنعون سحرًا.

«سارة كراو»، أنا محظوظة جدًا لأنكِ بجانبي. شكرًا لكِ على كل ما تفعلينه.

أخيرًا، لعائلتي وأصدقائي، أنا ممتنة لكل واحد منكم.